

نهاد سيريس

حالة شغف

رواية





حكاية الحكاية أو مقدمة أو تمهيد أو أي عنوان اعتاد مؤلفو الروايات استهلال رواياتهم

هذه هي الدنيا، غريبة جداً، وأغرب شيء فيها هي حكاياتها التي قد تسمعها من هنا وهناك. لم أتصور نفسي يوماً حكواتياً أجمع حولي الناس لأحكي لهم قصة سمعت بها أو شاهدتها بنفسي. هذا محض هراء، فأنا لا أجيد فن القص وسرد الحكايات، ولكن الحياة، هذه الغريبة التي نتمسك بها، تعطي الواحد منا مهمة وهو يحسب أنه لم يخلق لمثل هذه المهمات، وقد أعطتني هذه الغريبة مهمة عجيبة ألا وهي أن أحكي..أن أسرد عليكم حكاية غريبة سمعتها في ساعة أشد غرابة من الحكاية ذاتها.

أنا موظف في المصرف الزراعي، رئيس قسم فيه، أي أنني لست مديراً للمصرف ولست موظفاً صغيراً فيه أو محاسباً جل همه أن يجعل طرفي الميزانية السنوية رقمين متساويين فيتنفس رؤساؤه الصعداء حين يتم تحقيقهما. أما الفلاحون فقد اعتادوا على نعتنا، أنا وزملائي، بالخبراء. فقد كانت مهمتنا أن ننطلق بسيارة لاندروفر إلى الحقول لتدقيق تنفيذ الخطة الزراعية وتقدير المساحات المزروعة وتقديم القروض الزراعية للفلاحين، من بذار وأكياس فارغة وغيرها من الأمور التي أجيد تماماً الحديث فيها، وقد كنت أتمنى أن يكون ما أكتبه في هذا الموضوع بالذات، لكنت قدمت لكم تحفة علمية مزينة بالأرقام الدقيقة، ولكن.. (وهذا ليس للأسف) فقد شرعت في القيام بأمر آخر ألا وهو كتابة حكاية.. نعم

حكاية. لا تضحكوا أرجوكم.. يكفيني ما أشعر به من إحراج كبير بسبب شروعي بهذا العمل الذي لم أخلق من أجله ولم يخطر في بالي أنني سأمسك القلم يوماً لكتابة النثر الأدبي عوضاً عن التقارير الزراعية وشروحات الخطط الفلاحية التي أصول فيها وأجول كفارس حقيقي. ولكن من يعلم، فقد تحبون ما أكتبه هنا، لأنه ليس من اختراعي أو كما يقول الأدباء من بنات أفكاري وخيالاتي (المزدحمة عادة بالأرقام)..بل كل ما هنالك أنني سمعت ما سأرويه واضطررت لكتابته وسأشرح لكم لاحقاً (كما اعتدنا أن نقول في المصرف الزراعي) كل حيثيات الموضوع.. سادتي.

حدث ذلك في الشتاء الماضي حين كنا نتنقل في سيارة اللاندروفر بين القرى في مهمة من تلك المهام الوظيفية الشاقة. كنا ثلاثة، السائق ومساعدي الأستاذ تميم وأنا. كنا قد أنهينا العمل في إحدى القرى وانطلقنا قبيل الغروب في اتجاه قرية أخرى، اسمها قرية أبو الفدا. وللوصول إليها كان علينا أن نعود إلى طريق الإسفلت الضيق ونسوق فيه عدة كيلومترات ثم كان علينا أن نخرج منه مرة أخرى ونتوغل باتجاه الشرق على طريق ترابي ملعون. كانت تلك فكرتي، فقد كان علينا أن نبيت في القرية الأولى حتى الصباح، ولكن رغبتي الملحة في الانتهاء من آخر قرية قبيل ظهيرة اليوم التالي، وذلك للإسراع في العودة إلى حلب، دفعتني إلى الإصرار على الخروج في ذلك الطقس العاصف والماطر، فقد كان ماطراً وبارداً والجو معتماً حتى قبل أن يحل الليل. أما زجاج السيارة فقد كان يعلوه الغبش من جراء الرطوبة العالية وبسبب تنفس ثلاثة رجال محصورين فيها.

كنا نجاهد لكيلا يبين خوفنا، ثم كان علينا أن نمسح بأيدينا الغبش عن الزجاج لكي يتمكن السائق من رؤية الطريق بعد أن ازدادت حدة الرياح والهطل المخيف. كانا يجاهدان ليصمتا، فقد كانت لدى زميلي ولدى السائق رغبة في الصراخ في وجهي واتهامي بالغباء والتهور.

زاد في الطين بلة تعطل السيارة المفاجئ. أحسست بعرق بارد ينسل من جبيني وتحت إبطيّ. حاول السائق إعادة تشغيل السيارة عدة مرات دون جدوى، فهذه اللاندروفر النشيطة والتي أنقذتنا مرات عديدة في ظروف جوية أسوأ، تحولت إلى قطعة حديد جامدة وكسولة. أشعل السائق البطارية اليدوية ونزل. فتح غطاء المحرك وراح يعبث به وهو يطلق الشتائم.

ـ عاهرة ابنة عاهرة هذه المصلحة.

ابتسمت ونظرت إلى الخلف أشجع معاوني الأستاذ تميم على الابتسام، ولكنه نظر إلي نظرة كلها كراهية، ثم أشاح بوجهه عني وهو يردد: حسبي الله ونعم الوكيل.. مسح زجاج النافذة بكم سترته وحاول النظر إلى الخارج. امّحت ابتسامتي وتابعته لألقي نظرة بدوري ولكن نظري اصطدم بحائط مظلم تشوبه خيوط السيول المنهمرة والتي استطاعت البطارية أن تلقي عليها بعض الضوء الهارب من صندوق المحرك.

ارتعدت حين أغلق السائق غطاء المحرك بقوة، فقد أراد أن يخبرنا بالنتيجة بكل استخفاف وانتقام قبل أن يدخل مبللاً من رأسه حتى أخمص قدميه. جلس في مكانه وهو يضيء وجهي بنور بطاريته وقال من بين أسنانه:

ـ لا فائدة يا أستاذ، السيارة معطلة.

ظللت صامتاً لفترة طويلة وأنا أتمنى أن يطفئ البطارية كي أخفي حرجي. كانا ينظران إلي وكأني قرد في سيرك، أو كأني سآتي بحل سحري لمشكلتنا. طلبت منه أن يطفئها مبرراً بأن علينا الاقتصاد بالنور ثم تنفست مهموماً أردد بعض الكلمات الشائعة والتي تنبئ الآخرين بأنني أفكر بحل، بينما كنت على يقين تام من فراغ رأسي وعجزي عن تقديم أي اقتراح آخر.. فمن مساوئ كون المرء موظفاً أن يتعرض إلى شتائم وسخرية الآخرين، دون أن يستطيع أن يطلب ممن حوله الكف عن ذلك لأنه لو فعل فسيدفعهم حتماً للضحك عليه بصوت عال وسيفقد احترامهم له إلى الأبد (وقد

حلمت فيما بعد بتلك الواقعة عدة مرات وكنت أرى خلالها الأستاذ تميم والسائق يضحكان علي وأنا أذوب من الخجل، وقد كانت زوجتي تضطر إلى إيقاظي من شدة تشنجي وانكماشي في السرير).

ما العمل الآن..؟ سمعتهما يسألانني، فمادمت قد أمرت بمغادرة القرية الأولى، ومغادرة الكوخ الدافئ والمضافة العابقة برائحة القهوة المرة وبنظرات ابنة مرهج الحارّة التي كانت تسددها نحو الأستاذ تميم، تقترح بها (عليه طبعاً) أشياء وأشياء.. مادمت فعلت كل ذلك فعلي الآن أن أجد الحل المناسب لهذه الورطة التي أوقعتهما وأوقعت نفسي فيها.

قبل أن أتابع في سرد حكايتي هذه، أجد لزاماً علي أن أحكي شيئاً عن ابنة مرهج هذه (وليعذرني القارئ بسبب هذه الاستطرادات فقد حذرته منذ البداية بأنني لا أفقه شيئاً في أساليب كتابة الحكايات بشكل أدبي صحيح، ثم إن علي أن أقول ما يخطر في بالي فوراً وإلا فاتت القارئ بعض الحقائق التي أرى من الواجب الإشارة اليها قبل نسيانها).

مرهج هذا رجل طاعن في السن، يقترب من السبعين من عمره ومتزوج من ثلاث نساء. لا يفعل شيئاً طوال اليوم سوى الجلوس في مضافة أبي جاسم الذي عينته الحكومة مختاراً على القرية بعد أن مات مختارها الشيخ أسود ومنعت ابنه من أن يستلم المختارية من بعده بالوراثة كما جرت العادة. والسبب هو أن ابن الشيخ أسود لم يكن محبوباً لسبب ما من مدير مكتب الفلاحين في الناحية. أما مرهج هذا فلم يرزق بأولاد ذكور رغم زواجه من الثانية والثالثة لهذا السبب بالذات، فظلت زوجاته الثلاث يحبلن ويلدن حتى صار عنده عشرون ابنة. وبما أنه لم يرزق ببنين ليعملوا في الحقل، فقد أمر بناته بالقيام بأعمال الفلاحة والزراعة والحصاد أو بخدمتنا حين نحضر وذلك تبرعاً منه. كان يأمر إحدى بناته بأن تلبي لنا أي طلب، مثل إحضار الماء من البئر أو الطعام من البيت وتنظيف المضافة التي نبيت فيها حين نحضر، وغيرها من الأعمال.

كان الأستاذ تميم يصر على العودة إلى قرية ابي جاسم وابنة مرهج في كل مرة نكون في مهمة في الحقول القريبة. ولم يلبث الأمر إلا أن انكشف لي، فقد كانت ابنة مرهج تسدد إليه نظرات حارة وابتسامات ذات معنى، ثم تخرج من المضافة ليلحقها زميلي بعد دقائق ولا يعود إلا بعد أن ينتصف الليل..كان يعود ويسرع ويندس في فراشه ولا ينبس ببنت شفة مخافة أن ينفضح أمره.

ولكنني كنت على علم بكل ذلك. وكنت أشعر في داخلي بغيرة ولكنني كنت أصمت، ويبدو أن إصراري على الخروج في ذلك الطقس العاصف والممطر في ذلك اليوم، مرده الى تلك الغيرة وإلى احباطي الهائل بسبب اقترابي من سن الخمسين، أي ضعف ما للأستاذ تميم من سنين.

لم أكن أريد أن أعترف بما قلته، ولكن على كل من يقرأ الآن ما أكتب أن يعرف السبب الحقيقي لخروجنا ذاك، ولا أريد من أي إنسان كان أن يتصور بأنني رئيس قسمٍ فاشل.

نعود إلى قصتنا. قلت إنني كنت في وضع لا أحسد عليه، فقد كانت نظراتهما تصفعني رغم عدم التقاء أعيننا في ظلام السيارة. كنت أشعر بها وأحتمي بالصمت منها. ولكن أي صمت؟ كان المطر ينهمر على السيارة كحبات الحمص فيحدث صوتاً شبيهاً بصوت حبات الذرة حين تنضج وتتفتح وتنقر الوعاء المحصورة فيه.

فتحت باب السيارة وخرجت إلى العراء. كان ذلك كل ما أستطيع فعله. وفجأة أحسست أن الظلام لم يكن دامساً، بل إن السماء كانت مضاءة بنور خفيف لا يعرف مصدره، بل هو ضوء الظلام.. الضوء المتناثر بنسق واحد والذي يجعل الظلام لا يكون ظلاماً تاماً. خطوت مبتعداً عن السيارة، في الاتجاه الذي كان علينا أن نسير فيه لو لم تتعطل اللاندروفر. أما زميلي والسائق فلم يأبها إلي.. فربما كانا يعتقدان بأنني أفعل الصواب حين آتي بمثل هذا العمل المجنون.

كنت أسير دون أن أشعر بالبلل، كما يشعر السابح في البحر تماماً فلا يفكر بأنه مبتل، بل يفكر بقطع المسافة التالية. كنت أمشي

باحثاً بقدمي عن الطريق الترابي الذي مهددته أقدام سكان قرية أبي الفدا ودوابها. وحين كنت أشعر بأن الأرض تحت قدمي قد اختلفت تضاريسها، كنت أصحح مساري وأنحرف إلى اليسار أو إلى اليمين. كنت أمشي دون أن أفكر بشيء، بل إنني اكتشفت شيئاً زائداً عندي وأنا أسير..كان ذلك الشيء هو عقلي، ولكيلا أفكر في أيما شيء مهما كان (وخصوصاً في سلامتي الشخصية) رحت أعد خطواتي. ظللت أخطو وأعد خطواتي حتى سمعت نباح كلاب برية ضارية تقترب مني. عندها توقفت. توقفت لأميز دقات قلبي المتسارعة عن صوت السيل الهابط من السماء. نظرت حولي لأعرف الجهة التي يأتي منها صوت النباح. ولكن يا ألله كم كان ذلك صعباً، وبسبب تلك الصعوبة قررت أن أسير قدماً من جديد. كنت أقترب ونباح الكلاب يقترب مني، ولن يصدقني أحد مدى حياتي إن قلت بأنني كنت لا أبالي، ولماذا أبالي بالكلاب مادمت قد نجحت في الهرب من السائق ومن الأستاذ تميم الذي يكرهني بسبب ابنة مرهج؟ (في تلك اللحظة كرهت نفسي أنا أيضاً بسبب غيرتي إياها).

فجأة انقشع جدار الماء الواصل بين الأرض والسماء وظهرت مئة عين حيوانية تلمع في الظلام. كانت الأعين ثابتة لا تتحرك، مستديرة ولامعة بألوان فسفورية، تحيط بي من كل جانب، تدور حولي وهي تهمر بصوت مكتوم وتترصدني. ماذا علي أن أفعل؟ فكرت.. بل قلت بصوت عال وكأنني أسأل تلك العيون، ولم أجد مناصاً من متابعة السير، ولكن بحركات بطيئة وواثقة دون ركض، فقد حذرونا دائماً من الركض امام الكلاب البرية المتوحشة. سرت وتبعتني الكلاب وهي تناور حولي. يبدو أنها كانت تبحث عن ذلك الجانب مني الذي تعتبره نقطة ضعفي. ولكن ذلك هراء سقيم، فأنا بأجمعي كنت نقطة ضعف هذا الكون المائع.

كنت أسير وتلحق بي الكلاب من كل جانب..كانت تنبح أحياناً وتهمر أحياناً أخرى. تصارعت فيما بينها أيضاً ونهش بعضها بعضا..قلت بصوت عال إنها ربما تنقص عدد المشتركين في

الوليمة. ثم اكتشفت عينين أخريين على مبعدة وإلى الأمام، أغلب الظن أنهما لكلب آخر قرر أن ينتظرني حتى أصل إليه..وربما كانتا لمليكهم الذي يقودونني إليه. لابأس فأنا أتجه نحوه على كل حال. ولكن..هل يصدق أحد يا ترى إن قلت إنني توقفت مذهولاً وتوقفت معي الكلاب؟ أحسست بالحرارة تصعد إلى رأسي وبرعشة مجنونة. إنها نفس الرعشة التي يشعر بها محكوم بالإعدام والحبل ملتف حول عنقه، حين يخبرونه أنهم قد عفوا عنه لأن القانون قد تغير. فقد كانت تلك العينان عبارة عن مصباحين كهربائيين يشعان من خلال نافذة بيت.

اقتربت من البيت، وعندما أصبحت على بعد أمتار منه تراجعت الكلاب وكأنها أنهت مهمتها بتوصيلي بأمان.

كان البيت لا يشبه البيوت الأخرى التي نصادفها في القرى التي ندخلها. كان مبنياً من الحجر الأبيض والمقطع والمنحوت وفق طريقة البناء الحلبية. وكان هناك بعض الزخارف المحفورة في الحجر فوق باب البيت وفوق نوافذه. استغربت وجود البيت في هذه المنطقة. حسبت أنني في حلم يسبق الموت، ولكنني هاأنذا واقف أمامه، والكلاب بدأت تشم مؤخرات بعضها البعض وتنط تحت وابل المطر، غير آبهة بي..فما هي قصة البيت، وكيف نبق في تلك اللحظة التي كنت في أشد الحاجة إلى مصادفة إنسان؟

وللغرابة، كانت نوافذ البيت واسعة. اقتربت من النافذة المضاءة ونظرت إلى الداخل. كانت هناك مرآة كبيرة تعكس نور المصباح إلى الخارج مما جعلني أشاهد من بعيد المصباح وانعكاسه على المرآة..كانت الغرفة واسعة ومفروشة على طريقة أهل المدن الأغنياء. شاهدت لوحات زيتية معلقة على الجدران، وأثاث فخم ومريح، ومدفأة هائلة الحجم جلس إلى جانبها رجل عجوز وقد ارتدى ملابس السهرة السوداء، مطرق إلى أرضية الغرفة دون حراك، محني الظهر، وصدقوني لو لم تكن المدفأة مشتعلة تنشر الدفء والحياة إلى ما حولها لحسبت العجوز ميتاً. تركت النافذة

وصعدت الدرجتين الوحيدتين إلى باب الدار الواسع والمزخرف، ثم قرعت جرس الباب.

فتح لي رجل أنيق من أهل المدن. وقف لحظة يتأمل حالتي، مستغرباً وجودي (كما استغربت وجوده) يود لو يسألني عما أتى بي إلى هنا، ولكنه وبكل أدب سألني، بلكنة سلسة قريبة من اللهجة المصرية ولكنها ليست كذلك، عما أريد بعد ان أعلمني أنه الخادم. قلت له إنني ضائع في البراري وأود أن أقابل صاحب البيت لأستأذنه بمساعدتي، ولكي لا يخاف أخبرته من أنا ووظيفتي ومهمتي. تردد لحظة حسبت خلالها انني غير مرحب بي، ثم أعاد إغلاق الباب وابتعد. ولم تمض عدة دقائق حتى فتح الباب من جديد ودعاني للدخول.

غريب أمر هذا البيت وأصحابه، فكل شيء فيه يدعوك للتعجب. فكما وقفت قبل ذلك أمام البيت مستغرباً وجوده في تلك الأصقاع الوحشية، فقد وقفت منذهلاً لأناقته وحسن ترتيبه ومستغرباً كيف يمكن لصاحبه الذي كما يبدو من التحف المعلقة على الجدران، قد دار العالم ولم يترك مدينة بعيدة إلا زارها وأتى منها بقطعة نفيسة يعلقها أو يصفها على الرفوف التي ازدحمت بالنفائس، أقول كيف يمكن لمثل هذا الرجل، أن يترك العالم ويأتي إلى هنا ليبني بيتاً أنيقاً ويعيش فيه وحيداً متوحداً؟

أدخلني الخادم إلى غرفة صغيرة بجانب الممر تستخدم كمستودع للأشياء القديمة، وطلب مني أن أجفف نفسي وأبدل ثيابي المبللة بغيرها انتشلها لي الرجل من أحد الرفوف. كانت هناك مدفأة تعمل على الكهرباء تتوهج فيها الأسلاك، أشعلها لي الخادم كي أتدفأ بها، فاقتربت منها وظللت واقفاً إلى جانبها أطرد البرد الذي سكن داخلي بفعل البلل حتى راح البخار يتصاعد من ثيابي، حينها وجدت أن علي أن أسرع في تبديلها، كما طلب مني الخادم فقد كنت متشوقاً لمقابلة صاحب الدار.

بعد ذلك أدخلني الخادم إلى ذات الغرفة التي نظرت إلى داخلها، خلل النافذة، حين كنت في الخارج. نهض الرجل من مقعده بصعوبة وسلم علي، كان لطيفاً جداً رغم عدم تبسمه، ولكن الدفء المشع في عينيه أراحني أكثر وجعلني أقلل من شعوري بالغربة في بيته الجميل والمليء بالنفائس. وللأمانة أقول بأنني شعرت بالراحة مع الشيخ أكثر مما مع خادمه، الذي فيه شيء غير ودي يجعلك تشعر بأنه يكرهك.

كان شيخاً في السبعين من عمره أو أكثر قليلاً. سألني بكل تهذيب عن اسمي ومركزي رغم أنني كنت متأكداً من أن الخادم قد نقل له من أكون. ثم راح يبحث في ذاكرته عن اسماء أشخاص يحملون نفس كنيتي وقال انه عرفهم يوماً ما. ثم راح يصف حياته وقال إنه كان وحيداً في هذه الدنيا لا يملك فيها سوى ذاك الخادم وأنه هرب من المدينة بعد أن عاش فيها وملّها كما ملّ مئات المدن التي مر بها في أسفاره.. وأخيراً، كما قال:

ـ لقد علمتني الحياة من عظيم ما رأيت، ألا أثق بأحد مهما كان، ولكنني أيها الأخ أراك مختلفاً عن الآخرين وهذا ما تنبئني به عيناك، فأنت ضيفي، تقعد معي حتى يتوقف المطر.

شكرته ثم حدثته عن الحادث الذي جرى لي ولزميلي الأستاذ تميم حين انقطعت بنا السيارة وكيف غادرتها وبأي ظروف نفسية فعلت ذلك، ثم رجوته أن يرسل من يبحث عن السيارة بمن فيها، وفي الحال أمر الخادم أن يفعل ما طلبته منه، فانطلق الخادم بعد أن صب لنا الشاي (شعرت بأن الخادم لم يكن متحمساً مما اضطرني إلى الاعتذار منه) فبقينا أنا والشيخ العجوز جالسين جانب المدفأة نستمع إلى أغان قديمة لأم كلثوم يطلقها جهاز تسجيل مركون قريباً من الشيخ. لاحظت أنه كان يغيب مع تلك الأغاني التي تعود إلى الثلاثينيات أو ربما العشرينيات. يغيب بعيداً مع أغنية «جمالك.. ربنا يزيده»، «الليل يطول ويكيدني» و« يا آسي الحي». احترمت صمته وهدوءه ورغبته في الاستماع. انتهت أغاني أم كلثوم فأعلن المذيع

(أو ربما الذي قام بالتسجيل) ان الأغاني التالية لمنيرة المهدية. بدأت الفرقة بالعزف فكانت أغنية «غيري على السلوان قادر» ثم تبعتها أغنية «حبك ياسيدي غطى ع الكل» و«بعد العشا يحلى الهزار والفرفشة».

كان الجو ساحراً، زاد من سحره الدفء والأغاني القديمة والهدوء. كنت أستمع إلى الأنغام مصحوبة بصوت تنفس الشيخ (لماذا يحب الأغاني القديمة فحسب؟). كان صموتاً بطبعه، ولكنني فضلت أن أجره إلى الحديث عله يشرح لي كيف خطر في باله هجرة الدنيا والسكن في هذا المكان المقفر. سألته بعد ان انتهى الشريط:

ـ قل لي أيها الشيخ المحترم، ما الذي جعلك تأتي إلى هنا للعيش، كان بودي ألا أسأل ولكن الأمر يلح علي. رفع رأسه ثم حدجني بنظرة ناعمة ومتعبة وقال:

ـ لك كل الحق أن تسأل أيها الأخ الغريب، ولكن حكايتي حكاية طويلة، قد تأخذ منا وقتاً يطول حتى تسمعني أسردها عليك كلها. إنني في الحقيقة أحب أن أسردها وأحب أن يأتيني شخص يحب الاستماع إلى الحكايات.. ولكن خادمي يمنعني من الكلام حفاظاً على صحتي.

ـ وليكن يا شيخي الكريم..أحكِ لي الحكاية، فأنا أحب الحكايات منذ الصغر وأتوق لسماعها.

مد لي فنجانه وسألني بلطفه المعهود:

ـ هل تمانع أن تصب لي فنجاناً آخر من الشاي..؟

ـ على الرحب والسعة.

صببت له الشاي ثم ساعدته ليضع فيه حبة سكرين، فقد كان مصاباً بمرض السكري. أخذ يرشف من فنجانه بيدين مرتجفتين بسبب مرض الباركنسون على ما أعتقد، وراح يحكي لي حكايته التي هي أغرب ما سمعت طوال عمري.

على هامش الحكايات

أريد أن استبق الأمور وأعلم القارئ الكريم بما جرى أثناء سرد هذه الحكايات وما بعدها، فقد جعلتني هذه الحكايات أقيم في بيت الشيخ خمسة أيام بلياليها. كان ذلك هو الوقت اللازم ليتمكن الشيخ السبعيني من تذكر كل أحداثها وتفاصيلها ومن ثم سردها على مسامعي. وقد كان كريماً جداً ومضيافاً لا يشق له غبار (هذه العبارة استعرتها من احد الكتب الأدبية). وكنا نظل مستيقظين حتى وقت متأخر من الليل بينما كنا نأخذ قسطنا من النوم في النهار ولا نستيقظ إلا في الظهيرة. كما انه قد حدثت بعض الأحداث التي جعلتني اضطر للبقاء طوال تلك المدة حتى تنتهي الحكاية، وأنا هنا لا أريد أن أستبق الأحداث فأكشف عنها اللثام ولكن ليس من السيئ أن أقول بأن الخادم كان يحاول منع الشيخ من التكلم.

وعندما عدت إلى بيتي كان أهلي قد فقدوا الأمل في العثور علي، حيث كانت المصلحة تبحث عني مستعينة بالشرطة وبجهود مخاتير عشرات القرى الذين أعرفهم ويعرفونني. وفاتني أن أقول لكم بأن الخادم، بعد أن انطلق للبحث عن اللاندروفر وعن سائقها والأستاذ تميم، عاد بعد ساعتين ليخبرنا بأنه لم يجد أي أثر للسيارة، فظننت بأنهما قد تمكنا من إصلاحها ومتابعة طريقهما إلى قرية أبي الفدا (بينما أخبروني فيما بعد أنهما انتظراني حتى الصباح ولما لم أعد ذهبا لإحضار النجدة وسحب السيارة). وللأسف لم يكن ينقص بيت الشيخ سوى جهاز هاتف أستطيع بواسطته الاتصال بالمصرف أو ببيتي أثناء تلك المدة التي مكثت

فيها..وبما أن ما كان يسرده الشيخ على مسامعي بالغ التشويق، فقد نسيت موضوع الاتصال بالمدينة ولم يخطر في بالي مطلقاً أنهم سيحسبونني قد ضعت في البراري في تلك الليلة العاصفة والماطرة ومن ثم أكلتني الذئاب، مما أدى إلى استدعاء زميلي إلى التحقيق وكان لا يزال رهن التحقيق حين عدت بالسلامة إلى بيتي.

ولكن الحكايات اثرت فيّ أيما تأثير، حتى إن حياتي شعرت بها قد ارتبكت، وشعر بذلك أهلي أيضاً وخصوصاً زوجتي فحسبتني أنه قد حدث شيء لعقلي ربما بسبب خروجي من السيارة في ذلك الجو المخيف..ولكن كل ما هنالك أنني كنت مأخوذاً بتلك الحكايات التي سأبدأ بسردها عليكم ابتداء من الفصل القادم.

بقي أن أخبركم عن موضوع كتابتها بهذا الشكل الذي ترونه أمامكم، فكما قلت في البداية لم أعتد على كتابة الإنشاء أو مواضيع التعبير، وكل ما كنت أجيده هو كتابة التقارير المالية التي تهم رؤسائي في المصرف الزراعي، فهل أستطيع أن أكتب مثل هذه الحكاية الطويلة؟

كنت أعتقد بأن على هذه الحكاية أن تتخلد في كتاب، والشيخ كما تعلمون قد بلغ أرذل العمر ولم يتبق له سوى القليل، ثم إنه لو كان خطر له كتابتها لكان كتبها منذ زمن ولم يتركها حبيسة في صدره..ولهذا الأمر وجدتني أمام مهمة عظيمة وصعبة في آن معاً، كيف ستكتب هذه الحكاية أو الحكايات؟ ومن سيكتبها إن كنت أنا لا أستطيع؟

سمعت عن أحدهم يوماً وكان شاعراً معروفاً فذهبت اليه ورجوته أن يسمعني أسرد عليه الحكاية لكي يكتبها، فقد كان يجيد الكتابة. وبعد أن اقتنع مني وأسمعته جزءاً منها توقف عن الاستمرار واعتذر عن كتابتها وصرفني بالحسنى، وفي الحقيقة كان الحق معه، ففي الحكاية شيء يخدش الحياء كما قال، رغم اقتناعي بأن هذه الأشياء لم تعد تخدش الحياء هذه الأيام. وعدت إلى بيتي وقد

ازدادت همومي ومخاوفي من أن أموت وتموت معي الحكاية..ولهذا الأمر قررت أن أكتبها بنفسي..فإن وجدتني أخي القارئ لا أجيد كتابة القصص فاعذرني، ثم إنني قد فتحت كتاباً أدبياً بالأمس فوجدت المؤلف قد استهل كتابه بالاعتذار من قارئه لأن الكتاب غير كامل والكمال من صفات الخالق. فإذا كان الكتّاب المتمرسون بهذا الفن يقدمون الأعذار فهذا يعني أنني أستطيع أن أكتب ومن ثم أعتذر.

بقي أن أقول إنني حاولت العودة إلى بيت الشيخ مرة أخرى فلم اهتد إليه. حاولت أيضاً صيفاً واستعنت بالبوصلة وسألت كل الفلاحين والرعيان عن البيت فلم يتعرف عليه أحد..هذا غريب طبعاً، ولكنني أؤكد لكم أنني وصلت إلى هناك في ليلة عاصفة وماطرة..

وإليكم الحكايات.. وقد تجدونني أخرج عن سياق القصة لأناقش الشيخ وأجادله حول ما أسمع، أو قد ترونني أصف الشيخ وخادمه والبيت الذي عشت فيه خمسة أيام، أو تسمعونني أحكي عن الأحداث الفظيعة التي حدثت لي هناك، فأرجو المعذرة... والله من وراء القصد.

1

كيف ظهرت وداد البريئة في صورة مع المفوض السامي

قال الشيخ.. كان ذلك في 27 أيلول ...1936

كان القطار يقترب متمهلاً من محطة الشام وهو يطلق صفارته دون انقطاع.

لم تنهض وداد لتنظر من النافذة إلى الخارج كما فعل معظم الركاب. كانت تتشبث بالمقعد تجاهد لكي لا تلتقي عيناها بعيني الرجل الذي جلس في المقعد المقابل إلى جانب باب المقصورة لا يفعل شيئاً سوى النظر إليها. تمنت لو ينهض هو أيضاً فيخرج رأسه من إحدى النوافذ في الممر الضيق لقطار الشرق السريع. تردد رمشاها ثم نظرت مستطلعة. تمنت لو أنه حوّل عينيه عنها إلى السماء، إلى المباني الأولى للمدينة، إلى الأشجار التي أصبحت بطيئة في هروبها إلى الخلف أو إلى صورة برج أيفل المعلقة على خشب المقصورة فوق رأسها. ولكنه كان يتابع النظر إليها وفي عينيه شيء مخيف لطالما قصدت أمها تنبيهها منه حين كانت تنصحها بالاحتراز من الرجال. كان سيرسم ابتسامة لولا أنها انكمشت أكثر والتصقت بزاوية النافذة وعادت للنظر إلى يديها المركونتين في حجرها.

ألغت وظيفة البصر وأصبحت تتواصل مع ما كان يجري بواسطة أذنيها فقط. كان القطار يتباطأ بينما يستمر في إطلاق صفارته. من الممر كانت تسمع تعليقات الركاب ثم بعض الهتافات الحماسية، فالقطار يحمل بعض الرجال المهمين، ومن المفترض أنه سيجري لهم استقبال حافل. تمنت لو تنهض وتنظر لترى هل هذا صحيح؟ ولكن الرجل سيستمر في النظر إليها وعندها سيغرز نظراته في مؤخرتها. إذن عليها المكوث هكذا حتى يتوقف القطار، عندها سيتسنى لها الهرب. ولكن ماذا لو فرغ القطار من الركاب إلا هما؟ أصابتها رعدة وشعرت بسخونة في وجهها. كانت تعيش لحظات رعب، ذات الرعب الذي كانت تحسه حين كانت أمها تسرد عليها في ليالي البرق والرعد ماذا يمكن أن يفعله الرجال بفتاة صغيرة. الخوف كان بسبب نصائح الأم المريضة أما الآن فهو بسبب شيء حقيقي، بسبب رجل جالس أمامها ينظر اليها بطريقة واحدة في غفلة عن جميع الركاب الذين كانوا يتسلون بالنظر إلى الخارج ويطلقون الهتافات الحماسية ضد فرنسا ويحيون الوفد. أي وفد؟... وما هو الوفد؟ ولماذا يحتفون به؟ ومن أين هو قادم؟

انتظرت على رصيف محطة ميدان أكبس أكثر من ثلاث ساعات قبل ان يصل القطار القادم من استنبول في طريقه إلى حلب. كانوا قد أرسلوا لوداعها عبدو السنكة، وهو ولد مجذوب بنصف عقل أطلقوا عليه أسم السنكة لأنه اجتاز أحد الأيام الحدود التركية (تقع ميدان أكبس على الحدود التركية) فطعنه أحد الجنود الاتراك بالسنكة فأصبح يعرج وصار مضحكاً أكثر، وهناك عاهة ثالثة تجعله مضحكاً جداً، ففي صف أسنانه العلوية الامامية فجوة كبيرة تجعله يصفر دون قصد حين يتكلم. وقد كانت وداد تتسلى دائماً بعبدو السنكة حين يأتي إلى بيتهم، قبل ان تموت أمها، وكان يحرص على زيارتهم لخدمتهما وتسلية وداد، تلك الفتاة اللذيذة التي تضحك وتضحك كلما تحرك أو ركض أو تكلم، فيشعر بالغبطة ويروح، مستلقياً على ظهره، يضحك محركاً يديه وساقيه إلى الأعلى. كان

يلمسها في بعض الأحيان بينما هي ساهية أو مغشي عليها من الضحك فيشعر برجفة غريبة تجعله سعيداً طوال يومه ويفقد جزءاً من حيويته ويفضل بعدها الركون في الظل تحت إحدى الأشجار. هي لم تكن تفهم معنى تلك اللمسات وماذا يحصل له، وعندما رآه يوماً إمام المسجد الشيخ عبد الصبور نهره ثم لحق به ممسكاً غصن رمان رفيعاً يريد تأديبه. لم تفهم حينها وداد سبب غضب إمام المسجد ومؤذنه حتى إنها كرهت الشيخ، وعندما جلس هذا الشيخ إلى جانب فراش أمها المريضة يهمس لها وهو يتطلع إلى وداد حسبت أنه يشكوها إليها لأنها تكرهه، هكذا حسبت، وعندما أصبحت في المساء وحيدة معها أعادت الأم على مسامع الابنة تحذيراتها لها من الرجال ولكن وداد لم تكن تحسب عبدو السنكة منهم، ولم تكن تشعر بالخوف منه على الإطلاق.

ثلاث ساعات في انتظار قطار الشرق السريع قضاها عبدو السنكة وهو يبكي لأنه سيفقد وداد إلى الأبد، فهو يعلم، رغم عقله القاصر، أن أمها قد أوصت برحيل ابنتها إلى حلب بعد موتها، وقد رأى الشيخ عبد الصبور وهو يعطيها ظرفاً فيه رسالة وعليه العنوان وبعض النقود ثم أرسله معها كيلا تنتظر وحيدة، ذلك القطار الذي يتأخر في بعض المرات أكثر مما تحتمله فتاة في الثامنة عشرة. وعوضاً عن مواساتها وجعلها تنسى خوفها بإضحاكها كما اعتاد أن يفعل (كانت خائفة مما يخبئه لها سفرها بالقطار وحيدة للمرة الأولى في حياتها) كانت وداد هي التي تواسيه وتتحدث معه طوال الوقت تكذب عليه أنها سترجع سريعاً، وهي تعلم جيداً أنها لن تعود. وعندما وصل القطار يسبقه صفيره الطويل الممتد، تغير حال عبدو وصار يضحك وينط فرحاً من منظر القطار المزينة بعض عرباته بالأعلام واللافتات، مما أضفى عليه بعض البهجة طيرت النصف الباقي من عقل عبدو السنكة. والآن أصبحت هي تبكي وهو يضحك لاهياً عنها، وبصعوبة استطاعت ان تمسك به وتجعله يهدأ ثم ضغطت على يده بقوة وجرته إلى إحدى العربات غير المزينة وعند

بابها أمسكت بيده بكلتا يديها تشجع نفسها على الصعود ومن ثم الابتعاد عن القرية التي ولدت فيها ولم تغادرها إلا اليوم.

صعدت إلى العربة وبحثت لها عن مكان فارغ في إحدى المقصورات. وبعد ان ركنت حقيبتها في رف الامتعة جلست. كان عبدو واقفاً تحت النافذة يتحسس يده التي أمسكت بها قبل قليل. كان يتحسس يده وينظر إلى وداد الجالسة خلف النافذة. كانت دموعها ترسم خطين على وجنتيها، وقبل ان ينطلق القطار شعر عبدو انه أكثر الناس سعادة فراح ينط وهو يضحك ليجعل فتاته تضحك ولكنها ظلت تبكي حتى انطلق القطار، وعندما ابتعد عبدو السنكة ومبنى المحطة كثيراً مسحت دموعها وابعدت عينيها عن النافذة لتلتقي بعيني ذلك الرجل الذي قضى الوقت كله ينظر اليها دون ان يجعل باقي المسافرين في المقصورة يشتبهون به.

انتبهت إلى أصوات جديدة، اختلطت بنعومة بصفارة القطار وهتافات المسافرين وصليل الحديد على الحديد. كانت أصوات الموسيقى تقترب وتعلو، حينها شعرت بإلفة مفاجئة تجاه المحطة التي سيتوقف عندها القطار. ودون أن تنظر إلى الرجل، وبسرعة، أدارت وجهها باتجاه النافذة. كان هناك حشد هائل من البشر قدموا لاستقبال الوفد القادم بالقطار. كانوا يهتفون فرحين، يرفعون اللافتات والاعلام ويلوحون بأيديهم باتجاه العربات الأولى، بينما راحت فرقة موسيقية من الدرك تعزف المارشات العسكرية. ابتسمت دون أن تشعر، فقد أفرحها الاستقبال الحاشد.

ـ إنهم يستقبلون الوفد..

استدارت بشكل عفوي وأثر انفعالها مرسوم على وجهها. كان الرجل يوجه اليها الحديث وقد اقترب هو أيضاً من النافذة. في تلك اللحظة دخل المسافرون لالتقاط حقائبهم وهم يثرثرون ويضجون، وفكرت بان تنهض هي أيضاً ولكنها كانت ستحتك بالرجل ان نهضت فظلت على جلوسها، ولأول مرة نظرت في وجهه هكذا عن قرب.

كانت عيناه محمرتين، ينظر في عينيها كأنه يخترقهما. كأنه يتفرج على شيء لا يملكه أحد سواها. حينها شعرت أن عليها أن تهرب، أصبح الأمر خطيراً. تململت في مقعدها ونظرت اليه برجاء أن يتركها تنهض وترحل، ولكنه، مستفيداً من كونهما أصبحا وحيدين في المقصورة، مد يده نحو وجهها وراح يتلمسه. ارتدت إلى الوراء وصارت ترتجف بينما كانت الموسيقى تعلو أكثر وشعرت بأنها إن صرخت فلن يسمعها أحد فوجدت نفسها ترجوه:

ـ الله يخليك. ولكن يده ظلت تجول على خديها وذقنها وانفها، لا تهدأ، توزع دفءها على كل بشرة وجهها. ولم تجد مناصاً من دفعه والنهوض فوقع على المقعد الآخر فالتقطت حقيبتها وخرجت. وعندما نظرت لتعرف إن كان سيلحقها وجدته جالساً يبتسم لها بنشوة، وخافت ان يلحق بها فراحت تركض تبحث عن وسيلة لتنزل بها إلى رصيف المحطة، وقد كان ذلك من سابع المستحيلات فقد كان الجمهور قد التصق بالقطار وسد المنافذ على الجانبين فاضطرت إلى الانتقال من عربة إلى أخرى علها تجد مخرجاً ممكناً.

كانت جموع الناس تتموج ذهاباً واياباً بينما استمرت الفرقة الموسيقية في عزفها للمارشات العسكرية، حتى ضاق رصيف المحطة بهم، واضطر بعضهم إلى تسلق القطار وتراكضوا على سقفه ليصلوا إلى العربة التي سينزل منها الوفد ليطلوا عليه من الأعلى. وعندما أطل رئيس الوفد (وكان بالمناسبة هاشم الاتاسي) سمع هدير قوي وحاول المستقبلون الإفلات من رجال الدرك الفرنسيين للاقتراب من العربة، ولكن الأوامر كانت مشددة وكان على الدرك إبقاء الناس بعيداً عن العربة التي سينزل منها الوفد كي يتسنى للمفوض السامي المسيو دو مارتيل الاقتراب ومصافحة الوطنيين العائدين من باريس.

اقترب المفوض يرفل ببذلته البيضاء والتي علق على صدرها نياشينه العديدة وأخذ هاشم الاتاسي بالأحضان حتى إنه شمه عن عمد ليكتشف فيه رائحة خريف مدينة باريس، ثم صافح باقي

أعضاء الوفد الذين كانوا ينزلون من العربة الواحد بعد الآخر وكانوا ينتظرون على الدرجات ريثما يأتي دورهم للمصافحة أو العناق، وكلما ظهر أحدهم على درجات العربة كان يستقبل بعاصفة من التصفيق وبكثير من الهتافات من الجمهور المحتشد. ورغم أنهم كانوا قد قضوا ستة أيام في هذا القطار لم يظهر عليهم التعب والارهاق من الجلوس الطويل والملل لأنهم كانوا قد جهزوا أنفسهم قبل الوصول إلى محطة حلب فحلقوا ذقونهم وغسلوا وجوههم وبدلوا ثيابهم فكان ظهورهم مؤثراً حتى إن العديد من المستقبلين بكى تأثراً. ثم توسطهم سعادة المفوض السامي لالتقاط صورة تذكارية، وقد روعي أن تكون الصورة معبرة أكثر تشرح الوسيلة التي أقلت الوفد من باريس العظيمة إلى حلب المستعمرة فوقفوا بحيث تظهر عربة القطار في الخلفية، وفي اللحظة التي برق فيها اللامع الصناعي اللازم لوضوح الصورة ظهرت وداد حاملة حقيبتها على سلم العربة فظهرت بالتالي في الصورة التذكارية التي وزعت على جميع الصحف المحلية وصحف العاصمة (ظهرت وداد ذات الوجه البريء فوق رأس دو مارتيل) وهناك من أقسم أنه رآها على الصفحة الأولى لإحدى الصحف الباريسية، كما كبّرت الصورة وعلقت على جدران مكاتب المفوض السامي والكتلة الوطنية وبعض بيوت أعضاء الوفد.

عندما شاهدها الجمهور تقف بخوف وبراءة على سلم العربة، راحت الأصوات تخفت ثم عم الصمت، ولم يعد يسمع أي صوت سوى صوت موسيقى المارشات حيث كان قائد الفرقة الشاويش صاموئيل يحرك يديه ليقودها وقد أدار رأسه باتجاه وداد، ولم يكن أعضاء الفرقة بأحسن منه، فقد كانوا هم بدورهم يعزفون وهم يتطلعون إلى تلك القروية التي نبقت من داخل عربة الوفد تحمل حقيبتها العتيقة وتضع على رأسها منديلاً لتخفي به شعرها عن عيون رجال المدينة. حتى الوزراء وأعيان المدينة الذين جاءوا لاستقبال الوفد بهتوا لظهور القروية رائعة الجمال، ولكن المفتي كان الوحيد الذي

حاول غض نظره بعيداً عنها ولكنه لم يستطع، فقد حسب أنها ربما تكون جنية أو ملاكاً نزل من السماء ليحرس الوفد أثناء ترحاله فلذلك لابأس من النظر إليها. وقد استغرب سعادة المفوض السامي ذلك الصمت فاستدار إلى الخلف، وقد لزمه بعض الوقت ليعي المسالة، وتساءل في ذهنه عن سبب وجود هذه الفتاة هنا، وبسبب نظراته تلك (ونظرات أعضاء الوفد أيضاً) زاد ارتباك وداد وصار لزاماً عليها أن تشرح الموضوع فقالت بتردد وبصوت خافت:

ـ لم أجد مكاناً آخر أنزل منه..

لم يفهم المفوض السامي في بادئ الأمر ما قالته له الفتاة فظل ينظر اليها كالأبله، ولكن عندما انفجر الجميع بالضحك لطرافة الموقف (الحلبيون لديهم حس للفكاهة رغم ما يشاع عنهم) اقتنع دو مارتيل ان في الأمر مصادفة فأهمل القروية التي سلبت بجمالها لب المستقبلين، ودعا الوفد للتحرك فعادت الهتافات وعلت من جديد موسيقى المارشات. وشق الدرك الفرنسيون طريقاً للوفد بين الحشود التي عادت إلى التدافع، فكل واحد يريد القاء نظرة إلى رئيس الكتلة الوطنية هاشم الاتاسي الذي كان يرأس الوفد، أو إلى سعد الله الجابري ابن المدينة والسياسي الأنيق.. وهناك من كان محتاراً إلى من ينظر فمن النادر ان يجتمع في مكان واحد وفي زمان واحد كل هذا العدد من الوطنيين ورجالات السياسة السوريين إلى جانب جنرالات الحكم الاستعماري.

خرجوا من المحطة يسبقهم المفوض السامي الذي ضاقت بدلته البيضاء على جسده البدين، يتبعهم الناس والفرقة الموسيقية التي كانت تعزف لحناً عسكرياً رشيقاً. ولم يمر وقت طويل حتى كانت وداد تقف وحيدة على الرصيف وإلى جانبها حقيبتها وقد هدأ اضطرابها. تقف وحيدة إلى جانب عربة القطار بينما القاطرة مستمرة بنفث بخارها الأبيض اللطيف. ولكنها كانت مشوشة الذهن مما حصل معها، فهي لم تكن في يوم من الأيام تحلم بمثل هذا الاستقبال في هذه المدينة الواسعة التي يسمونها حلب، والتي طالما

حذرتها أمها المتوفاة من رجالها. ولكن.. لو تعلم في قبرها في ميدان أكبس كيف استقبلها الرجال في محطة القطارات، فهل كانت ستغير رأيها بهم يا ترى؟ رفعت وداد كتفيها تجيب نفسها بصمت ثم أخرجت الظرف الذي كتب عليه عنوان من يجب ان ترحل اليهم ثم التقطت حقيبتها وخرجت من المحطة. وقفت تنتظر عربة لتستقلها كما أوصاها بذلك إمام مسجد ميدان أكبس الشيخ عبد الصبور، ولكن أية عربة في هذا الوقت؟ فقد فرغت الساحة والشوارع من الناس الذين تراهم الآن من بعيد يسيرون في حشد هائل خلف العربات والسيارات التي تنقل الوفد والمستقبلين الرسميين، وهتافاتهم تختلط بإيقاع المارش العسكري.

دخل الخادم علينا وبيده إبريق من الشاي الحار. صمت الشيخ فجأة وكأنه يعطيه الفرصة كي يقوم بعمله بصب الشاي، ولكن خطر في بالي بأن الشيخ صمت لأنه يخادع خادمه أو ربما لأنه كان يريد أن ينشد بعض الراحة. على كل فقد صب الخادم الشاي دون قرقعة وقدم لكل منا فنجانه بخفة، ولو كان الشيخ قد استمر في الكلام لما تأثر انتباهي بوجود شخص ثالث، بل على العكس، فقد شعرت أن صمت الشيخ دفعني إلى متابعة الخادم فيما كان يقوم به، وتملكني أيضاً الشعور بعدم الراحة الذي خبرته منذ اللحظة الأولى التي واجهته فيها عند باب البيت. مع ذلك شكرت الخادم بلطف وبدأت بارتشاف الشاي الساخن فقد كنت لا أشبع منه بسبب البرد الذي تسلل إلى عظامي أثناء تجوالي في البرية بعد خروجي غير المفهوم من اللاندروفر. وما إن خرج وأغلق الباب حتى جاءني صوت الشيخ الهادئ والرخيم..

ظلت وداد واقفة خارج المحطة ساعة كاملة حتى أتتها عربة حنتور ذات غطاء أسود يجرها حصان وحيد. أعطت السائق العنوان ثم ارتاحت في المقعد الخلفي مطمئنة، فقد كان السائق رجلاً يوحي بالثقة، ثم راحت تتفرج على المدينة.

تساءلت في سرها كيف كانت المدينة تبدو لأمها قبل ثمانية عشر عاماً؟

كانت قد حدثتها عن ذلك النهار الذي هربت فيه من المدينة. هربت بالقطار المسافر إلى الشمال الذي استقلته من نفس المحطة. في ذلك اليوم من الحرب العامة التي تقاتل أثناءها الجميع وكل البلدان. كانت الحرب في نهايتها وكان الاتراك يتجمعون بالآلاف في المحطة، كل يبحث لنفسه عن مكان في القطارات التي ستغادر إلى الأراضي التركية. رجالات سياسة سابقون، ضباط أخفوا رتبهم، ولاة قدماء، كبار موظفي الدولة العثمانية ورجال كان السلطان قد خلع عليهم رتب الباشوية، قائمقامات لبلدات ونواحٍ ضائعة في خضم الأحداث العسكرية المدمرة. كانت المحطة تغصّ أيضاً بالنساء المترفات والاطفال الشبعانين وبمحظيات القادة العسكريين القلقات على مستقبلهن.

كل هؤلاء كانوا يفترشون أرصفة المحطة غير عابئين بأناقتهم التي طالما حرصوا عليها، كانوا أيضاً يتأبطون الصرر والحقائب التي حملوا فيها ما ادخروه أو نهبوه في الولايات التي حكموها. كانت القوافل تصل إلى المحطة باستمرار، وعندما لم يتبق لهم موطئ قدم داخل المحطة وعلى أرصفتها، أنزلوا أحمالهم عن العربات والبغال (ثم تخلوا عنها فيما بعد عن طيب خاطر لأن الروح أغلى من كل متاع) وسكنوا الساحة الخارجية للمحطة. وعندما وصل القطار هب الجميع دفعة واحدة وصار كل واحد فيهم يصرخ محاولاً شق طريقه إلى فتحات العربات ليحتل له مكاناً فيها. وقد حاول كل واحد التعريف بنفسه، ولكن من كان يهتم بالرتب أو بالألقاب؟ أما من استطاع الوصول إلى احدى العربات فقد كان يصرخ لأنه أضاع أحد مرافقيه أو إحدى زوجاته أو أحد أبنائه..

وبصعوبة شديدة استطاعت الأم ان تجد لها مكاناً في عربة لنقل المواشي. كانت في الشهر الخامس من حملها، ولم يكن حملها ظاهراً للعيان بشكل واضح، ولكنها من أجل ان تحصل على المكان

أظهرت بطنها بشكل مبالغ فيه فرأفوا بحالها ثم ساعدوها على الصعود. ومن مكانها في العربة أصبحت شاهدة على النهاية الأليمة لحكم العثمانيين لسورية.

لم يتحرك القطار إلا في الليل. كان الهاربون يستعجلون القائمين على المحطة ليتحرك القطار في أسرع وقت، فالشائعات كانت تتوارد بأسرع من البرق، وكلها تنبئ بأسوأ العواقب للمتخلفين عن الهرب، فالجيوش العدوة أصبحت على مشارف حلب. قالوا في البداية إنها أصبحت في خان السبل، ثم وفي المساء ورد خبر يؤكد بأن الانكليز احتلوا الشيخ سعيد على مشارف حلب، حينها اضطرب الخلق وبكت النساء، أما الأم فلم تكن مهتمة كثيراً، فهي عربية وكانت تريد الهرب إلى تركيا قبل ان تغلق الحدود ليكون عندها أمل في أن تجد ذلك الضابط التركي، اليوزباشي جودت، الذي كان قد زرع الجنين في بطنها قبل ان يستدعوه على عجل للالتحاق بوحدته في مكان ما على الجبهة الجنوبية.

في العربة، وبعد أن اطمأن الناس إلى ان الحظ قد حالفهم، وهاهو القطار يتحرك مقترباً بهم إلى شط الأمان (كان القطار يتحرك ببطء شديد بسبب حمولته الزائدة من البشر) اكتشف الرجال جمال الأم. أصبحت العيون تنغرز فيها، تتابع كل حركة تأتي بها. عيون الرجال والنساء معاً. عيون الرجال الشهوانية وعيون النساء المليئة حقداً وغيرة. لم يدعوها تفكر بحرية في ضابطها الجميل الذي عشقته فأعطته أغلى ما عندها. كان عليها طوال الوقت ان تخفي حرجها، وبسبب اكتظاظ العربة كان عليها ان تستمر في دفع الرجال الذين أرادوا الالتصاق بها في عتمة الليل ونفث زفيرهم الحار في وجهها. ولكن عند الفجر أنقذها الجيش من جحيم الرجال، فعندما توقف القطار في محطة ميدان أكبس للتزود بالماء والحطب، أتاهم الأمر الذي لا عودة عنه، الأمر الفظيع والقاسي بلا رحمة والذي رفعوا أصوات الاستنكار بسببه وهم يبكون أو يتباكون ثم صمتوا وأذعنوا له.. على المدنيين ان ينزلوا من القطار ويتابعوا

السفر مشياً على الأقدام، حتى يتسنى للجيش نقل جرحاه ومعداته بسرعة إلى ما خلف الحدود. وبينما تابع الجميع السفر كيفما شاءوا إلى الأراضي التركية قررت الأم المكوث في ميدان أكبس.

كانت محطة القرية الشريان الرئيسي الذي ستمر من خلاله كل الجيوش المنسحبة إلى الداخل التركي. لهذا السبب ظلت على الرصيف تنتظر القطار الذي يحمل حبيبها اليوزباشي جودت. كانت كلما وصل قطار جديد من الجنوب تنهض وتقف حتى يتمكن من رؤيتها في حال كان منسحباً في ذلك القطار. مرت عليها أيام وهي على هذه الحال، ولكن دون جدوى، ففي نهاية الأمر وصل الجنود الانكليز يطاردون الأتراك المنسحبين ويقتلونهم، عندها عرفت أنها فقدت اليوزباشي إلى الأبد، وبدلاً من أن تعود إلى حلب (كان هذا الأمر مستحيلاً أيضاً) قررت استئجار بيت في القرية والبقاء فيها حتى تحين ساعة الولادة.

لكي يقبل أهل القرية العيش معهم، اخترعت الأم قصة أخرى..حياة ثانية عاشتها في خيالها. لم تقل لهم الحقيقة التي دفنتها في سرها إلى الأبد، بل جعلتهم يعتقدون أنها كانت زوجة اليوزباشي جودت وأن أهلها قد ماتوا جميعاً في الحرب وأنها كانت مسافرة إلى تركيا للبحث عن زوجها الضابط وعن أهله ولكن مجيء الانكليز واستمرار الحرب بينهم وبين الأتراك على طول الحدود منعاها من ذلك. كانت الأم جميلة، ناعمة لم ير أهل القرية امرأة بهذا الجمال حتى ولا التركيات المترفات اللواتي مررن بالقرية أثناء هربهن إلى استنبول. كانت براءة وجهها وتعابيرها اللذيذة ودموعها تقنع الصخر الأصم فكيف بقرويين بسطاء، والذي أقنعهم أكثر بصدقها هو طريقة حياتها بعد أن ولدت طفلة جميلة أسمتها وداد وجعلت تعمل بصمت وجلد في أي عمل متوفر من أجل إطعامها وتربيتها. ولم تشعر القرية إلا بوداد وقد أصبحت صبية جميلة تشبه أمها في رقتها وبراءتها وسحرها. حاول بعض الشباب التقرب من الأم لخطبة وداد ولكنها كانت ترفض تزويجها، حتى إنها

لم تسمح لأحد من الاقتراب من بيتها اللهم إلا لذلك الشاب المجذوب عبدو السنكة بعد ان اطمأنت اليه. كانت تزرع باستمرار (ولسبب غير مفهوم) الخوف من الرجال في أعماق ابنتها خارقة الجمال، فشبت وهي تخافهم وتتحاشاهم. وعندما مرضت الأم بمرض السل الرهيب وعرفت انها ستموت قريباً صارت تحدثها عن المدينة وحياة المدينة وعن بعض معارفها في حلب. هذه المرة زرعت فيها حب المدينة. كانت تريدها ان ترحل إلى حلب بعد وفاتها، ولهذا الأمر أخبرتها أن لها صديقة عزيزة أسمها الخوجة بهيرة، وان عليها أن ترحل اليها بعد وفاتها حاملة منها رسالة توصية، وطلبت منها أن تنسى إسمها مؤقتاً ريثما تفارق الحياة، وان عليها أن لاتذكر إسم الخوجة أمام أحد من أهل القرية، وأن لا تسألها أي سؤال يتعلق بها.

استدار سائق العربة ونظر خلسة إلى وجه الفتاة وقال في نفسه ما شاء الله وكان. كانت وداد تتفرج على طرقات المدينة بحزن مشوب بدهشة. كان كل شارع أو منعطف أو مبنى يذكرها بأمها. كانت تتصورها تسير متأبطة ذراع ضابطها التركي، أو تقطع الشارع أمام العربة بمفردها وهي تبحث في وجوه الرجال الذين تحولوا جميعاً إلى ضباط أتراك باحثة عن رجلها الذي ضيعته الحرب العامة. ولكن لماذا رفضت أمها النزول إلى حلب؟ لماذا لم ترافقها واكتفت بوصفها لها وزرع حبها لها في قلبها؟ كل شيء غامض، ماتت أمها وتركت الف سؤال يحير وداد. من هي الخوجة بهيرة.. ولماذا أبقت صداقتهما سراً غامضاً.. ولماذا أرادتها أن ترحل اليها بعد وفاتها؟ كما قلنا، فقد كان كل شيء غامضاً في عقل فتاتنا الجميلة مثل تضاريس هذه المدينة العتيقة.

قال الشيخ.. كانت بديعة (وهو اسم الام) جميلة ولكن جريئة. لم تكن خجولة مثل ابنتها وداد. ربما كل ما جرى لها جعلها تربي ابنتها بطريقة جديدة، طريقة قد تغنيها عن خوض نفس التجارب

التي مرت بها الأم. كل الامهات يردن لبناتهن حياة أخرى غير التي عشنها، وخصوصاً بديعة، التي هربت من بيت أهلها في بداية الحرب. كان الرجال قد بدأوا يختفون من الشوارع ومن البيوت. محكوم على الرجل أيام الحرب ان يذهب إلى الحرب أو ان يختفي. هذه هي الحكمة أو القدر المتربص للرجال، فقد كان الجندرمة الاتراك، ذووا الحبال يتربصون بهم على ناصية الشارع. كانوا يلتقطونهم ثم يختفون بهم إلى حيث لا يعلم سوى الله ما قد حصل لهم، وهذا كان نصيب أخيها محمد علي المتزوج حديثاً، أما أبوها فقد هرب. صار يرسل لهم بعض المؤن والنقود كل مدة ولكنه هرب على كل حال. أصبح البيت بيتاً للنساء فحسب، وقانونه قانون النساء. أمها كانت شديدة وصعبة المراس. كان أغلب النساء في البيت من الجميلات ولهذا السبب راحت الأم تفرض عليهن قوانينها الصارمة، لهذا السبب هربت بديعة إلى حلب. وبما أنها غالباً ما كانت تسلي أخواتها وامرأة أخيها بان تعقد شالاً حول وسطها وترقص لهن، فقد قررت ان تستفيد من هذه الموهبة لتحصل على لقمة عيشها.

لم تكن الحياة في بلدتها مستحيلة، فقد كان مجتمع النساء يدبر حاله ويمشي أموره، أما هنا في حلب فقد اصطدمت يوم وصولها بمظاهر الجوع. كانت الشوارع في بعض الأحيان تخلو من المارة الأصحاء، وفي أحد الطرقات مرت بجثة رجل عجوز مات من الجوع. ارتعبت بديعة. خافت مما تخبئه لها هذه المدينة التي طالما سمعت بها وجعلت تأتيها في المنام. حسبت ان الأمور تجري على غير هذا المنوال.. الناس يموتون جوعاً بينما هي قادمة هاربة من قوانين أمها الصارمة. كادت ان تعود أدراجها إلى بلدتها والى دولة أمها لو لم يسألها رجل مر بها وهي لاطية إلى جانب أحد الأبواب فطلبت منه حسنة لله فأعطاها قرشاً.. سألها إن كانت تجيد شيئاً غير الشحاذة فقالت انها تعرف الغسيل والتنظيف والطبخ والرقص. نعم، تجرأت وذكرت الرقص لأنها فعلاً كانت تعرف كيف تهز خصرها وثدييها، وحسناً فعلت ذلك فأعمال الكنس والتنظيف

والطبخ لا قيمة لها تلك الأيام خصوصاً وانه ليس هناك ما يطبخ ويؤكل. قال لها الرجل انهضي واتبعيني. تبعته وهي تقضم قطعة من الصمون المتيبس اشتراه لها كي تسد رمقها ريثما يتدبر أمرها.. ولكن إلى أين قادها ذلك المحسن الذي جاء في الوقت المناسب؟.. هكذا سألت الشيخ وانا اتحرق شوقاً لمعرفة مصير بديعة، فقد بدأت القصة المشوقة تفعل فعلها فيّ حتى إن كوب الشاي كان قد برد وكنت قد نسيته منذ ان بدأ الشيخ الجليل في سرد قصته. طلب مني ان أكون صبوراً إن أنا أردت سماع الحكاية حتى النهاية فاعتذرت منه ثم تناولت كوب الشاي فعرفت حين ذاك انه بارد رغم شعاع الدفء الذي كان يشع من المدفأة.. هناك شيء أريد ان يعرفه القارئ وهو انني كنت أريد معرفة قصة الأم كي نعود إلى قصة الابنة، ولكن الشيء الممتع في طريقة سرد الشيخ للحكاية هو انه يتنقل من هذه إلى تلك دون قانون معين ودون ان ينتهي من حكاية الأولى لينتقل إلى حكاية الثانية وأنا لا أعرف السبب ولكنها طريقة ممتعة.. والآن فلنعد إلى حكاية بديعة واعتذر من القارئ لهذا التدخل من طرفي ولكنني أجد من المناسب الدخول على الخط بين فترة وأخرى لأن وجودي مع الشيخ واستماعي إلى حكايته هما حكاية بحد ذاتها..

قال الشيخ الجليل ان ذلك الذي تسميه محسناً قد أخذها إلى إحدى أشهر المغنيات في المدينة في ذلك الزمان وهي الخوجة بهيرة وباعها إليها بتسع ليرات ذهبيات ثم رحل ولم تصادفه بديعة مرة أخرى أبدا. سألته وأنا أرتجف غضباً:

ـ باعها ذلك الوغد؟

ـ نعم باعها، ولكن لا تفهم من كلمة باعها انه قد باعها فعلاً، لقد عرف من جمال وجهها ومن إخبارها له انها تعرف الرقص انه إذا قدمها إلى الخوجة بهيرة فإنها سوف تكافئه على ذلك، وهذا شيء عادي، فبهيرة مغنية مشهورة في كل المدينة وهي تحب ان تكون محاطة بالفتيات الجميلات ثم انها كانت بحاجة إلى راقصة ترافقها في حفلاتها ولهذا السبب حصل على مكافأته.

عندما شاهدتها الخوجة بهيرة كادت تسقط على الأرض مغشياً عليها (التعبير الأدبي للشيخ وقد استخدمه عدة مرات خلال سرده للحكاية). لقد كانت بديعة جميلة، بل فائقة الجمال. كانت قطعة نفيسة سقطت في يدي الخوجة بهيرة وهي ستعرف قيمتها بلا ريب. نحن نعلم ان النسوة اللواتي يعملن في هذه المهنة على شيء ضئيل من الجمال.. حتى ان العديدات منهن يعتبرن دميمات. كن بدينات، سمراوات، مترهلات الجسد ومسنات. ماعدا اليهوديات منهن، فقد كن مشهورات بجمالهن وكانت الفرق الموسيقية في المسارح تتصارع من أجل الحصول عليهن مثل تلك اليهودية جميلة التي أخرجت الآهات الحارة من الصدور ليس بسبب صوتها الشجي فحسب، بل بسبب جمال وجهها ولدانة جسمها وبياض بشرتها.

أخذتها الخوجة بهيرة واعتنت بها ثم صقلت حركات جسمها وعلمتها بعض الفنون الاضافية اللازمة للراقصة مثل تثبيت الساقين والجذع جيداً ومن ثم هز الخصر بسرعة مع تحريك اليدين. هذه الحركة التي لم تكن بديعة تتقنها جيداً بل كانت تتحرك باستمرار مما يعطيها شكلاً أكثر رجولية وهذا ما لا ترغب به النساء وبهيرة بالذات، فالانوثة الطاغية ضرورية للراقصة. ظلت تعطيها الدروس وتأتيها بمن يعلمها الحركات والفنون اللازمة حتى اتقنت بديعة الرقص الشرقي ورضيت عنها بهيرة.

كان لبهيرة شكل غريب وهي المغنية المخضرمة والمعروفة في كل الأوساط في المدينة. كانت تشبه الرجال في وجهها وجسدها وحركاتها. كانت أيضاً تتشبه بهم. ترتدي ثيابهم وتتجول بها ولا تنسى ان تضع في بعض الاحيان الطربوش الاحمر. كانت تحب ان يحسبها الناس رجلاً، حتى انها تهوى الصعود إلى خشبة المسرح مرتدية بنطلوناً وقميصاً للرجال، كما انها لا تنسى ان تضع ساعة في جيب البنطلون الصغير بينما تظهر سلسلتها إلى العيان. وفي أعراس النساء فان مظهرها في جو الحريم هذا يجعل النسوة أكثر تهيجاً ومرحاً. كانت لا تأبه للتعليقات وللكلمات الداعرة التي تتفوه

بها بعض النسوة، بل كانت تشارك فيها، ولعلهن كن يسمعنها مثل تلك الكلمات كي ترد عليهن بمثلها وأعظم. كانت امرأة مسترجلة ذات لسان بذيء.

وبهيرة ليس هو اسمها الحقيقي، ولا أحد يعرف ماذا كانت تسمى ولعل البعض أطلق لخياله العنان فراح يدعي بان اسمها الحقيقي كان على شاكلة حسين أو عبد الـ... أو ابو صطيف وغيره من الاسماء التي تطلق على الرجال بسبب شبهها بهم. وقد كانت بهيرة حلبية الاصل من حي «قسطل المشط» لم يرزق والداها بغيرها، وخوفاً عليها من أولاد الحرام ادعى ابواها بأنها صبي وراحا يقصان شعرها ويشبهانها بالصبيان حتى انها كانت تعاشر الصبية على انها واحد منهم دون ان يشكوا في أمرها (هذه القصة صحيحة مئة بالمئة وقد كانت تعرف آنذاك باسم صبحي) حتى قيل انها شكلت عصابة من الصبية تحت قيادتها دون ان يعرف أحد بأنها فتاة، وكانت العصابة تغير على البيوت وعلى البساتين لسرقتها، وفي احد الأيام ذهب صبيان العصابة الى بيت احدى العاهرات لسرقتها ولكنها راحت تبكي وترجوهم ألا يسرقوها لأنها في الأصل لا تملك شيئاً للسرقة وعرضت عليهم بدل ذلك ان يناموا معها بالتناوب. أعجبتهم الفكرة وكاد صبحي (بهيرة) ان يفقد مكانته لدى مرؤوسيه من أفراد العصابة فقد خاف من الفكرة لأنها قد تكشف حقيقة جنسه أمامهم. حاول ان يثنيهم عن ذلك ولكنهم كادوا ان يتعاركوا معه فقد كانوا يستميتون من أجل ممارسة ذلك الفعل الذي سمعوا عنه دون ان يمارسوه حتى الآن، وهاهي الفرصة قد سنحت لهم صدفة وبالمجان فلماذا يمنعهم عنها صبحي .. ياله من كلب دنيء.. ؟!! وفي النهاية وافق فراح الصبية يدخلون على العاهرة الواحد تلو الآخر. كانوا يخرجون وهم يضحكون فقد كان الأمر ممتعاً. أخيراً جاء دور صبحي رئيس العصابة. خاف من أن تنكشف حقيقة جنسه فقرر ان يدخل وكان دوره آخر واحد فيهم. وعندما دخل على المرأة وجدها منفرجة الساقين، منهكة ومستسلمة

فاجتاح بهيرة شعور طاغ بملامسة جسد العاهرة فاقتربت منها وراحت تلاطفها حتى انها استغربت فعل رئيس العصابة، فعوضاً عن أن يقوم بالفعل اللازم راح هذا العصابجي يلاطفها ويقبلها ويتلمس جسدها وخفاياه حتى شعرت بالمتعة، وهذا ما شعرت به أيضاً بهيرة فاكتشفت في نفسها ميلاً نحو بنات جنسها.

منذ ذلك الوقت صارت بهيرة أكثر انسجاماً مع أعضاء عصابتها. حتى ذلك الشيء الذي كانت تخاف ان يكتشفه الرفاق تحول إلى الدرجة الثانية. لقد استطاعت ان تمارس الحب مع امرأة عاهرة كالصبيان واستطاعت ان تشعر بمتعة عظيمة. حتى انها اقترحت على صبيان العصابة الذهاب إلى بيت المرأة عدة مرات، وبما انها كانت فقيرة فقد نصحت بان يدفعوا لها، وهكذا تحولت العصابة إلى زبون دائم عند المرأة وفي كل مرة كانت بهيرة تكتشف عشقها لجسد المرأة وكراهيتها لجسد الرجل، حتى ذلك اليوم الذي همست فيه المرأة إلى أحد أفراد العصابة بان رئيسهم ليس رجلاً لأنه يكتفي بالمداعبات رغم انها كانت مداعبات محمومة. نقل الصبي ما قالته له المرأة إلى باقي رفاقه فراحوا يراقبون صبحي باستمرار فاكتشفوا بعد مدة انه لا يتبول وقوفاً مثلهم، أو أنه لا يتبول بالمرة، فقد كان صبحي يدعي انه ليس محصوراً عندما يصطف الصبيان ويخرجون أعضاءهم ويتبولون. كان يبتعد عنهم وهم يفعلون ذلك كانت مصيبة عظيمة بالنسبة لصبيان العصابة. فضيحة بجلاجل.. فأية عصابة هذه التي رئيسها «شكر» (لا أنثى ولا ذكر)؟؟ يا للعار.. تمنوا ان يكون الأمر على غير ما يعتقدون، أو ان تكون العاهرة على خطأ، ثم كيف يمكن تصديق عاهرة والشك برئيس العصابة؟ كان عليهم ان يكتشفوا الأمر بانفسهم.. ولكن كيف؟ هل يمكن طرح السؤال على صبحي؟ هذا مستحيل، فلا يمكن طرح مثل هذه الاسئلة، انها مهينة، فماذا لو كان الموضوع كله خطأً وكانت تلك الساقطة تحاول الايقاع بينهم لتتخلص منهم؟

كانوا في رحلة إلى جسر (القرّي) على نهر قويق. كانوا قد

سرقوا دجاجة من أحد البساتين القريبة وقاموا بذبحها ثم أشعلوا النار وقاموا بشيها. سبحوا في النهر وتباروا في دخول الدوامة المائية التي سبق وابتلعت العديد من الصبيان والرجال، وعندما استلقوا ليستريحوا شاهدوا صبحي (الذي اعتاد الا يشاركهم لعبهم في الماء) مستلقياً. كان نائماً. حينها استقر رأيهم. قرروا ان يمسكوا به من يديه ورجليه ويقوم أحدهم بخلع بنطلونه وقميصه. عليهم ان يحلوا المسألة اليوم مادام الوقت مناسباً، فإن كان صبحي صبياً مثلهم فسوف يضحكون ويجعلون الأمر يبدو وكأنه مزاح.. ولكي لا يستاء صبحي تعرى الصبيان. خلعوا اللباس، القطعة الأخيرة التي تستر عورتهم ثم اقتربوا من النائم، وباشارة من صاحب الفكرة أمسكوا بصبحي وراحوا يعرونه. أفاق وحاول الدفاع عن نفسه ولكنهم كانوا قد أمسكوا به جيداً وهم يضحكون. خلعوا عنه بنطلونه ثم لباسه، وعندما ظهرت عورته توقفوا عن الضحك... لقد استنتجوا ما كانوا يخافون منه. كان صبحي فتاة.

تناسوا العار أمام المفاجأة. كيف لم يخطر ببالهم ان زعيمهم فتاة؟ تركتهم بهيرة وعادت وحيدة إلى المدينة وهي تبكي. أما هم فقد عقدت المفاجأة ألسنتهم. لقد استطاعت بهيرة ان تخدعهم طوال تلك المدة لأنها تشبه الصبيان في كل شيء، تشبههم بالوجه والسيقان والايدي. كان لها عضلات وكانت تقاتل كما يقاتل الصبيان. كانت تشبههم في كل شيء ماعدا في ذلك الشيء الذي يميزهم في أسفل البطن، وهذا الشيء كانت بهيرة تخدعهم به لأنها كانت تتحاشى التبول أمامهم. وماذا عن الثديين؟ كانوا في الخامسة عشرة، أي ان لبهيرة صدراً كسائر الفتيات اللواتي في عمرها.. هل كانت تربط صدرها؟ فصلوا بهيرة من العصابة وانتخبوا صبياً آخر ليكون زعيمهم، وكان أول قرار اتخذوه هو اغتصاب بهيرة. ولكنها كانت صاحية فتملصت منهم. هي أيضاً اتخذت قراراً خطيراً. قررت ألا تتزوج أبداً، لا لشيء إلا لأن الرجال والصبيان يمتلكون أجساداً تثير في نفسها الاشمئزاز..

أصبحت تكره مجتمع الرجال، ومن أجل ذلك صارت مغنية أعراس. في الثامنة عشرة اكتشفت أمها حلاوة صوتها. كانت بهيرة قد بلغت وجاءها الحلم، ولكن أي حلم هذا الذي صار يجيئها؟ كانت تحلم بمعاشرة النساء. كانت ذات قد ممتشق وغير مترهل، أما صدرها فقد نما بشكل يستحيل عليها إخفاؤه بالرباطات. لم يعد يضايقها ذلك لأنها لم تعد تحب معاشرة الصبيان وأصبحت تفضل عليهم معاشرة الجنس الألطف.. النساء. كان جنسها يهيئ لها مثل هذه المعاشرة بسهولة، ففي بلدنا يستحيل على شخص ما ان يدخل مجتمع النساء إن لم يكن امرأة، حتى لو كانت المرأة تشبه الرجال مثل بهيرة. وعندما اكتشفت امها حلاوة صوتها كما مر ذكره، صارت تشجعها على الغناء في حضرة الصديقات والجارات ولم يخطر في بال الام ان بهيرة ستصبح يوماً مغنية أعراس. كانت شهرة بهيرة قد ذاعت في المدينة وفي كل بيت. كانت مغنية الأعراس واستقبالات النساء وحفلات الولادات وبالتحديد حين يكون المولود صبياً. كانت تذهب إلى الحفل مع فرقتها الموسيقية التي من المفترض ان يكون كل العازفات من النساء أيضاً، أما هي فقد اعتادت ان تقف على الخشبة وهي ترتدي ثياب الرجال، وفي بعض الأحيان كانت تضع طربوشاً على رأسها أو ترسم شاربين مفتولين ودائماً كانت تشكل وردة بيضاء في عروة سترتها. كانت قد اشتهرت بمزاجها الذكوري ذاك وهذا بالذات ما جعل نساء المدينة يمتن فيها ويعبدنها. كانت تشكل حالة اسمها صرعة بهيرة.

هناك شيء آخر اشتهرت به ألا وهو حبها للنساء. حبها لبنات جنسها. كانت أخبار عشقها ومعشوقاتها تتردد في الصالونات وفي الاستقبالات وفي حفلات الحمام. لم تكن تخجل من هذه الاخبار أو الاشاعات، بل كانت تفتخر بها وتتفاخر بآخر معشوقة لها وصراعها المحموم من أجل الاحتفاظ بها وابعادها عن الحاسدات والمنافسات من اللاتي اشتهرن أيضاً بحبهن للنساء. كان هناك صراع أيضاً بينهن من أجل اكتساب قلب امرأة أو فتاة

جميلة تدخل الوسط لأول مرة، وقد كانت الخوجة بهيرة قد كسبت احدى الموسيقيات، وكانت بالمناسبة عازفة قانون شقراء، كسبتها من غريمتها الخوجة سماح وضمتها إلى فرقتها، حين قرع الباب ودخلت بديعة برفقة ذلك الرجل الذي قادها اليها ليربح بذلك تسع ليرات ذهبية في زمن الحرب والفقر والموت جوعاً.

سألني الشيخ الجليل وقد أشرق وجهه بابتسامة ذكية:

ـ هل عرفت أخيراً لماذا فرحت الخوجة بهيرة ببديعة بحيث انها دفعت مبلغاً طائلاً وبالذهب الأصفر إلى الرجل لقاء اتيانه بها إليها؟

ـ عرفت أيها الشيخ الجليل، أتصور انها كانت على شيء عظيم من الجمال ، فتاة فاتنة سيقت إلى امرأة مخضرمة وعاشقة للنساء. ولكن قل لي من فضلك.. ألم تثر غيرة باقي النساء من الموسيقيات أعضاء فرقة الخوجة بهيرة، وخصوصاً تلك التي أتيت على ذكرها، أقصد عازفة القانون الشقراء التي سرقتها بهيرة من غريمتها الخوجة سماح؟

ـ كادت الشقراء تموت من الغيرة، انت لا تعرف هذا الصنف من النساء، وربما تعرف ولا يحق لي الإقلال من شأن معارفك وخبراتك في الحياة، ولكن تصور امرأة تنافست عليها امرأتان مخضرمتان في العشق فترى نفسها فجأة وقد زال اهتمام عاشقتها بها وراحت تصب كل اهتمامها على تعليم بديعة أصول الرقص كفن وعلم وتهتم أيضاً بجمالها ورونقها وأناقتها.

ـ وماذا حدث لتلك الشقراء؟

ـ هجرت الخوجة بهيرة وعادت من جديد إلى الخوجة سماح.

ضحكت عندما قال ذلك الشيخ، فقد أصبحت القصة أكثر امتاعاً، ويبدو انني قد استهوتني كثيراً قصص تلك النسوة العاشقات، ومن أجل ان أبدو عارفاً بهذه الأجواء فقد أسميتهن للشيخ، قلت له:

ـ اعتقد انه يطلق عليهن اسم بنات العِشْرة.

ـ نعم.. بنات العِشْرة.

ـ ولكنني لا أعرف من أين أتت تلك التسمية، هل تعرف انت أيها الشيخ؟

ـ أعتقد أن بنات العشرة تسمية تطلق على النساء اللواتي يتعاشرن كما يتعاشر الرجل والمرأة، لهذا السبب أطلقت عليهن هذه التسمية. ففي تاريخ المدينة هناك أخبار عن نساء يعشن سوية في بيوت كأنهن أسر عادية. كأنهن رجل وامرأة، ودائماً هناك من تأخذ دور الرجل في البيت والأخرى تأخذ دور المرأة.

ـ وهل من الضروري ان تكون الأولى أكبر من الثانية؟

ـ على الأغلب، ولهذا السبب تسمى الكبيرة، أي التي هي بمثابة الرجل في البيت، والأبلاية هي تحريف لكلمة تركية تطلق على الأخت الكبيرة.. اما الثانية فهي تنسب إلى الأولى أي إلى الأبلاية ويقال عنها «فتاتها».

ـ وماذا حدث بعد ذلك لبديعة، فقد بدأت أهتم بها لأنها أم بطلتنا وداد التي وصلت إلى حلب بالقطار وبيدها مظروف معنون وقد صادف أن التقطت لها صورة مع المندوب السامي الفرنسي؟

ـ أصبر علي قليلاً، فأنا أريد ان أحدثك شيئاً عن الخوجة سماح.. ولكن الوقت قد تأخر، وأنا أرى بان الخادم قد ذهب إلى النوم، فما رأيك ان نصعد نحن أيضاً إلى غرفتينا لنأخذ قسطاً من الراحة على ان نتابع في الغد؟

قلت فليكن، وخصوصاً وأنني قد عشت اليوم أحداثاً مرهقة واذا أردت ان أستمع جيداً إلى القصص وان ترسخ في ذاكرتي، فعلي ان أكون بكامل قواي. نهضت وساعدت الشيخ في الصعود إلى غرفته. كان ضعيفاً جداً فكان يرتجف عند صعوده الدرجات، وقد وجد مشقة عظيمة في الوصول إلى الغرفة. فتحت له الباب ثم أضأت

النور ثم ساعدته في الوصول إلى الفراش، ولم أتركه حتى اطمأننت عليه وعلى أغطيته السميكة. شكرني ثم تمنيت له ليلة سعيدة وهممت في الخروج ولكن نظرة سريعة ألقيتها على الغرفة جعلتني أتسمر في مكاني. كانت الجدران مليئة بالصور المؤطرة. لم يكن هناك مكان لصورة أخرى إذا ما احتاج يوماً إلى اضافتها إلى مجموعته، حتى ان الصور توزعت أيضاً على طاولة صغيرة للكتابة وعلى الكوميدينتين المركونتين إلى جانبي السرير وعلى التواليت. كانت صوراً لنساء ورجال، أطفال وشيوخ، كلهم من الطبقة، وكلهم كانت له علاقة بهم يوماً. كان الشيخ ينظر الي فشعرت انه لا يريدني ان اتطفل على صوره وماضيه (لم يكن شعوري صحيحاً آنذاك فقد أخبرني بعد ذلك بأنه كان يحب فضولي ذاك) فودعته ثم أطفأت النور وخرجت.

رغم كل تعبي واستغرابي من الشيخ ومن بيته وغرفته وصوره وخادمه استغرقت في النوم مباشرة بعد ان وضعت رأسي على المخدة، وكنت قد تأكدت من أنني أقفلت الباب جيداً من الداخل، فأنا مع ذلك حريص جداً ومرد ذلك إلى جبن قديم يسكن في قلبي.

استيقظت صباح اليوم التالي وانا أشعر بثقل في رأسي. فتحت عيني وظللت مستلقياً. كنت أحاول الاحتفاظ بذلك الشعور الغريب لشخص يستيقظ صباحاً فيجد نفسه في مكان لم يعتد عليه، أو على الأقل في غرفة نوم غير مألوفة.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة بينما ضوء النهار الرمادي وصوت انهمار المطر يوحيان ان الوقت أبكر من ذلك بكثير، في حين ان الغرفة كانت تبدو لي أكثر حميمية منها ليلة أمس حين دخلتها لأول مرة. كانت غرفة نوم بسيطة ولكنها أنيقة. تخلو جدرانها من الصور التي ملأت غرفة الشيخ حتى التخمة فاكتفوا بتعليق لوحة لمنظر طبيعي. كانت غرفة النوم من خشب السنديان المحفور ويبدو انهم قد أتوا بها من حلب، فأنا من هناك وأعرف ان

مدينتي تشتهر بمثل هذه الصناعات. لم أكن أسمع أي ضجيج أو أي صوت عادي من الريف. هذه هناءة لا تعادلها أية هناءة يحلم بها ابن مدينة مثلي، وبينما كنت أتمتع باستلقائي وبالهدوء خطر في بالي انني ربما سمعت حركة داخل الغرفة بينما كنت نائماً، وبسبب الارهاق الذي عانيته وبالبرد والرطوبة التي تسللت إلى عظامي، فقد استمررت في النوم دون أن أقوى على النهوض واشعال النور وتفقد مصدر ذلك الصوت. هنا أصابني شيء من الخوف. نهضت وتفقدت باب الغرفة فتأكدت انه كان مقفلاً ثم فحصت النافذة المطلة على الحديقة الخلفية للمنزل فوجدتها محكمة الاقفال أيضاً.. إذن فقد كنت أحلم على الأرجح فشعرت بالراحة، فدخلت إلى الحمام فاغتسلت ثم حلقت ذقني (بادوات جديدة كان الخادم قد جهزها لي خصيصاً لاستخدمها) وشرعت في ارتداء ثيابي، حينها فقط سمعت نقراً خفيفاً على الباب ثم صوت الخادم يدعوني للنزول لتناول طعام الافطار.

عندما نزلت إلى الاسفل كان الشيخ جالساً إلى المائدة ينتظرني. صبحت عليه ثم جلست في مكان خصص لي. كانت غرفة الصالون أكثر بساطة مما حسبتها في الليلة الماضية رغم عشرات التحف والصناديق الخشبية واللوحات وقرون العاج المزخرفة وقطع الصيني النفيسة وغيرها من أشياء أحضرها الشيخ من أسفاره إلى مختلف أصقاع الدنيا. كانت تلك التحف تضفي على الصالون وغرفة المعيشة شكلاً راقياً وتشي بان للشيخ ذوقاً مرهفاً. تناولنا طعام الافطار بصمت، وكان الخادم يأتي ليصب لنا الحليب أو يقدم لنا طبق البيض المقلي.

وبسبب الصمت الذي خيم علينا نحن الثلاثة أثناء تناول الطعام استطعت التمعن في وجه الشيخ فوجدته أقل شيخوخة مما حسبته ليلة أمس، بل إنني رأيته يمتلك وجهاً أليفاً ومحبباً. رأس خفيف الشعر ولامع، بينما امتدت التجاعيد الخفيفة على جانبي وجهه. كانت عيناه عسليتين لم تنطفئا كلياً بعد. كان الشيخ مريحاً للنظر

وودوداً أما الخادم فقد وجدته أكثر غموضاً وعدوانية، فخطرت ببالي الاصوات التي هيئ لي انني سمعتها أثناء نومي فأصابتني رجفة خفيفة.

تناولنا القهوة في غرفة المعيشة إلى جانب مدفأة الحطب، وبينما كنا نفعل ذلك (كان الخادم قد تركنا بمفردنا بعد ان قدم لنا القهوة) راح الشيخ يكمل سرد حكايته. قال بصوته الضعيف والعميق:

ـ لقد وعدتك ان أحكي لك شيئاً عن الخوجة سماح، فلا يمكن ان تكتمل الصورة دونها. فقلت له لا بأس فأنا منصت إليك ويسعدني أن أحظى بهذا الشرف الذي خصصتني به، فقال..

كانت الخوجة سماح منافسة حقيقية للخوجة بهيرة. كانتا تتسابقان في الغناء في أرقى البيوت وأشهرها، لهذا الأمر فقد كانتا تعقدان الصداقات مع نساء أهم العائلات الحلبية وأشهرها لكي لا تفوتهما الفرصة إذا ما قررت احدى الأسر اقامة حفل خطوبة أو عرس. كانت إحداهما تتآمر على الأخرى، حتى ان احداهما كانت تعمل على تنحية الأخرى عن حفل ما لكي تحل محلها. أكثر من ذلك كانتا تتنافسان على تقديم أجمل الأغاني وأحدثها، لذلك فقد كانتا توصيان على أحدث الاسطوانات من شركة «الجراموفون ليمتد» المصرية، حتى ان الخوجة سماح استطاعت مرة ان تحصل على آخر اسطوانة للمطرب «الاديب الشيخ سيد الصفتي» حتى قبل ان تصل إلى وكيل الشركة في دمشق الشام فاستطاعت ان تغني في حفل حضره الوالي بنفسه أحدث دور لسيد الصفتي ولم يكن أحد قد استمع اليه بعد وهو «يا قلب مين قال لك تعشق» فكسبت اعجاب الجميع وتحدث عنها السمّيعة في اليوم التالي بكل تقدير مما أثار حنق الخوجة بهيرة وغيرتها.

كانت سماح أجمل من بهيرة التي تشبه الرجال. كانت فيها أنوثة، بيضاء البشرة وممتلئة ذات وجه مستدير وليست مثل بهيرة التي تمتلك وجهاً متطاولاً. كانت تشكل باستمرار وردة حمراء في

شعرها مما يعطيها شكلاً أنثوياً محبباً، هذا بالاضافة إلى ان الله قد أكسبها فماً عظيماً وشفتين ممتلئتين فكانت تبدو وكأنها شهوانية. هذا الاختلاف بينها وبين بهيرة في الهيئة لا يقابله اختلاف في الطباع، فقد كانت لسماح أيضاً ميول نحو النساء وقد رفضت الزواج هي أيضاً بسبب هذه الميول، لهذا الأمر فقد كانت تسرق من بهيرة فتياتها وحبيباتها، مغنياتها وراقصاتها وكذلك كانت تفعل بهيرة، وآخر عملية اختطاف (كما ذكرت سابقاً) قامت بها بهيرة حين خطفت من سماح عازفة القانون الشقراء وجعلتها حبيبتها، وهي نفسها التي شعرت بالغيرة القاتلة حين وصلت بديعة وحلت محلها في حياة بهيرة وقلبها فتركتها وعادت إلى أبلايتها الأولى سماح.

كان وصول بديعة ضربة حظ كبيرة للخوجة بهيرة. جاءت في الوقت المناسب، فقد كانت سماح قد كسبت العديد من النقاط على بهيرة، فقد كانت سماح محوطة بعدد لا بأس به من المواهب النسائية المرغوبة من الاوساط الراقية. كانت فرقتها تضم موسيقيات بارعات وجميلات، ورغم انها فقدت عازفة القانون الشقراء فان ذلك لم يكن كارثة على أعمالها بسبب وجود أخريات من نفس المستوى وأفضل. كانت أمور بهيرة تسير بشكل معاكس ولم تكن في حال جيد حتى ان القانونجية الشقراء لم تحسن وضعها كثيراً بين السميعة رغم جهود بهيرة الكبيرة واستعارتها للعديد من الأغاني الحديثة القادمة من مصر وخاصة تلك التي كان يلحنها محمد أفندي عثمان وداوود حسني.

سألت الشيخ مقاطعاً سير الحكاية:

ـ ولكن لماذا كانت أمور الخوجة سماح أفضل من أمور الخوجة بهيرة، لماذا كل تلك الجميلات في فرقتها بينما فرقة بهيرة تفتقر إلى مثلهن؟

ـ يكمن السبب في روح التسلط التي كانت لبهيرة، كانت تعامل فتياتها بكثير من القسوة. كانت خشنة الطبع محبة للتملك، وأي

تملك..؟ انه تملك للبشر مما يجعل الفتيات يهربن منها لأنها تحصي عليهن أنفاسهن.

ـ حقاً انها كالرجال، ولكنني أعتقد ان مثل هذه الروح تلائم النساء كثيراً فلم لا..؟

ـ هناك شيء كما قلت لك، يميز الخوجة سماح، فقد كانت جميلة وشقراء وكانت تبدو كامرأة رغم انها كانت أيضاً من بنات العشرة.. ويبدو ان النساء اللواتي يصاحبنها يرغبن أيضاً بان تكون أبلاياتهن نساء بكل معنى الكلمة.

ـ وهل رضيت بديعة بان تعمل لدى مغنية لديها ميول مثلية؟

عاد الشيخ إلى الحكاية فقال:

ظلت بهيرة تهتم ببديعة حتى جعلت منها راقصة يعتد بها يمكن ان تقدمها في حفلاتها التي كانت تقيمها في صالونات العوائل وفي الأعراس. لقد حولتها من فتاة هاربة من قوانين أمها في احدى البلدات الريفية إلى امرأة جميلة وراقصة محترفة. لو كان ذلك الرجل قابل بديعة بعد ان أعادت بهيرة صنعها لما صدق أنها نفس المرأة، فقد اعتنت بلبسها وشعرها وبشرتها، كما علمتها كيف تمشي بعد ان شاهدتها تلقي بقدميها أمامها بشكل ريفي غير محبب في المدينة. أما رقص بديعة فقد صار أكثر توازناً وعلمتها كيف تبتدع الحركة من الايقاع وتبدلها باستمرار، وكانت بهيرة تنصح بديعة باستمرار باظهار تلك الرقة التي كانت تميزها وعدم جعل الخجل يقلل من ظهورها. كانت تريدها راقصة حقيقية يصفق لها الرجال والنساء على السواء كما كانت تريدها امرأة رائعة الجمال تأسر القلوب وتنتزع آهات الاعجاب من كل شخص يراها، وبما ان بهيرة كانت تعلم قيمة بديعة فقد خططت جيداً لطريقة اخراجها إلى العلن وتعريف الوسط بها، وقبل ان يعرفها كائن من كان جعلتها تشاركها في فراشها وقامت بمداعبتها فأذاقتها طعم الحب لأول مرة، فقد كانت تلك القروية تجهل الكثير مما يمكن أن تفعله معها امرأة مثلها.

كانت بديعة سعيدة بكل هذا الذي كان يحصل معها، فقد انتشلتها بهيرة من مصير غامض كان مكتوباً لها في شوارع المدينة الجائعة، وفي أفضل الأحوال كان يمكن أن تعيدها ظروف الحرب والمجاعة إلى قوانين أمها، ولكن بهيرة أنقذتها من كل تلك المصائر السوداء وجعلتها تتذوق رفاهية لا تخطر ببال الحالم فكيف بفتاة ريفية بريئة؟ وعدتها بالحب والحرائر والذهب.. وعدتها بالشهرة والاضواء.. وعدتها بكل ذلك وأكثر ولكن كان عليها ان تكون أمينة لأبلايتها، أن لا تخونها مع أي شخص كان وخصوصاً مع سماح سارقة النساء. أخبرتها انها ما إن تخرج إلى الأضواء حتى ستسمع الهمسات اللطيفة والوعود السخية وكلمات الاعجاب الكثيرة، أخبرتها أيضاً ان كثيراً من النساء قد يقعن في غرامها، ولكن كل هذه المشاعر هي ضرب من النفاق، فلا يوجد على هذه البسيطة من يمكن ان تحبها مثل بهيرة ذاتها التي صنعتها وأحيتها من جديد ولذلك عليها ان تسمع وتنسى. لا يوجد أصدق من بهيرة ومن وعود بهيرة ومن حبها ومداعباتها. ثم هناك الرجال، انهم وحوش كاسرة عليها ان تأخذ حذرها منهم وتبتعد عنهم. انهم يزرعون الهموم في قلوب النساء ويزرعون الاجنة في أرحامهن ولذلك عليها ان تحتاط منهم. كان الرجال أعداء بهيرة الألداء. قد تستطيع بنت عشرة ان تخطف فتاة من بهيرة، ولكنها لن تلبث ان تعيدها منها.. أما إن قام رجل باختطاف حبيبة لبهيرة فليس هناك من أمل باعادتها إلى مخدعها بعد ان تكون قد تزوجت منه وقام بفض بكارتها وجعل بطنها ينمو ثم أشغلها بالاولاد..كانت بهيرة لا تنفك تحدثها عن الرجال وكم هم كريهون بأعضائهم التناسلية الفظيعة حتى جعلتها تكرههم. لقد صورتهم لها كوحوش كاسرة يمتلكون خراطيم أسفل بطونهم يمزقون أحشاء النساء بواسطتها. أما البديل الملائكي فقد كانت ملاطفات بهيرة في سريرها ليلاً. كانت تحضنها وتقبلها ثم تجردها من ثيابها وتظل تحتك بها حتى تجعلها تتأوه. لقد أحبت بديعة ما كان يحصل لها في سرير بهيرة، وفي احدى المرات تركتها

الخوجة دون ان تلمسها. تركتها تنام وكأنها تعاقبها على ذنب اقترفته. ولكن بديعة كانت قد اعتادت على ملاطفتها ولن ترضى ان تنام دون أن تلمس. كانت تسمعها كيف تزفر وتتقلب في الفراش ثم شعرت بها وهي تبادر فعرفت بهيرة ان بديعة قد أصبحت جاهزة ولا خوف عليها إن هي قدمتها إلى المجتمع.. وهكذا كان.

فجرت الخوجة بهيرة قنبلتها في الوسط الفني الحلبي. لم ترد ان تقدمها في عرس عادي، ففي الاعراس تضيع مثل هذه المفاجآت، بل قدمتها في حفل أقامته زوجة الوالي التركي حضرته نساء أهم رجالات المجتمع من تركيات وعربيات وشركسيات. كان على الخوجة بهيرة ان تغني لهن في بيت الوالي وكان من الطبيعي ان تصطحب معها راقصتها، ولكن لم يخطر في بال أي من الحاضرات ان يخرج اليهن ملاك في بذلة الرقص. كانت الخوجة بهيرة تغني وهي تراقب أكثر من مئة عين توسعت فجأة ثم ثبتت على بديعة رائعة الجمال التي كانت ترقص برقة تسلب الألباب. فجأة شعرت السيدات والخانمات انهن مأسورات بهذا الجمال الأبيض الذي يتحرك بايقاع ناعم. بعضهن زفرن بصوت غير مسموع وبعضهن بصوت مسموع. وفي اليوم التالي تحدثت المدينة كلها عن الراقصة بديعة وراحت طلبات احياء الحفلات في صالونات أهم البيوت في المدينة تنهال على بهيرة، حتى ان بيت الخوجة فقد هدوءه بسبب كثرة الزائرات اللواتي جئن للتعرف على بديعة البديعة ومراقبتها عن كثب. جاءت الكثيرات من أجل تجريب حظهن معها، فقد عشقنها منذ اللحظة الأولى التي رأينها فيها ترقص ولكن الخوجة بهيرة كانت تستقبل الزائرات والعاشقات بحيث كانت تحرص على ان تجلس بديعة إلى جانبها، ملتصقة بها، وغالباً ما كانت تأخذ راحتها بين يديها امامهن ليفهمن بأنها فتاة بهيرة وان حظهن في كسب ود بديعة صفر. حتى ان بهيرة امرتها ان تقبلها كلما خطر في بالها أمام أعين الزائرات. كانت تعلن للجميع انها أبلايتها، حتى أنها اتفقت مع خادمتها ان تطلب من الزائرات العاشقات ان ينتظرن في الصالون

لأن بهيرة وبديعة ما تزالان نائمتين في السرير، ثم وبعد وقت، تأتيان بثياب النوم لترحبا بهن فتبدوان وكأنهما كانتا تمارسان الحب وقد قطعن عليهما لحظات حميمة.

كان الرجال يأتون أيضاً إلى بيت الخوجة بهيرة للتعرف على بديعة بعد ان سمعوا من نسائهم عن تلك الأعجوبة. وكان هؤلاء ضباط أتراك ورجال الوالي وكبار التجار والمستشارين المدنيين.. جاء حتى مارشال الماني وباشا تركي وبكوات عرب. كانت بهيرة تظهرها أمام السيدات والخانمات بطيب خاطر، أما أمام الرجال فقد كانت تظهرها وهي مجبرة على ذلك. كانت تخاف من الرجال. أما الخوجة سماح، منافسة بهيرة في الغناء وفي عشق النساء فقد كانت تتابع الأخبار بغيظ. كانت قد أرسلت عدة عميلات سريات ليأتين لها بعد ذلك بوصفٍ دقيقٍ لعشيقة بهيرة ذائعة الصيت.

حاولت سماح اغواء بديعة. أسمعتها بعض الوعود عن طريق بعض النساء من عميلاتها .ولكن بهيرة كانت لهن بالمرصاد. كن يجابهن بوجه ذكوري صارم وبإرادة صلبة مستعدة للحرب في سبيل بديعة. وعلى مدى أكثر من سنتين كانت بهيرة هي سيدة الساحة الفنية النسائية في المدينة، والعاشقة السعيدة لأجمل وأرق راقصة فيها، وكانت بديعة بدون منافسة حقيقية واستطاعت بهيرة حمايتها فاكتفت العاشقات الأخريات بالتأوه من بعيد فحسب.

ولكن مهما كان المرء حريصاً فإنه لن يلبث ان يغفل عن المكروه الذي يخاف أن يقع له. كانت بهيرة تخاف من مثيلاتها من النساء ان يخطفن منها بديعة. كانت تخاف أيضاً من الرجال الأشرار فحاولت بدأب جعل بديعة تكرههم (فهم على كل حال أصل كل مصائب النساء حسب رأيها). وفي احدى المرات التي كان بعض الرجال الأشراف يقومون بزيارتها، وقعت بديعة في غرام أحدهم. كان الرجل هو اليوزباشي جودت، الضابط التركي الوسيم الذي خطف قلب بديعة ثم خطفها من الخوجة بهيرة. كان شاباً قوياً ذا رونق لا يقاوم. دخل إلى بيت بهيرة مرافقاً لأحد كبار الضباط

العثمانيين. جلس صامتاً ينتظر الفرص لينظر إلى بهاء بديعة دون ان يجعل أحداً يكتشف ذلك، فقد كان خجولاً ولكنه في داخله كان مغامراً جريئاً. لقد وقع في غرام بديعة. كان ذا عينين دقيقتين وعميقتين كعيني النسر. كانت بديعة تشعر برعشة لطيفة تجتاحها كلما التقت بهما. هي أيضاً وقعت في غرامه ولكنها ما كانت لتجرؤ على البوح بذلك أو تجعل أبلايتها تعلم. كان يأتي إلى الشارع، حيث يقع بيت بهيرة فيقف عند الناصية ساعات طوال. وعندما اكتشفت بديعة انه هناك راحت تقف هي أيضاً على نافذة الكشك الخشبي لتنظر اليه وتتركه ينظر اليها. كان يبوح لها بحبه بالاشارات ويدعوها إلى الخروج لملاقاته. أصبحت تفكر به في صحوها وتحلم به في منامها حتى ضعفت مقاومتها، حينها صارت تختلق الاعذار وتخرج لملاقاته. كانت تأخذ معها الخادمة (والخادمة يمكن رشوتها بسهولة) وفي احد البيوت استطاع ان يحصل عليها ويذيقها طعم الحب الصحيح فاكتشفت بديعة ان الرجال ليسو سيئين إلى هذا الحد، وان خراطيمهم لها طعم لذيذ.

وفي أحد الأيام شعرت بالغثيان وكان طمثها قد انقطع منذ مدة. كانت حاملاً بوداد. ما العمل؟ أخذها وكتب كتابه عليها عند أحد الشيوخ، كان عليها ان تخبر أبلايتها بهيرة ولكن الخوف منها كان يؤخرها حتى ذلك اليوم الذي تعاظمت فيه الحرب وقالوا ان دمشق على وشك السقوط بأيدي الجيوش العربية والانكليزية. حينها كان على اليوزباشي ان يرحل مع ضابطه العثماني العجوز إلى الجنوب للعمل على صد تلك الجيوش. كان وداعاً حزيناً بكت فيه بديعة خوفاً على حبيبها الضابط التركي اليوزباشي جودت وخوفاً من مستقبلها الغامض. رحل جودت وتركها خائفة من ان يظهر حملها فتكتشف بهيرة أمرها. ولحسن الحظ كانت الحفلات قد توقفت بسبب هزيمة العثمانيين، فمن يحفل بالغناء والرقص في هذه الظروف؟ وعندما سمعت ان دمشق سقطت هي الأخرى وان الضباط الاتراك يهربون بالقطارات إلى الأراضي التركية هربت بدورها من أبلايتها الخوجة

بهيرة. هربت بالقطار (كما قلت) وسكنت في محطة ميدان أكبس تراقب القطارات القادمة من الجنوب لعل حبيبها الضابط التركي يجدها فيعيشان معاً كما خططا. ولكن الحرب انتهت، وهرب كل الجيش التركي من سورية وجاء الجيش الانكليزي ولم يظهر اليوزباشي جودت. أما الخوجة بهيرة فقد كان عليها ان تتحمل هذا الخسران الفظيع.. خسران بديعة، وكان عليها ان تتحمل شماتة الخوجة سماح.

2

كيف استقبلت الخوجة بهيرة وداد وكيف قبلتها أول قبلة

توقف الشيخ عن الكلام وطلب ان يرتاح قليلاً. نهضت لأضيف بعض الحطب إلى المدفأة. كنت قد بدأت أحب الشيخ وانتظر أية بادرة كي أهرع لخدمته، حتى أنني كنت أمد يدي لأصلح وضع البطانية التي اعتاد ان يضعها على فخذيه اتقاءً لآلام الروماتيزم. وعندما كان يصمت ليرتاح قليلاً كنت أصمت حتى لا أشجعه على الكلام فيزداد ارهاقاً. وعندما كان يصمت، كان يطرق وهو يرقب يديه (أصابعه بالتحديد) كيف ترتجفان ويحاول تثبيتهما. كنت أدعو الله ألا يكون مصاباً بمرض الباركنسون الذي أصيب به أبي، فأنا أعرف مقدار الآلام الجسدية والنفسية التي يعانيها المصابون بهذا المرض الخطير وقد علمت من الطبيب الذي عالج أبي ان الباركنسون يصيب الرجال الذين كانت حياتهم حافلة بالنشاط وأعلمني ان الملاكم محمد علي كلاي أصيب به فأخذت علماً بمعنى الحياة الحافلة بالنشاط.

هل كانت حياة الشيخ حافلة أيضاً بالنشاط؟ ومن أين يعرف كل هذه الأمور عن أبطال قصتنا؟ هل كان على علاقة بهم، هل عرفهم

أو كان قد عايشهم؟ وهل كان الشيخ يسرد علي قصة حياته يا ترى؟.. كانت الأسئلة تتردد في ذهني وأنا أضيف بعض الحطب إلى المدفأة كي أعيد التأجج إلى النار حفاظاً على دفء الشيخ. نظرت إلى الشيخ فرأيته ما يزال مطرقاً ناظراً إلى يديه المرتجفتين فلم أعد للجلوس بل اقتربت من النافذة ورحت استطلع السهول الجرداء الممتدة إلى البعيد والتي تغسلها الأمطار بقسوة. في هذه اللحظة سمعت شيئاً أو حركة أو ربما نفساً من خلف الباب الذي يقع إلى جانب النافذة. كان الشك بدأ يساورني من الخادم خصوصاً وأنه يمتلك وجهاً صارماً وغامضاً وعينين منطفئتين أكثر من عيني سيده الشيخ، ثم إنني وباستمرار كنت أتذكر الحركة التي أظن أنني سمعتها في غرفتي المقفلة من الداخل ولو لم أكن غارقاً في النوم إلى الحد الذي ينفي عقلي وجود احتمالات سيئة لكنت نهضت وأشعلت النور وتفقدت مصدر الصوت. وأريد هنا أيها القارئ ان أعترف بأنني شعرت، في هذه اللحظة وأنا أقف على النافذة، ببعض الخوف خصوصاً وان البيت يكتنفه كثير من الغموض سواء في الفرش أو الاضاءة أو في طريقة تصرف الخادم وطريقته أيضاً في النظر (أكثر الأمور غموضاً في البيت هو في وجود البيت في حد ذاته). اقتربت من الباب بهدوء وانا مستمر في النظر إلى الخارج ثم وبحركة سريعة (ولا أعرف كيف واتتني الشجاعة لفعل ذلك) نظرت إلى الشيخ فوجدته منهمكاً بيديه ثم نظرت إلى الباب وانا أفتحه دون أن أرتكب أي خطأ في حركتي التي جاءت عفوية وعن دون دراسة. لقد صدق حدسي. كان الممر قليل الاضاءة بينما كان الخادم يهم بالابتعاد مديراً ظهره الي بينما كان ينظر في عيني مباشرة. استمر وقوفنا هكذا فترة ثانيتين ثم أدار الخادم رأسه وابتعد دون ان يرتبك أو يبتسم وعندما انعطف وغاب أعدت إغلاق الباب وعدت إلى النافذة.

كنت أريد ان أفكر في الموضوع ولكن الشيخ قطع علي تفكيري.

ناداني فعدت إلى مكاني قبالته ثم أصلحت وضع الغطاء على فخذيه وقد قررت ان أفكر بأمر الخادم فيما بعد حين أعود إلى غرفتي لقيلولة بعد الظهر. سألني الشيخ:

ـ أين وصلنا؟

ـ قبل ان نعود إلى الحكاية أود أن أسأل، لماذا أرسلت بديعة ابنتها إلى الخوجة بهيرة؟ إنني لم أفهم السبب خصوصاً وان بديعة كانت قد هربت منها.. الخوجة بهيرة امرأة متسلطة وعاشقة للنساء، هذا يعني ان الأم موافقة على ما يمكن ان يحصل للابنة.

ـ فعلاً.. هذا شيء محير، ولكن يبدو على الأم انها ندمت على ما فعلت في غياب أبلايتها بهيرة. كان عليها ان تصدقها وتحترس من الرجال، هكذا فكرت بديعة على ما يبدو. كانت تعيش معها كأميرة زمانها، وعلى فراش الموت فكرت ان أفضل طريقة لحماية ابنتها هو إرسالها إلى بهيرة عوضاً عن ان تزوجها من رجل ريفي لتمضي باقي حياتها في محطة ميدان اكبس فتتحول إلى امرأة ريفية عادية.

ـ ألم يخطر في بالها قبل المرض ان تأخذ وداد وترحل إلى أبلايتها؟

ـ النساء لسن كائنات عجيبة يا بني.. عليك ان تأخذ بالحسبان الكرامة.

ـ ألا توافقني أيها الشيخ بأنها هربت من قوانين أمها في ظروف الحرب العالمية لأنها تحب الحرية فهربت من قوانين بهيرة أيضاً؟

ـ أمضت بديعة حياتها متنقلة من سيطرة امرأة إلى سيطرة امرأة أخرى، كان حظها سيئاً وكانت تعتقد انها إن هربت من بيت امها فإنها ستحصل على حقها في أن تعيش حياتها حسب ما تهوى بعيداً عن سيطرة امرأة حتى ولو كانت أمها، ولكن ما إن وصلت المدينة حتى وقعت تحت سلطان امرأة أخرى.

ـ إذن عندما التقت باليوزباشي جودت حسبت انها ستتخلص من سيطرة النساء إلى الأبد.

ـ هذا صحيح، ولكن اليوزباشي خذلها.. ربما الرجل لا يتحمل المسؤولية لأنه قد يكون قد قتل في المعارك التي دارت حول دمشق، ولكنه بالمعنى العام خذلها، ولكي تنهي ما ابتدأته استقرت في تلك القرية التي فيها محطة القطارات وقررت ان تعيش فيها وتربي ابنتها.. ولكن يبدو انها تعذبت كثيراً. تحولت إلى امرأة عادية وبسبب اعتزازها بنفسها قررت أنْ لا تظهر وكأنها هزمت. المهم هو انها لم ترض لابنتها ما رضيته لنفسها فقررت ان توجهها إلى بيت الخوجة بهيرة ولكن بعد ان تكون قد فارقت الحياة.

ـ هذا يعني انها اقتنعت ان الحياة مع امرأة قد تكون أفضل من الحياة مع رجل، أي انها وصلت إلى نفس القناعة التي حاولت أبلايتها اقناعها بها حول الرجال.

ـ ثمانية عشر عاماً في القرية جعلتها تندم لأنها سعت وراء رجل، من أجل ذلك حاولت ان تزرع في نفس ابنتها خوفاً مضاعفاً من الرجال ولم تدعها تصادق إلا عبدو السنكة.

كانت معلوماتي عن بنات العِشْرة قليلة، فأنا لم أكن أعرف سوى بعض الأقاويل التي كنا نتناقلها عنهن. كانت مثل هذه الأخبار تتناقل بين الرجال بمتعة، ويبدو ان الرجال يضيفون ما كانوا يشتهون سماعه إلى أخبار هذه أو تلك من بنات العشرة الشهيرات في المدينة. قلت للشيخ:

ـ حسب معلوماتي فإن بنات العشرة لا يرفضن الزواج من الرجال، حتى أشهرهن في حلب متزوجات ولهن أسر وأطفال.

ـ هذا صحيح، فالمرأة مهما كانت ميولها تسعى إلى ان تكون محمية، تحب ان تكون تحت رعاية شخص ما كالأب أو الزوج. ثم ان معظم النساء يتزوجن وهن صغيرات.. أو تستطيع ان تقول انهن يزوجن في سن مبكرة حين تكون دون إرادة. وفي معظم الأحيان

تنشأ الصداقات في استقبالاتهن النسائية التي تحرص كل نساء المدينة على حضورها على الدوام.

ـ تقصد «القابول» باللغة العامية الحلبية.

ـ نعم، يصدف ان تتواجد المرأة في «قابول» مثل هذا وتتعرف على مثل هذه العلاقات.. انها ترى أزواجاً وأزواجاً من النساء اللواتي يحرصن على الجلوس معاً والحديث معاً والضحك والمزاح ولا يخلو الأمر من قبلات ولمسات وشمّات. بعد مدة تتحرش بها احداهن لتتقرب منها أو لتغيظ صديقتها وتثير فيها مشاعر الغيرة. تنشأ الصداقة على هذا المنوال وتتطور بعيداً عن أعين الرجال، فانت تعلم جيداً بان الرجل لا يستطيع اقتحام جلسات النساء.

ـ نعم.. رجلنا الشرقي يخاف على شرفه من الرجال الآخرين، أما النساء فهن لا يمسسن الشرف.

ـ في العادة يعود الرجل إلى بيته فيسأل عن امرأته فيقولون له انها بصحبة ضيفة.. واحدة من صاحباتها. هذا شيء طبيعي، بعد دقائق يتأكد من انها امرأة حين يراها تخرج من غرفة الضيوف وزوجته تودعها. أما ما كان قد حصل فالزوج لا يعلم عنه شيئاً.

ـ سمعت عن بعض الأزواج الذين علموا بعلاقة زوجاتهم مع صاحباتهن.

ـ يحدث كثيراً ان تتطور علاقة الزوجة بأبلايتها وتحصل أمور دراماتيكية، مثل ان تتحدث كثير من النساء عن هذه العلاقة وما يعتريها من خصام في بعض الأحيان وفراق ثم وصال من جديد فتصل هذه الأخبار إلى الرجال ومن ثم إلى الزوج.

ـ وماذا يمكن أن يحصل؟

ـ كثير من الأزواج يصمتون ولكن ما إن تنكشف العلاقة وتصبح كالفضيحة حتى يضغطون على زوجاتهم لإيقافها، ولكنهم على الأغلب لا ينجحون في ايقافها ومنهم من يطلق زوجته بسببها.

ـ يصل الأمر إلى حد الطلاق؟

ـ لا يصل الأمر إلى الطلاق إلا إذا كانت المرأة متعلقة بأبلايتها بشكل كبير، أما إذا كانت الأبلاية غنية فإنها تشجع صاحبتها على الطلاق حتى أنها تعرض عليها ان تشتري لها منزلاً لتسكن فيه وتصبحان كأنهما متزوجتان. هناك سبب آخر لتذمر الزوج وايصاله الأمور إلى الطلاق وهو ان تبدأ زوجته بالتبرم من واجباتها الزوجية وتعتريها البرودة بسبب علاقتها مع أبلايتها.

ـ هذا اسمه شذوذ.

ـ نعم شذوذ.

ـ وكيف كانت الخوجة بهيرة..؟ أين هي من هذا كله؟

ـ بهيرة كانت أبلاية، اي انها كانت قائدة في العلاقات وكانت حتى تبدل صاحباتها حين تمل منهن أو يطرأ أمر ما أو حين تلتقي بفتاة أجمل. فحين جاءت بديعة برفقة ذلك الرجل كانت بهيرة في أوج علاقة حميمة بالشقراء عازفة القانون التي اختطفتها من الخوجة سماح، وبكل برودة أهملتها بهيرة حين وقعت عينيها على حسن وجمال بديعة سكر نبات فعشقتها من النظرة الأولى مما اضطر الشقراء إلى الانسحاب.

كان موضوع بنات العشرة قد تشعب بسبب المعلومات الثمينة التي نقلها إلي. لهذا قررت، في تلك الجلسة، ان أتعمق فيه حالما أعود إلى حلب، وقررت ان أقابل بنفسي بعض النساء اللواتي عرف عنهن انهن منهن أو على الأقل ان أرسل زوجتي نادية لمقابلتهن ومن ثم لتنقل إلي أحاديثهن (معظم النساء يشعرن بالحرج من التكلم في هذه الأمور مع الرجال، للأسف الشديد، ولذلك فإنني أحذرك أيها القارئ بان معلوماتي قد تكون ناقصة وعليك ان تتابع الموضوع بنفسك أو عن طريق زوجتك إذا أردت الغوص فيه مثلي).

المهم.. أردت دفع الشيخ للعودة إلى قصتنا، فهو الوحيد الذي يعلمها، وهو يتعب بسرعة من القص، والزمن المتاح لي قصير،

وهناك أيضاً الخادم الذي يتصرف بغموض وقد يتسبب في طردي فلا يتسنى لي سماع الحكاية حتى نهايتها، لذلك فقد قلت للشيخ:

ـ لقد تركنا وداد في عربة حنتور برفقة السائق الذي كان يتلصص إلى وجهها الجميل وبيدها مظروف كتب فيه عنوان الخوجة بهيرة.. ماذا حصل بعد ذلك؟

ـ نظر إلي مطولاً وفي عينيه امتنان نحوي لأنني ذكرته بوداد (ما كانت علاقته بها؟) هز رأسه مراراً وهو يقبض على يديه ليمنع ارتجافهما ثم راح يتكلم بصوته الهادئ والرخيم مستعيداً نبرة القص مبتعداً عن أسلوب الحوار الذي كنا قد استرسلنا فيه قبل قليل.

توقف العربنجي امام بيت ذي جدران عالية وفي واجهته كشك خشبي مسود فيه خمس نوافذ، ثلاث في واجهة الكشك واثنتان في طرفيه. اما الباب الخشبي للبيت فقد غطي بصاج معدني مثبت بمسامير ذات رؤوس كبيرة مثبتة بشكل هندسي أنيق. دفعت وداد لسائق العربة أجره ثم حملت حقيبتها ونزلت. كان ما يزال ينظر اليها تلك النظرة التي رماها بها طوال الطريق. كان الرجل يصلي على النبي في كل مرة فهو لم يصادف فتاة بهذا الجمال من قبل ثم تمنى على الله ان يحميها من الرجال الأشرار وساق عربته مبتعداً أما هي فقد وقفت هناك، امام البيت في تلك الحارة الهادئة من حي الفرافرة الراقي.

تملت واجهة المنزل. كانت هناك شجرة استطاعت ان تنمو وتتسلق جدار المنزل ثم أطلت على الشارع وراحت تنزل إلى الأسفل متشبثة بالجدار الحجري الخشن. فكرت وداد.. هل وقفت أمها بديعة يوماً مثلما تقف هي الآن؟ ماذا كانت تشعر؟ وداد الآن خائفة من المجهول، الذي سيفتح لها ليبتلعها إذا ما قرعت الباب الاسود اللامع. هل خافت أمها أيضاً؟ حزمت أمرها واقتربت منه ثم صعدت درجة صغيرة لتصل إلى المطرقة. هناك توقفت يدها بعد ان قبضت عليها. لقد أتاها من داخل المنزل صوت كمنجة. خمنت بان المنزل

واسع جداً لأن صوت الكمنجة كان يأتيها من بعيد. هناك من يتدرب على أغنية أم كلثوم الجديدة «على بلد المحبوب». انها تعرفها آلة الكمنجة، فقد اعتاد بائع جوال ان يوقف عربته المليئة بشتى البضائع الصغيرة الملونة في ساحة القرية ويخرج كمنجته من قلب عربته ثم يشرع في العزف وهو يغني أغانيه الكردية الحزينة. كانت تذهب بصحبة عبدو السنكة للتفرج على المناديل النسائية الملونة. كانت تفرح لمجيء البائع الجوال لا لشيء إلا لتستمع الى عزفه والى أغانيه الحزينة، أما المناديل الملونة فهي تعرفها جيداً وكانت قد ملّتها من كثرة ما تفحصتها.

قرعت الباب بالمطرقة الحديدية المعلقة ثم خطت خطوة إلى الوراء وراحت تنتظر. توقفت الكمنجة. اسفت لذلك وشعرت بالذنب لأنها السبب في هذا الصمت. بعد ثوانٍ سمعت خطوات ثم انفرج الباب الذي أصدر أزيزاً عالياً بسبب وزنه الزائد. امرأة في العشرينات هي التي فتحت الباب. عندما شاهدت ان القادمة فتاة وسّعت فرجة الباب وهي تتساءل بتعابير وجهها بطريقة أنيسة. كانت المرأة هي التي كانت تتمرن على آلة الكمنجة. اسمها سعاد. كانت عادية الجمال جعّدت شعرها الذي يصل إلى كتفيها بواسطة الكوي الحراري وارتدت ثوباً خفيفاً يظهر جيدها وساعديها ويصل إلى ما تحت الركبة. سألت وهي تبتسم لهذه القروية التي تحمل حقيبة سفر قديمة بيد ومظروفاً باليد الأخرى، فقد كان منظرها مسلياً ولطيفاً:

ـ ماذا تريدين يا حلوة؟

ـ أريد الخوجة بهيرة.

ـ ماذا تريدين منها؟ ارتبكت وداد، ماذا يمكن ان تقول لهذه المرأة التي تسأل عن كل شيء؟ قالت وهي تشير إلى يدها التي تحمل المغلف:

ـ أريد ان أعطيها هذه الرسالة.

ـ رسالة؟ (يبدو ان سعاد كانت تتسلى، فقد أحبت الأخذ والعطاء مع القروية التي تزداد احراجاً عند كل سؤال اضافي) ممن الرسالة؟

ـ من أمي. هل الخوجة بهيرة هنا؟

عندها فتحت عازفة الكمنجة الباب جيداً ودعتها للدخول. كانت تراقبها حين تنهدت وداد براحة فقد كانت قد تعرقت بسبب أسئلتها. ارتقت الدرجتين اللتين كان البيت يعلو بهما الشارع ثم اجتازت المرأة صاحبة الاسئلة وتوقفت. أغلقت المرأة الباب ثم لمست وداد بيدها لتطمئنها وطلبت منها ان تلحقها ثم سارت في الدهليز الطويل حتى الحوش.

كان حوش المنزل عبارة عن مربع غير مسقوف تطل عليه نوافذ الغرف من الجهتين الغربية والشرقية وكان هناك درجان في الجهتين الأخريين يقودان إلى المربعات والأسطح بينما احتل ايوان كبير مفروش بعدد كبير من المقاعد والكنبات الجهة القبلية وكأن حفلة موسيقية تجري هناك كل يوم فقد كانت الكمنجة مركونة في احد المقاعد، أما وسط الحوش فقد احتلته بركة ماء بنافورة كانت حينها متوقفة والماء في حالة ركود تسبح فيه بعض الورود وأوراق الشجر التي تحيط بالحوض وقطعة من الموسلين.

قادتها سعاد إلى الايوان ثم طلبت منها ان تجلس وتنتظر. ابتسمت لها ثم لمستها برفق لتطمئنها ثم قالت:

ـ الخوجة بهيرة في الحمام.

هزت وداد رأسها ثم تابعت سعاد وهي تبتعد ثم تدخل احد الأبواب. وما إن أصبحت بمفردها حتى راحت تتفحص الحوش والنوافذ والاشجار بعينيها. كانت جالسة ورسالة أمها إلى الخوجة في حضنها وهي تعبث بالمغلف دون إرادة منها فقد كانت خائفة. ماذا لو تسلمت الخوجة الرسالة وقرأتها ثم طردتها؟ أين ستذهب في هذه المدينة التي لا تعرف فيها أحداً؟ صعدت ببصرها نحو نوافذ المربعات العلوية وفجأة انتفضت، حتى انها سمعت نفسها تصرخ

صرخة خافتة لم يسمعها أحداً سواها. شاهدت امرأتين تقفان على احدى النوافذ وهما بالشلحة النسائية الداخلية تنظران اليها وهما تبتسمان (لماذا تبتسم لها كل ساكناتِ المنزل؟). كانتا ملتصقتين وتمسك كل منهما الأخرى من خصرها بينما تلاحمتا بالخدود. أبعدت وداد نظرها بسبب خوفها أولاً ثم بسبب خجلها ثانياً إلا أن فضولاً كبيراً دفعها إلى النظر من جديد ولكنها وجدت هذه المرة امرأة واحدة تنظر اليها وهي مستمرة بالتبسُّم بغنجٍ ويدها ممدودة إلى الداخل ثم غابت لأن الثانية كانت تجرها بعيداً عن النافذة.

نظرت إلى الكمنجة المركونة على المقعد. تذكرت البائع الجوال الكردي وتذكرت أغانيه الحزينة. كل الأكراد حول ميدان اكبس يحبون آلة البذق بينما ذلك البائع يفضل العزف على الكمنجة.. أليس هذا غريباً؟ تذكرت أيضاً عبدو السنكة الذي تركته اليوم صباحاً يبكي لفراقها وهو ينط على رصيف المحطة. شعرت بالحنين اليه. كانت أيضاً حزينة بالاضافة إلى خوفها واستغرابها من هذا البيت المليء بالنساء.

فجأة انتشلها صوت قرقعة قبقاب خشبي فجفلت. كانت هناك امرأتان ملتفتان ببشاكير الحمام خارجتان من الباب الذي غابت به سعاد عازفة الكمنجة التي ما لبثت ان خرجت تلحق بالمرأتين. كانت النساء الثلاث ينظرن اليها، أما المرأة الأولى فقد كانت تشبه الرجال في كل شيء ولكنها كانت امرأة لأن وداد شاهدت البشكير ينفرج عن ثدييها الصغيرين.

وقفت وداد فقد عرفت انها الخوجة بهيرة. اقتربت منها الخوجة وهي تتفحص جمال وجه القروية التي تبدو وكأنها ملاك نزل من السماء. صعدت اليها في الايوان وهي مستمرة في تفحصها لا ترفع عينيها عنها حتى ان رفيقتها التي كانت تشاركها الحمام قبل قليل شعرت بغيرة من تصرف أبلايتها. غيرة لا تبدر إلا عن عاشقة كانت مطمئنة إلى انها محظية لمدى العمر حتى انها لم تقو على مراقبة خوجتها التي تقف امام القروية وكأنها مسحورة فنترت

نفسها وأسرعت إلى احدى الغرف. قالت سعاد، المرأة المستترة بثوب عادي وكأنها تحاول ايقاظ بهيرة:

ـ تقول انها تحمل لك رسالة من أمها.

مدت وداد بالمغلف إلى بهيرة التي أمسكت به دون ان تنظر اليه، بل على العكس، فقد عرفت مضمون الرسالة ومرسلته وهي ما تزال تنظر إلى وداد. قالت:

ـ أنت ابنة بديعة؟

ـ نعم.

ـ اجلسي.

جلست وداد من جديد وجلست بهيرة امامها. لقد عرفتها من الشبه الكبير بأمها. انها لم تنسها، فلم تعشق بهيرة امرأة في حياتها كما عشقت بديعة، وعندما هربت منها عاشت سنين عديدة وهي تحلم بها وهي تعود إليها.. كانت صورتها ماثلة امام عينيها باستمرار. لقد كانت بديعة ألمها العظيم. تساءلت سعاد وقد اكتشفت سر جمال القروية وسر السحر الذي وقع على الخوجة:

ـ امها بديعة؟

استدارت اليها وداد وهزت برأسها. سمعت بهيرة تسألها:

ـ اين هي الآن؟

ـ لقد ماتت.. أعطتك عمرها. قالت ذلك وكأنها تطلب من الخوجة ألا تطرها. زفرت بهيرة ثم هزت رأسها أسفاً على عشيقتها. أطرقت حزناً فوجدت الرسالة بين يديها ففضتها وراحت تقرأ. نسيت نفسها فبان عريها لوداد التي أبعدت بصرها عنها فالتقت بعيني سعاد التي كانت تبتسم لها بحنان.

ـ هل أنت جائعة؟ فقالت وداد:

ـ أكلت في القطار من الزوادة.

ـ سوف أسخن لكِ.

تركتهما وذهبت إلى المطبخ. تابعتها وداد كي لا تعود للنظر إلى عورة بهيرة. لقد أحبت هذه المرأة. أحبتها منذ ان فتحت لها الباب. كانت وداد تحتاج إلى من يرأف بحالها ويبدو انهن لن يطردنها. اضطرت للعودة للنظر إلى الخوجة المعلمة. قالت وهي تطوي الرسالة ثم تطوي البشكير حول جسدها العاري:

ـ الله يرحمها.. هل تعرفين ماذا كتبت لي المرحومة؟ هزت وداد رأسها، فهي دائماً تعرف:

ـ أعرف يا ستي.

ـ تطلب مني ان استقبلك لتعيشي وتعملي معي.. ان أهتم بكِ. هل انت موافقة؟

ـ نعم موافقة، لا أعرف أحداً أذهب اليه.

ـ سوف تبقين.

حولت عينيها فشاهدت وداد المرأة رفيقة الخوجة في الحمام وقد ارتدت شلحة داخلية حمراء وتقف على باب الغرفة وهي تمشط شعرها الرطب. كانت تستمع إلى الحديث غير راضية عما يجري. في هذه اللحظة نهضت بهيرة واقتربت من وداد.

ـ أمك تقول ان أسمك وداد.

ـ نعم، اسمي وداد.

ـ اسم حلو..

رددت بهيرة اسم وداد ثم أمسكت بالمنديل الذي كانت وداد تعقده على رأسها وحلته ثم رفعته. راحت تتملى جمالها. مسحت على شعرها وتبسمت لها. نظرت وداد نحو المرأة بالشلحة الحمراء فوجدتها هناك تنظر بغيرة إلى ما يجري. انحنت بهيرة وقبلت وداد على خدها قبلة لا تشبه قبلات الأمهات.

ـ تعالي.. سوف أدلك أين ستنامين.

نهضت وداد وحملت حقيبتها ثم تبعت الخوجة. التقت أعين النساء الثلاث، ولكن بهيرة لم تكن تأبه لغيرة ذات الشلحة الحمراء.

ازدادت قوة انهمار المطر فأصبحت حباته تنقر زجاج النافذة بشكل غريب. كان الشيخ قد توقف ليأخذ نفساً فحسبت انه سيستريح فترة فنظرت إلى المطر المنهمر. كان المطر كثيفاً فتعذرت علي رؤية السهول الجرداء خلف سياج الحديقة الأمامية، فتذكرت زميلي الاستاذ تميم وسائق اللاندروفر وتمنيت ان يكونا قد أفلحا في طلب النجدة. لكن الشيخ ما لبث ان عاد إلى الحكاية، فقد كان متشوقاً لسرد القصة بقدر ما كنت أنا نفسي متشوقاً لسماعها. قال:

كانت بهيرة تحب ان تكون محاطة دوماً بأعضاء فرقتها ولذلك فقد اشترت ذلك البيت في حي الفرافرة لاتساعه بحيث تستطيع ان يسكن معها أكبر عدد ممكن من نساء فرقتها، فبالاضافة إلى سعاد عازفة الكمنجة كانت هناك عازفة الايقاع عائشة وعازفة القانون فريدة اللتان شاهدتهما وداد تطلان من نافذة المربع العلوي الذي اتخذتاه غرفة مشتركة لهما. كانتا متفاهمتين كثيراً حتى انهما كانتا تنامان في سرير واحد. كانتا عاشقتين والكل يعرف ذلك ولا أحد يتدخل في شؤونهما أو يحاول فصل احداهما عن الأخرى وباختصار كانتا هانئتين في حياتهما. أما ذات الشلحة الداخلية الحمراء فقد كانت راقصة الفرقة. كان اسمها راحيل (كانت يهودية ذات شعر أحمر) وكانت قد انضمت إلى فرقة بهيرة منذ ثلاثة أعوام بعد ان جاءت بها من احد مسارح المدينة، ويقال انها عشقتها حين رأتها ترقص فعرضت عليها ان تكون راقصة فرقتها وصاحبتها فوافقت ومنذ ذلك الوقت وراحيل تحتل غرفة بهيرة وسريرها وككل العاشقات كانت تشاركها حمامها أيضاً ولا تبتعد عنها على الاطلاق.. كانت ترضخ لقوانين الأبلاية الصارمة. أما آخر عضوات الفرقة فقد كانت بهية السمينة عازفة العود وكانت متزوجة وتعيش مع زوجها الذي كان في الماضي خادماً عند أهلها فتزوجته

ورحلت معه إلى المدينة ويقال انه عمل قواداً لها حين اضطرت لبيع جسدها من أجل لقمة العيش حين ضاقت بهما الدنيا.

هذا هو الجو الذي جاءت اليه وداد. لقد صرع حسنها عقل بهيرة وقلبها وجعلها تدوخ، فالخوجة خبيرة في الجمال والعشق وهي سريعة التأثر. خافت عليها منذ اللحظة الأولى فمنعتها من ان تشارك إحداهن في غرفتها. أرادتها ان تستقل في غرفة لوحدها، وحبذا لو كانت إلى جانب غرفة بهيرة فاضطرت سعاد إلى الانتقال إلى غرفة المربع الأخرى كي تحتل وداد غرفتها.

مجيء وداد أزعج راحيل. جعلها تموت من القهر والغيرة، فقد لاحظت مدى اهتمام بهيرة بالقادمة الجديدة وكيف انها لا ترفع عينيها عنها وتهتم بكل صغيرة وكبيرة تخصها. انها تعرف أبلايتها بهيرة جيداً فعندما جاءت بها من المسارح كانت تهتم بها بنفس الطريقة. كانت بهيرة حينها تصاحب امرأة لا تحسن فعل شيء غير الحب. لم تكن موسيقية أو مغنية أو راقصة. كل ما هنالك انها كانت جميلة ومربربة. كانت ممتلئة نوعاً ما ذات بشرة مائلة إلى السمرة ولكنها كانت دلّوعة ومغناجاً ولولا هاتان الصفتان لاستغرب الناس حب الخوجة بهيرة لها. كانت تحبب الناس بها بوساطة غنجها ودلعها. كانت لها صفة أخرى، فقد كانت تجيد اللعب بصوتها وتجعل كل من يحيط بها يطرب حين تتكلم. كانت تخاصم بهيرة كثيراً وكانت تحسب ان ذلك يزيد أبلايتها تعلقاً بها ولكن بهيرة ملتها آخر الأمر وراحت تساوم راحيل على الانتقال إلى فرقتها وكان أهم بند في الاتفاق هو ان تصبح عشيقتها. نعم، فقد كان ذلك جزءاً من الاتفاق ولا أريد أن يستغرب أحد ذلك (والكلام للشيخ) فقد قامت بهيرة بعقد مثل هذه الاتفاقات عدة مرات خلال حياتها. وعندما انتقلت راحيل إلى بيت الفرافرة لم تكن المرأة الدلّوعة والمغناج قد تركت البيت بعد، ولم يكن من عادة الخوجة بهيرة طرد عشيقاتها حين تقرر استبدالهن بل تقوم بالانتقال من واحدة إلى أخرى تحت سمع الجميع وبصرهم. كل ما هنالك انها اعتادت ان تنقل اهتمامها

من القديمة إلى الجديدة رغم ان القديمة ما تزال تشاركها غرفتها وحمامها وسريرها. لقد جعلت راحيل تسكن الغرفة التي تتشاركان الآن في العيش فيها بينما كانت الدلّوعة تسكن الغرفة التي احتلتها وداد، وعندما حان الوقت انتقلت بهيرة من هذه الغرفة إلى تلك تاركة الدلّوعة تنام بمفردها وكأن شيئاً لم يكن. وحتى يحين موعد الانتقال كانت تنقل اهتمامها بالتدريج من هذه إلى تلك حفاظاً على المودة القديمة كما اعتادت ان تقول. وفي معظم الأحيان تشعر القديمة بأنها ستهجر فتبدأ بالمقاومة وبالبكاء بفعل الغيرة والخوف من الهجران، وحين تتعارك القديمة مع الجديدة تقف بهيرة مع الجديدة ويحدث الطلاق.

كانت راحيل تعرف كل ذلك بالتفصيل حين جاءت وداد فقد كان قد حصل لها نفس الشيء لأنها كانت قد حلت محل امرأة قديمة. كان عليها الآن ان تتحول إلى قديمة بعد ان كانت جديدة ومحبوبة. جافاها النوم وأصبحت قلقة باستمرار فقد ازدادت حساسيتها وصارت لها عادة جديدة وهي التلصص على وداد وبهيرة حين تقوم هذه الأخيرة بالاعتناء بها. أصبحت بهيرة تسهر حتى الصباح في غرفة وداد. كانت تجلس الى جوارها وهي تحدثها عن أمها بديعة، فقد كانت الأم قاسماً مشتركاً بين المرأتين. أما راحيل فقد أصبحت تكره الليالي وخصوصاً حين كان عليهن المكوث في البيت بسبب عدم ارتباط الفرقة. كانت تجد نفسها وهي تخرج من غرفتها لتتلصص على أبلايتها من خلال النافذة المطلة على الحوش. كانت تراها كيف تحادث وداد أو تستمع اليها تصف حياتها هي وأمها في ميدان اكبس، ولا تمر دقائق إلا وتمد بهيرة يدها لتلمس وداد البريئة أو لتمسح دمعة عن خدها أو حين تتجرأ بهيرة أكثر فتحضن وداد وتقبلها محاولة ان تزيل حالة الحزن على الأم المتوفاة. وعندما كانت بهيرة تعود إلى غرفتها كانت راحيل تتقرب اليها وتجعلها لا تشعر بغيرتها وقهرها. كانت راحيل ذكية، وبذكائها وصبرها أخرت كثيراً انتقال بهيرة من غرفتها إلى غرفة وداد. حتى انها راحت تهتم بوداد أمام عيني بهيرة.

كانت المهمة آنذاك هي اعادة صنع وداد من قروية جميلة إلى امرأة مرحب بها في مجتمع حلب المخملي. كانت قد ورثت عن أمها أموراً كثيرة تجعل هذه المهمة غير مستحيلة. كان عليهن ان يجرين بعض التغييرات على هيئة وداد. قص الشعر وتجعيده، نتف الحواجب واعادة رسمها، وازالة الشعر عن الساعدين والساقين بالعقيدة (معجون السكر) ثم انتقاء الاقمشة وموديلات الأثواب التي تلائم قامة وداد الممشوقة وقلة امتلاء جسدها الجميل والمناسب. كانت بهيرة تقوم بكل ذلك بمساعدة سعاد التي عرضت صداقتها على وداد منذ اللحظة الأولى لدخولها إلى البيت. لم تكن سعاد لتخيف بهيرة فقد كانت امرأة صادقة وودودة ولها اهتمامات بعيدة عن النساء، فهي تنتظر فارس أحلامها ولا تنتظر فرساً أنثى مثل بهيرة. لهذا السبب كانت الخوجة تطلب من سعاد مساعدتها في قضايا تخص جسد وداد دون خوف من ان تنافسها عليه في المستقبل. ولكن راحيل راحت تفرض نفسها حين تتم العناية بوداد. كانت تخترق الحواجز وتفتح الأبواب عليهن لتشارك في نتف الشعر أو انتقاء ملابس داخلية. كانت تعطي رأيها بواقعية ودون وقاحة بشكل يكون ملائماً لبهيرة ومزاجها العشروي. حينها تصمت الأبلاية على تدخلها واقتحامها الأبواب المغلقة ولا تقوم بطردها.

هناك شيء استفادت منه راحيل لتؤخر رحلة انتقال بهيرة من سريرها إلى سرير وداد. فلم تكن بديعة قد علمت ابنتها أي شيء يتعلق بمهنتهن. فلم تكن تعرف الرقص ولا العزف على الآلات الموسيقية ولم يكن صوتها جميلاً لتغني. لم تكن وداد سوى قطعة نفيسة، أو دمية يشتهي أي انسان ضمها. لم يستطعن ان يصنعن منها سوى امرأة خارقة الجمال، رقيقة، خجولة وذات نفس طيب وريق عذب. كانت متعة للنظر حين تجلس وأكثر من ذلك حين تسير أو تتحرك أو تتلفت وحين تضحك فيحمر وجهها بشكل خفيف محبب. ولكن الخوجة بحاجة إلى راقصة، وراحيل هي راقصتها التي تخرج الآهات من أفواه الرجال والنساء حين ترقص حتى عدت

أفضل راقصة بين فرق الخوجات في المدينة. لذلك كان على بهيرة ان تصبر حتى تجد البديلة لأن راحيل لن ترضى ان تبقى في الفرقة إذا ما هجرت سريرها.

في الليالي التي لم يكنّ على ارتباط في عمل أو عرس أو حفلة في أحد البيوت، كنّ يجتمعن في الايوان ليعزفن ويغنين أحب الألحان إلى قلوبهن مثل دور «الحب ماهوش بالسهل» و«كادني الهوى وصبحت عليل» ويختمن سهراتهن ببعض الطقاطيق مثل «أنا السبب في اللي جرى» و«آه ياحليوه يامسليني». كانت سعاد تلقي النكات فيضحكن ويراقبن وداد كيف تضحك (مجرد مراقبتها وهي تضحك لذة للجميع) كانت سعاد تجيد تقليد النساء والرجال بشكل يثير الضحك، وعندما يجتمعن كانت تقلد حالة العشق المضحكة بين عائشة وفريدة، فقد كانتا لا تنفكان عن بعضهما بعضاً، وكانتا تتلامسان حتى أمام وداد التي أصبحت تجد في ذلك أمراً طبيعياً (وهذا ما كانت تتمناه بهيرة من كل قلبها). كانت وداد تضحك من كل قلبها وهي ترى إلى سعاد كيف تقلد فريدة وهي تقرص خد عائشة أو حين تتخاصمان. كانت تقلد كل واحدة وهي تعمل. تقلد بهيرة وهي تغني أو راحيل وهي ترقص وتقلد عائشة حين تدق على الدربكة أو عازفة العود السمينة وكيف تنام بين ذراعي زوجها القواد التي اعتادت ان تشرح لهن ذلك بنفسها دون حرج فيغشين من الضحك.

في كل مرة، كانت راحيل تنهض لترقص بناءً على إلحاحهن. كانت وداد تحب رقصها فلا ترفع عينيها عنها. كانت تجدها العجب العجاب فلم تكن قد شاهدت امرأة ترقص بهذه الحرفية والفن من قبل فأصبحت تطلب منها ذلك بنفسها. وحين لا يكون مزاجها رائقاً فترفض الرقص، كانت وداد تحزن وتستاء. هذا الأمر ترك عند راحيل أثراً طيباً. أصبحت تخصها برقصات معينة فتميل عليها وتتمايل امامها وتطلبها لتشارك في الرقص. كانت تفعل ذلك لأنها أحبتها فعلاً، وما غيرتها إلا مظهر من مظاهر عدم الاستسلام إلى

الاهمال من قبل بهيرة، وإن هجرتها أبلايتها يوماً بسبب وداد فإنها لن تكرهها، بل ستكره الخوجة التي لا تشبع.

وفي احدى المرات كانت بهيرة جالسة وقد التصقت بوداد. التصقت بها على طريقة عائشة وفريدة ولكن بشكل يوحي وكأنه عفوي. كانت راحيل تراقب أبلايتها بطرف عينها بهدوء ولكنها كانت تحترق في داخلها. كانت منزعجة ولكنها تعلمت كيف تخفي استياءها وغيرتها. نهضت وطلبت من عائشة وفريدة وسعاد ان يعزفن لها لترقص. أرادت ان تفهم أبلايتها انها لن تستطيع التخلي عنها بسهولة.. أرادت أن تثبت لبهيرة أن أي عشق آخر تنساق إليه هو تفاهة بالمقارنة مع عشقها.

عزفت النساء لحناً راقصاً لداوود حسني وراحت وداد تصفق مع الايقاع. نهضت راحيل ثم وقفت أمامهن منفرجة الساقين، بعينين مثبتتين نحو بهيرة وراحت ترقص لها رقصة النحلة.

ـ رقصة النحلة..؟ سألتُ الشيخ باستغراب فأنا لم أكن قد سمعت بهذه الرقصة من قبل فقال الشيخ:

ـ نعم، رقصة النحلة.. انها رقصة فاجرة غير مستحبة.

ـ وهل كانت ترقصها راحيل باستمرار لأبلايتها بهيرة؟

ـ كلا، كانت المرة الأولى التي ترقصها راحيل في بيت بهيرة. حتى ان الخوجة تفاجأت حين بدأت راحيل رقصتها. المهم هو انها كانت تسدد نظراتها نحو بهيرة وهذه الأخيرة كانت مأخوذة بما كانت صاحبتها القديمة تقوم به.

ـ هذا شيء مشوق.

ـ نعم، اسمعني أشرح لك كيف جرى الأمر وما نتج عنه.

ـ تفضل.

كانت راحيل تمثل وكأن نحلة قد دخلت في ثيابها وهي تسعى للبحث عنها وقتلها. كانت تتوجع بسبب قرصات النحلة، وهي اذ

تفعل ذلك فانها تتوجه بكليتها نحو بهيرة. وبهيرة صامتة ومستثارة تتابع ما كانت تفعله راحيل. وفجأة بدأت راحيل تخلع ثيابها قطعة قطعة لتبحث عن النحلة الوهمية. كانت تتأوه وكأنها تتألم من القرص، تتلفظ بكلمة النحلة باحثة عنها بين ثنايا كل قطعة من ثيابها ثم تضطر لخلع تلك القطعة حتى تتمكن من التقاط النحلة. كل ذلك وعيون النساء تتابعها بمتعة، وخصوصاً بهيرة وعائشة وفريدة. أما وداد فقد كانت تتابعها متعجبة من قدرة راحيل على التلوي والتمثيل. كانت تحسب ان ما يجري أمر عادي هنا في بيت الخوجة بهيرة. أمر يتكرر يومياً. وما هي إلا لحظات حتى أصبحت راحيل عارية إلا من لباسها الداخلي المصنوع من الدانتيلا. ولكن النحلة قد تختبئ هناك أيضاً فراحت تبحث عنها في ثنايا لباسها وهي تتلوى على الأرض، وعندما قررت نهائياً ان تخلع آخر قطعة تسترها نهضت بهيرة وأمسكت بها وجرتها بعنف إلى غرفتها.

حصل ذلك وسط دهشة النساء. توقفن عن العزف وبسبب هذا الصمت وصل إلى أسماعهن أنين راحيل التي كانت تبكي بينما كانت بهيرة تكلمها بقسوة. لاحظت سعاد قلق وداد بسبب ما يجري في غرفة المرأتين فتابعت العزف على كمنجتها فلحقت بها عائشة ثم فريدة ثم نهضت سعاد وأمسكت بيد وداد تدعوها للرقص. نهضت وداد، وبما انها لم تكن خبيرة بالرقص فقد قررت ان لا ترقص كي لا تخجل امام أعين النساء الخبيرات. قررت ان تتحرك حسب الايقاع فحسب. مدت يداً وراحت تتحرك بخطوات قصيرة وفق نقرات الدربكة. ثم راحت تريح يداً وتمد الأخرى، وتخطو تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف، مطرقة إلى الأرض بخجل، محمرة الوجه، مبتسمة بأناقة. هذا ليس رقصاً برأيها ولكنها كانت حلوة كسكر نبات. تأخذ العقل. تعلمت حركة جديدة وهي ان تلمس صدغها باصابعها بينما تمسك عكس يدها باليد الأخرى وتتحرك جانبياً. كن يشجعنها بمرح فقد كانت تفعل كل ذلك دون تخطيط، بل بغريزة أنثوية ناعمة. وفجأة شد انتباهها شيء ما، هناك بالقرب من مدخل غرفة بهيرة. كانت

بهيرة وراحيل واقفتين هناك تراقبانها بينما كانت راحيل قد لفت نفسها بشرشف أبيض والتصقت ببهيرة التي كانت تحضنها بيدها. كان يبدو على راحيل انها بكت بحرقة. خجلت وداد فجلست ثم أخفت وجهها بيديها.

رقصت راحيل رقصة الوداع، فقد كانت قد قررت الرحيل. أرادت برقصة النحلة ان تثبت جدارة منقطعة النظير وان تترك بهيرة وهي في حالة هيام شديد. ظلتا متعانقتين طوال الليل. لم يغمض لهما جفن. كانت راحيل تبكي بينما كانت بهيرة تحضنها وقد عاد اليها ولعها العشقي بصاحبتها التي بسبب وصول وداد افتقدت ذاك الولع. كانتا تتحدثان همساً فقد كانت الأفواه والآذان شديدة القرب.

ـ ابقي يا راحيل فانا بحاجة إليك.. انت راقصتي وحبيبتي.

ـ بل سأرحل.. أعرف ما سيحصل لي ولهذا فسأرحل عند الصباح.

ـ لن يحصل أي شيء، فأنت تتوهمين.. أنا أحبك.

ـ ستحبين وداد، يجب علي ان أفسح لها المكان طواعية.. أنا لا أحب ان أهجر بعد أن أصبح الحبيبة العتيقة التي مضى زمانها. وأنا أيضاً أحبك يا بهيرة ولكنني أعرف ما سيحصل لي لذلك اتركيني أرحل.

ـ اكتشفت هذه الليلة انني أحبك يا راحيل، فأنا لم أحب وداد بعد.

ـ اكتشفتِ..؟ هذا لأنني رقصت لك رقصة النحلة، هل تعلمين لماذا رقصتها؟.. لأنني راقبتك جالسة إلى جانب وداد وملتصقة بها. بدأتِ تحبينها.. شعورك هذا مؤقت فأنا لا أستطيع ان أرقص لك النحلة كل يوم.

ـ كنت رائعة يا راحيل ولكن لم يكن من المناسب ان ترقصي هكذا امام وداد.. انها لا تفهم شيئاً بعد.

ـ أعرف، ووداد كانت رائعة في هذا الشيء الذي راقبناها وهي تفعله.. ألم تكن رائعة؟

ـ لن أتكلم.

ـ هل تعلمين ان وداد كانت ترقص؟.. رقصها يسلب اللب يا أبلايتي، اجعليها تستمر في رقصها بهذه الطريقة وسترين كيف سيعشقها الناس.

ـ الناس لن يحبوا هذه الطريقة في الرقص، انه اللارقص.. كانت تتحرك فحسب.. النساء يحبونك انتِ.

ـ انت مخطئة، أو تقولين ذلك كي ترضيني وتهدئيني. ما هو الرقص يا أبلايتي؟ انه ليونة الجسد، حركات عفوية، انه الرقص من أجل الرقص.. الرقص الجيد يابهيرة غريزي الطابع، فالراقصة تنسى الناس وترقص لنفسها وهذا ما كانت تفعله وداد قبل قليل. انت تعرفين جيداً ماذا يقولون.. الغزالة تغزل على عود.. الراقصة الجيدة هي التي لا تعرف انها ترقص.

صمتت بهيرة. كانت تعرف صحة كل ما كانت تقوله راحيل. لقد أعادت اشعال نار كادت ان تنطفئ في أحشاء بهيرة. كانت تقترب من عشق وداد ولكن راحيل ضربت ضربتها فجعلتها تحتار ماذا تفعل. انها تتمنى الآن ان تمتلك الاثنتين رغم معرفتها جيداً ان ذلك مستحيل. سمعت راحيل تكرر وهي تدفن وجهها تحت اذن بهيرة:

ـ سوف أرحل غداً.

في الصباح دخلت راحيل إلى وداد لتودعها. وقفت أمام تلك الإنسانة البريئة التي لا تعرف جيداً كيف تسير الأشياء. كانت وداد مرتبكة، تعبث بأصابعها كأنها طفل صغير. سألتها وداد:

ـ لماذا ترحلين.. فأنا بدأت أحبكِ، بدأت أحبكن جميعاً.

ـ يجب علي، وأنا أيضاً بدأت أحبكِ.

ـ إذن لماذا عليك ان ترحلي، ابقي أرجوكِ، سوف نستمر في سهراتنا. لقد أحببت رقصك البارحة.

ابتسمت لها راحيل، انها لا تعرف ما يجري. اقتربت منها وقبلتها. همست لها:

ـ انسي ما حصل البارحة.

ـ كنت أريدك ان تعلميني الرقص.. ليست بالضرورة تلك الرقصة..

ـ ارقصي كما يحلو لك، راقبتك فأحببتك، تابعي على نفس المنوال. سوف يحبونك الناس. إلى اللقاء.

خرجت راحيل من البيت. وقفت النساء يودعنها، بينما فضلت بهيرة ان تظل في غرفتها. مع ذلك شعرت براحة لأنها تحررت منها، فقد كانت تستعد لمغامرة جديدة ستكون وداد بطلتها.

جلسنا إلى مائدة الغداء الساعة الثالثة والنصف فقد كانت للشيخ عادات أكابر حلب في النوم حتى وقت متأخر. أي انه يفطر في الحادية عشرة والربع ويتناول طعام الغداء متأخراً بينما يكتفي بكأس من الحليب الساخن في العاشرة مساءً في حين يأوي إلى فراشه في الثالثة بعد منتصف الليل. وبما أنني اضطررت للسهر الليلة الماضية استمع إلى الشيخ يسرد علي بداية الحكاية، فقد اضطررت لمسايرته في مواعيد نومه واستيقاظه وتناوله الطعام. ولم أجد في ذلك أدنى صعوبة، وانا الذي اعتدت على الاستيقاظ مبكراً بحكم عملي في المصرف الزراعي لأنني كنت مرهقاً واضطررت للنوم حتى الظهيرة كي استرد قوتي التي فقدتها في أحداث ليلة أول أمس الفظيعة. لقد وجدت نفسي أحمد الله لأنني لم أمرض بعد أن غسلتني الأمطار وأظن ان السبب في ذلك هو انشغالي بالحكاية في حين انني في العادة أصاب بالزكام إن أنا لم أجفف شعري بعد الاستحمام.. أليس ذلك غريباً؟

أعود إلى الفيلا حيث كنا أنا والشيخ جالسين إلى مائدة الغداء ننتظر الخادم كي يقدم لنا الطعام. كان الشيخ صامتاً كعادته عندما

يتوقف عن سرد الحكاية، وكنت في هذه الأوقات أحترم صمته فأصمت بدوري. كان المطر يهطل بغزارة في الخارج وكانت غرفة الطعام الملحقة بالصالون مدفأة جيداً، فقد كانت الحرارة المنبعثة من مدفأة الحطب في الصالون تصل الينا. كان الخادم (وقد عرفت قبل قليل انه يدعى اسماعيل) قد جهز المائدة بطبقتين من الصحون الصينية المزهرة وبثلاثة أزواج من الملاعق والشوك والسكاكين حسب الطريقة الأوروبية لتناول عدة أصناف من الأطعمة والشوربة والحلويات. واليوم اكتشفت انه يفضل ان يجلس الشيخ (وضيوفه) إلى المائدة الفارغة إلا من الأدوات وفوط الطعام ثم يقوم بتقديم الأطعمة حسب الترتيب مما يستدعي ذهابه إلى المطبخ وإيابه منه.

عندما دخل أول مرة ليقدم الشوربة (وكانت بالمناسبة شوربة الخضار بدون دسم) رمقني بنظرة لم أرتح لها ثم سكب لي حصتي وهو يقف فوق رأسي ثم انتقل إلى خلف كرسي الشيخ فسكب له وأثناءها، رمقني مرة أخرى ثم خرج. تناولت الشوربة وأنا مرتاح وغير خائف دون أن تؤثر في تلك النظرات غير المريحة التي يطالعني بها اسماعيل، ثم تناولنا شيئاً من سلطة الموسم. ولكنني توجست عندما قدم لنا الطبق الرئيسي، ففي حين قدم لي شريحة لحم محمرة ومطفأة بالحمض والثوم قدم للشيخ طبقاً من الخضار المسلوقة.

لقد بدأت أخاف هذا الخادم وأصبحت أكثر حرصاً على تفحص ما يقدمه لي من أطعمة وشراب. كنت لا آبه لما آكل أو أشرب إن قدم لي من نفس الصنف الذي يقدمه لسيده الشيخ، ولكن ان يقدم لي طعاماً محضراً خصيصاً لي فهذا شيء يستحق التوقف من أجله والتفكير فيه فأنا (واقولها للمرة العاشرة) لم أكن مرتاحاً إليه وأشعر أنه يكرهني ويريد ان يؤذيني أو على الأقل ان يطردني دون أن أفهم دوافعه لذلك. ظللت أحدق في شريحة اللحم دون أن ألمسها بينما كان الشيخ يتناول خضاره المسلوقة بتأنٍ مغالباً الآلام التي

يسببها له طقم أسنانه الصناعية. وعندما دخل اسماعيل يحمل أطباق الكريم كراميل كحلويات، ويبدو ان سيده كان يفضلها بسبب آلام لثته، لاحظت كيف تفاجأ لأنني لم أتناول الشريحة ولاحظت أيضاً انه استاء بسبب ذلك. كان يود لو أنني التهمت شريحة اللحم. هذا معناه ان هناك احتمالاً كبيراً ان يكون قد دس فيها شيئاً ليجعل مكوثي في الفيلا أقصر ما يمكن، مع هذا فقد التقط الطبق وأبعده ثم وضع مكانه طبق الكراميل دون أن ينبس بأي تساؤل. التهمت الحلويات ثم قشرت برتقالة وحين انتهيت منها حمدت الله وشكرت الشيخ ونهضت إلى المغسلة.

تركت الماء يسيل على يدي مدة أطول من المعتاد ثم نشفتهما وتأملت وجهي في المرآة ثم ابتعدت عنها لأصطدم باسماعيل. لم يكن يحمل أطباقاً من المائدة ولم يكن خارجاً من المطبخ لأن المغسلة في الجانب الآخر من الفيلا. كان ببساطة، يتجسس علي. ظللنا متواجهين لثوان أزفر في وجهه وهو يزفر في وجهي. كنت أسعى إلى اخفاء اضطرابي وخوفي بينما كان يظهر وقاحة في ثوب من الأناقة والترفع المعروفين عند خدم قصور الأمراء. لاحظت أيضاً انه يميل إلى السخرية مني وبالتحديد إلى إخافتي. اضطررت للتراجع خطوة إلى الوراء ثم إلى اليمين كي اتابع طريقي باتجاه الصالون لأجلس في مكاني بجانب المدفأة، إلا أنه مد يده يمنعني فنظرت إليه باندهاش فوجدته يسدد نحوي نظرة غير مريحة فيها الكثير من القسوة والسادية. وجدت نفسي أسأل:

ـ عفواً..؟ فقال بشكل أبقى فيه فمه مطبقاً:

ـ انت لم تأكل شريحة اللحم. قلت له إنني لست على ما يرام، ثم حررت نفسي وتابعت طريقي بينما كنت أحس أنه بقي واقفاً ينظر إلى ظهري وانا أبتعد.

أسقطت نفسي على مقعدي بجانب المدفأة وأنا ألهث. خفت ان يتبعني إلى هنا قبل ان يأتي الشيخ ولكن مضت دقائق خمس وانا

مرتبك وخائف دون أن يأتي بل جاء الشيخ فنهضت لأساعده على الجلوس فشكرني ثم قال:

ـ سوف نشرب الشاي ثم نصعد للقيلولة وبعدها سنتابع قصتنا.
قلت له إنني بحاجة إلى القيلولة أنا أيضاً فهز رأسه ثم صمت، ليدخل الخادم بعد ثوانٍ حاملاً صينية الشاي بعدة من الصيني الفاخر. صب الشاي (طلبت منه ألا يضيف السكر إلى فنجاني) ثم ناول كلاً منا فنجانه وخرج دون أن تلتقي عينانا.. شربنا فنجانينا بصمت بينما ظل المطر يهطل بغزارة في الخارج.

صعدت إلى غرفتي وجلست خلف النافذة أطل من علٍ على الحقول الجرداء التي تغسلها الأمطار. كان أقصى ما يمكنني مشاهدته لا يزيد عن ستين متراً من سياج الحديقة الخلفية. لقد رفضت الاستلقاء في السرير رغم كل المغريات التي يقدمها سرير دافئ في غرفة وسط عالم مبلل بالامطار. كان علي ان أفكر بتصرفات الخادم فقد خططت للتفكير في موضوعه مسبقاً. ماذا يريد اسماعيل؟ هل يرغب في رحيلي؟ لو لم يكن يريدني لكان حاول طردي منذ اللحظة الأولى التي وجدني فيها أمام باب الفيلا وقد ساقتني اليه الكلاب البرية المتوحشة. في الساعة الأولى من دخولي للفيلا شعرت بأنه انسان ودود، حتى إنه جهز لي غرفتي وبدل الشراشف ودفأها وترك لي عدة حلاقة جديدة. ماذا حصل ليتبدل إلى انسان يكرهني ويتجسس علي وربما يحاول أذيتي إن لم يكن يحاول قتلي؟

ـ ماذا يريد هذا الملعون؟ سمعت نفسي أهمس بصوت مسموع، ثم تساءلت بصوت غير مسموع.. هل دخل الى غرفتي أثناء نومي ليلة أمس؟ أما إذا دخل فعلاً، فكيف دخل وقد قمت بتثبيت قفل الباب وتأكدت من رتاج النافذة؟ ثم ماذا كان يفعل في غرفتي وأنا نائم؟ هل حمل معه سكين؟ أو مسدس؟.. أسئلة كثيرة لم أجد جواباً على واحد منها.

فجأة خطر في بالي ان الأمر يتعلق بالحكاية التي يسردها علي الشيخ، فقد تغير موقفه مني بعد أن استأنس لي الشيخ الجليل وراح يحكي لي القصة.. إذن لقد توضح الأمر لذهني المرتبك. لاسماعيل علاقة ما بالحكاية التي يحكيها لي الشيخ، وانا حتى الآن لا أعرف موقعه من الحكاية ولا علاقته بوداد أو بالخوجة بهيرة، فعلي ان أتابع القصة حتى أفهم علاقة الشيخ بكل الحكاية ومن ثم لأعرف علاقة اسماعيل بالحكاية وبالشيخ معاً. ولكن لماذا يحاول اسماعيل منعي من متابعة القصة؟ ماذا سأكتشف في النهاية؟ قررت ان أصارع من أجل البقاء والاستماع، فالقضية ليست حكاية فحسب، بل هي أكثر من ذلك، إنها كشف للمجهول. في هذه اللحظة لفت انتباهي طيف انسان يسير خارج سور الحديقة تحت وابل المطر دون مظلة. نهضت مسرعاً ومسحت الغبش عن زجاج النافذة ثم قربت وجهي ورحت أنظر. كان الرجل يركض فغاب بسرعة عن ناظري قبل ان أتأكد إن كان هو الخادم اسماعيل أم غيره. ماذا كان يفعل اسماعيل تحت المطر ؟ ابتعدت عن النافذة وكدت أجلس من جديد ولكنني فضلت ان استلقي في السرير. خلعت حذائي وأرحت رأسي على المخدة. شعرت بلذة فائقة فأغمضت عيني، فقد كانت نعمة عظيمة أن أحظى بأغطية نظيفة وغرفة دافئة، في هذا الطقس الماطر إلى حد الغرق، رغم قلقي الشديد من تصرفات اسماعيل.

قال الشيخ بعد القيلولة:

لم تكن الخوجة بهيرة تقبل ان تذهب وداد معهن إلى حفلات الأعراس التي تمتد عادة حتى الساعات الأولى من الصباح. كانت تردد ان الوقت لم يحن بعد لتخرج الفتاة إلى النور وتتعرف عليها نساء المجتمع. وبسبب خوفها من البقاء وحدها في بيت الفرافرة فقد جاءت لها بخادمة اسمها فاطمة لتستأنس بها حين تكون بهيرة والأخريات خارج البيت. كانت فاطمة قد تجاوزت الخامسة والأربعين بقليل، وكانت أرمنية أضاعت عائلتها أثناء الهرب

الفظيع من المذابح في الحرب العامة، فوصلت إلى حلب مع مجموعة من الفتيات الصغيرات كانت تبدو وكأنها أمهن (كانت في الخامسة والثلاثين)، وبعد ان تقاسم بعض التجار الفتيات حيث قاموا بتبنيهن، كانت من نصيب بائع خردة الذي عرض ان يتزوجها على امرأته. كان لها أسم صعب وغير مفهوم فسماها بائع الخردة فاطمة، على أسم أمه المتوفاة، وتركها تعيش في البيت في غرفة صغيرة كانت في الماضي مستودعاً لخردوات التاجر. كان يدافع عنها من بطش زوجته التي كانت تعتبرها خادمة لها ولأبنائها. ومن سوء حظ فاطمة فقد مات التاجر وتركها تحت رحمة زوجته فكانت تضربها كل يوم حتى جعلتها تطفش من البيت، وبكل بساطة حملت بقجة حزمت فيها بعض الثياب المهلهلة وبعض الأطعمة ثم فتحت الباب وخرجت لتتحول إلى خادمة محترفة في بيوت الأثرياء. ويبدو ان الحظ بدأ يبتسم لها حين خدمت في بيت احدى الخوجات المرحات فعاشت في جو من المرح والرقص والغناء فتعرفت على معظم خوجات المدينة وعلى الكثيرات من زوجات الوجهاء. كانت تترك بيت مخدومتها حين تهان أو توجه إليها كلمة فظة أو يكفي ان يأتيها عرض أفضل لتنتقل إلى بيت آخر كما حصل لها حين طلبت منها بهيرة ان تأتي لتخدم في بيتها فوافقت على الفور رغم انها لم تكن على خلاف مع السيدة التي كانت تخدم عندها.

لم تكن فاطمة تتقن اللغة العربية مع ذلك كانت تفهم جيداً ما كان يطلب منها. كانت تتحدث بلغة خاصة بها، خليط من العربية والأرمنية والتركية والكردية وهذا ما كان يضحك وداد. كانت تمضي النهار كله في الكنس والمسح والغسيل. كانت أيضاً تشتري الأطعمة من السوق القريب وتقشر الخضار وتطبخها، وبما أنها جاءت إلى بيت بهيرة بسبب وداد فقد وجدت أن عليها ان تعتني بالفتاة أكثر من أي شخص آخر. لقد أخذتها على عاتقها، حتى أنها كانت ترفض خدمة النساء الأخريات بينما كانت تهرع لخدمة وداد في أي أمر تطلبه. كان هذا مدعاة استنكار من قبل سعاد وفريدة

وعائشة. كن يجدنها ظريفة رغم رفضها القيام بخدمتهن، أما عندما ترحل النساء لإحياء حفل زواج أو خطوبة أو أية مناسبة مهما كانت، فقد كانت فاطمة تتفرغ لوداد ولا تبتعد عنها مهما كانت الأسباب. كانتا تجلسان بجانب احدى نوافذ الكشك الخشبي المطلة على الشارع بعد ان تكون فاطمة قد ملحت كمية من بزر البطيخ فتقضمانها وهي تقص على وداد قصصاً وحكايات غريبة، بينما تراقبان الناس الذين يمرون في الشارع الذي يضيئه مصباح من الكيروسين كانت البلدية قد علقته على خشبة خاصة امام باب الدار. أما الأغرب من ذلك فهو فهم وداد لهذه الحكايات التي كانت فاطمة تحكيها بخليطها اللغوي العجيب. وبالفعل فقد كانت وداد تفهم الحكايات بتفاصيلها حتى أنها أصبحت مدمنة عليها وكانت تتمنى ان تخرج بهيرة وصاحباتها من البيت لإحياء حفلاتهن كي تنفرد بفاطمة التي لا يحلو لها ان تحكي حكاياتها إلا عندما تصبحان بمفردهما.

كانت فاطمة تختلق تلك الحكايات من أجل وداد. كانت تحسب ان الفتاة تخاف من الظلام أو من الوحدة فتسعى لتسليتها وان الخوجة بهيرة قد جاءت بها لهذا السبب. أجمل تلك القصص كانت عن شاب تعارك يوماً مع ابن القائم مقام فجرحه جرحاً بليغاً ولكنه لم يمت فاضطر الشاب، وكان اسمه كردو الجبل، الهرب إلى الجبال ليتحول إلى قاطع طريق محترف. كان كردو يغير على المسافرين فيقطع عليهم الطريق ليسلبهم أموالهم. الشيء الجميل في كردو الجبل هو انه كان يفرق بين الأغنياء والفقراء. كان يسلب الأغنياء ويترك الفقراء، لهذا الأمر فقد أحبه الناس واعتزوا به حتى إنهم كانوا يساعدونه فيضللون العسكر الذين يرسلون لقتله. في كل مرة كانت فاطمة تقص على وداد حادثة جرت لكردو البطل. كان كردو يحب ويعشق، ينهب ويساعد المحتاجين، يقتل العسكر ويساعد الجرحى منهم الذين يصابون أثناء قتالهم معه. أصبحت لكردو الجبل عصابة من أمثاله من الشجعان وفي احدى المرات أحبته

امرأة أرمنية وصعدت الجبل من أجله. كان يطردها لتعود إلى أهلها ولكنها، بسبب عشقها له، ترفض ذلك حتى إنها أنقذت حياته مرة. قصة كردو الجبل وتلك الأرمنية جعلتها فاطمة ملحمة طويلة بعشرات الحكايات المتفرعة التي كان موضوعها الرئيسي هو العشق والبطولة. كان من المفترض أن يكون العسكر قد استطاعوا أخيراً قتل كردو والأرمنية والقاء القبض على أعضاء عصابته الآخرين ولكن فاطمة كانت ترفض ان تصنع لملحمتها نهاية حزينة خوفاً على مشاعر وداد التي أحبت بدورها قاطع الطريق، مما جعلها تستمر في اختلاق أحداث جديدة وقصص أخرى عن كردو الجبل الذي لا يقهر.

أصبح لكردو الجبل هيئة خاصة في ذهن وداد وبنت له في تصوراتها وجهاً جميلاً وجسداً قوياً. كان مهيباً يخافه أعداؤه، حتى أصدقاؤه ورجال عصابته كانوا يهابونه. كانت وداد تطلب من فاطمة ان تصف لها المواقف التي كان يتعرض لها كردو بالتفصيل، كيف كان يقف كردو؟ كيف كان يتكلم؟ هل كان يقاتل منبطحاً أم أنه كان يطلق النار معتلياً فرسه؟

اما الأرمنية الشجاعة فقد اتخذت لها شكلاً شبيهاً بها. لقد أحبت كردو لذلك جعلت نفسها الفتاة الأرمنية. وعندما كانت تحلم بمغامرات كردو وعصابته، كانت ترى نفسها إلى جانب ذلك البطل الذي دوّخ العسكر وسلب النقود من الأغنياء ليمنحها للفقراء. أما قسمات وجهه فلم تكن محددة. كان جميلاً وقوياً ولكنه لم يكن يشبه أحداً من الرجال الذين عرفتهم وداد (لم تعرف وداد رجالاً لهم نفس الصفات) كانت تحب عبدو السنكة ولكنه لا يمكن ان يكون يوماً كردو الجبل، ومحبتها له لا تشبه محبتها لكردو، لهذا لم يكن وجه كردو واضحاً. فكرت انه قد يشبه، إلى حد ما، اليوزباشي جودت الذي عشقته أمها فهربت من أجله من بيت الموسيقى (بيت بهيرة) ولكنها لم تظفر به بل افتقدته إلى الأبد.. وجعلها ذلك تعيش بقية حياتها في تلك المحطة المملة.

تعلق وداد بفاطمة وحكاياتها أقلق الخوجة بهيرة. جعلها تفكر

جدياً بطرد الخادمة. لقد أتت بواحدة كبيرة السن ولا تجيد التحدث باللغة العربية كي تمنع أية علاقة قد تنشأ بين وداد وبينها، ولكن فاطمة استطاعت امتلاك قلب وداد ومصادقتها. جعلتها حكاياتها أكثر ميلاً للعزلة والتأمل وأكثر ابتعاداً عن بهيرة. لماذا إذن تقوم بعزلها عن الناس؟ لقد منعتها من الخروج منذ وصولها، فهي تخاف عليها. تخاف ان يراها رجل فيموت فيها فيرغمها على محبته ثم يقوم بخطفها ويرحل بها؟..

تخاف عليها أيضاً من النساء. بسبب شغلها لا تستطيع ان تكون معها ليلاً نهاراً، لهذا الأمر فقد جاءت بفاطمة الأرمنية كي تحرسها وتسليها ولكن لا لتجعلها تتعلق بحكايات وهمية فتصر على الاستماع اليها كل ليلة حتى ولو كانت بهيرة في البيت.

هناك أمر مخيف أسكنته فاطمة في قلب وداد دون أن تشعر بأنه من الممنوعات في بيت الخوجة بهيرة. انه الحلم بالرجل، هؤلاء الكائنات المخيفة، أعداء الخوجة الألداء. لقد منعتهم من دخول بيتها منذ وصول وداد خوفاً عليها، وإذ بفاطمة تحضرهم بحكاياتها عن كردو الجبل. أخطأت وداد مرة فذكرته بحب بينما كن جالسات إلى مائدة الغداء. قالت وداد ضاحكة بأنها تتمنى ان تتزوج يوماً من قاطع طريق وتهرب معه الى الجبال. تجمدت الحياة وتوقفت النساء عن تناول الطعام والمضغ. استدارت سعاد وعائشة وفريدة ليعرفن رد فعل بهيرة. كن يعلمن بأنها تنتظر الوقت الملائم لتبدأ بتهيئة الصبية حسب مزاجها ولتجعلها فتاتها. كانت بهيرة تمضغ طعامها بصمت. كانت ترمق فاطمة التي تجمدت من الخوف، فقد كانت تعرف السبب. كانت تعرف انها أوصلت وداد إلى حالة المستحيل بحكاياتها. أوصلتها إلى حالة الحلم بالرجل.. فقد كانت قد سمعت كثيراً عن بهيرة وعن حبها للنساء، وكان حسها كامرأة قد قادها للاعتقاد بان وداد تجهز لأن تصبح عشيقة للأبلاية الكبيرة، ولهذا الأمر فقد طلبت من وداد ألا تأتي على ذكر موضوع حكاياتها إلى أيٍ كان.

انتهين من تناول طعام الغداء وقبل ان تغسل فاطمة الصحون استدعتها إلى غرفتها. أغلقت الباب وراحت تستنطقها:

ـ ماذا فعلت يا فاطمة؟.. أنا لم آت بك إلى هنا لتسيئي إلي. فأجابتها فاطمة بخليط لغتها العجيب:

ـ فعلت..؟ أنت قلت لي .. أخدم وداد.. فاطمة وسلي بنت.

ـ أنا لم أطلب منك أن تحدثيها عن قطاع الطرق.

ـ حكى أنا مرة.. هو حب مرة ثانية.

ـ جعلتها تحب قطاع الطرق.. والأسوأ من ذلك ان تحب الرجال، هذا الشيء الممنوع في بيتي.. لا أريدها أن تثق بالرجال.

ـ هو بنت..

ـ نعم يا فاطمة، وداد بنت (اضافت بعصبية) أنا لم آتِ بك إلى هنا لتفهميني ذلك.. اريد منك أن ترحلي فوراً.

ـ يا ويلي..!!

ـ لم أعد أريد خادمة.. سوف أهتم بوداد بنفسي.

صمتت فاطمة. لقد تعلقت بوداد. جاءت لتخدمها وتسليها فتعلقت بها إلى الحد الذي بامكانها ان ترجو الخوجة وتقبل يديها ورجليها لتبقيها. لأول مرة في حياتها يمكنها ان تتوسل الست لتبقيها.

ـ ماذا حصل لها.. هل عشقتها؟ سألتُ الشيخ فقال:

ـ لا.. فاطمة ليست من هذا النوع. تستطيع ان تقول إنها شعرت وكأنها أصبحت أماً. هل تدري ان فاطمة لم تلد ولداً لبائع الخردة الطيب؟ لم تهتم لذلك حينها لأنها شاهدت بأم عينها كيف يذبح الأطفال ويموتون جوعاً.. يمرضون ويتقيئون ويسحقون تحت الأقدام. شاهدت كيف تموت الأم وهي تبكي على صغيرها الذي ستتركه وحيداً في هذا العالم المجنون. حينها تمنت ألا تلد أبداً وألا

تصبح أماً. لم تعرف ذلك الشعور الخاص بالأمهات تجاه أولادهن وبناتهن. وعندما استخدمتها الخوجة بهيرة للاعتناء بوداد، ومنذ اليوم الأول، تملكتها مشاعر الأمومة. كانت تخدم وداد كما تخدم الأم ابنتها.

ـ هذا شيء طيب.. ووداد، كيف كان شعورها؟ فقال الشيخ:

ـ لقد أحبت الصبية خادمتها لأنها عوضتها أمها المدفونة في ميدان اكبس. كانت تستمع إلى حكاياتها وتشتاق إليها. كانت في كثير من الأوقات تستمع وهي تسند رأسها إلى كتف فاطمة وذهنها سارح في العوالم التي تبنيها في مخيلتها. عوالم الحكايات وكردو والأرمنية. كل قصة من الحكاية وكل جملة كانت تتحول فوراً إلى صور تتتابع في رأسها. في كثير من المرات كانت تغفو وهي تستنشق رائحة خادمتها. بعد مدة أصبحت تلك الرائحة أكثر إلفة فاختلطت الروائح على وداد فلم تعد تفرق بين رائحة أمها بديعة وبين رائحة فاطمة. تطابقت الرائحتان وتحولتا إلى شيء واحد.

سألت الشيخ وأنا أريد أن أعرف ماذا حصل بعد أن طردتها بهيرة:

ـ وهل رحلت فاطمة؟

ـ رحلت..

كانت وداد قابعة في احدى الزوايا تبكي حينما دخلت عليها فاطمة لتودعها. كانت تحمل أغراضها وقد ارتدت ثياب الخروج وربطت رأسها بمنديل. توقفت وداد عن البكاء ثم نهضت واحتضنتها. صارت تبكي على صدرها غير آبهة لدموعها التي تشربها قماش الثوب. ظلتا على هذه الحال مدة ثم همدت وداد. راحت تنتفض فحسب وهي تتأوه. همست في اذن فاطمة التي كانت تربت عليها برفق:

ـ إنني أكره الخوجة بهيرة.

ـ لا تكره خوجة.. هو يعرف مصلحة انتَ.. هو يخاف عليك.

ـ خذيني معك يا فاطمة.

ـ صعب وداد حبيبي.. أنا خدام بيوت.. انت ست ستات.

ـ قولي لي إذن، أين ستذهبين، سوف أحاول جعل الخوجة بهيرة تعيدك إلى هنا؟.

ـ خوجة بهيرة عنيد.. انت ما تحسن عليه.

ـ بل سأحاول .. قولي أرجوكِ.

ـ فاطمة ما يعرف.

ـ عديني أن تتصلي بي وتخبريني عن مكانك حالما تسكنين في أحد البيوت.. أريد أن أعرف ما سيحصل لكِ.

ـ جوك غوزال.

حينها أبعدت وداد رأسها عن فاطمة. أمسكت بها ثم قبلتها وهي تبتسم ولكن أية ابتسامة هذه بين الدموع وبعينين حمراوين وانف رطب؟ كانت لذيذة فابتسمت لها فاطمة أيضاً. وجدت وداد نفسها تعترف لها:

ـ أنت الآن أمي.. دعيني أناديك يا أمي..

أحبت فاطمة ذلك. شعرت بسعادة عوضتها اقتلاعها من البيت. ودعتها ثم خرجت. لحقت بها وداد إلى الحوش. كانت هناك عائشة وفريدة تقفان إلى جانب بركة الماء. كانتا ملتصقتين بينما وقفت سعاد قرب الدهليز. شاهدت ألم وداد التي كانت تلحق بخادمتها وهي تدور حولها بقلق. بعد قليل انصفق الباب. حاولت سعاد لمس وداد لتظهر لها تفهمها وعطفها ولكن الصبية هرعت فوراً إلى غرفتها وأغلقت بابها خلفها. كل ذلك شاهدته الخوجة بهيرة من نافذتها المطلة على الحوش.

كانت قد أحبتها.. عشقتها.. كم هي لذيذة وهي باكية، تعيسة،

محمرة العينين والأنف. كانت قد أطلقت على أمها اسم «سكر نبات». إنها تستأهل الاسم مثل أمها، بل أكثر.

شعرت بالسعادة لأن الله رزقها بوداد. شعرت بالسعادة على الرغم من احساسها بأنها أصبحت تكرهها بعد أن قامت بطرد فاطمة. من أجل ذلك عليها ان تفعل شيئاً، ان تهتم بها حتى ولو كان ذلك على حساب حفلاتها التي تقيمها للناس. لتذهب حفلات النساء إلى الجحيم. إلى الجحيم هن وأعراسهن. سوف تتفرغ لحبيبتها. لقد تعلقت وداد بفاطمة لأنها بحاجة إلى حنان. أحبت قصص قطاع الطرق الأبطال لأنها تريد أن تحب وان تكون محبوبة.

شعرت بهيرة بالغيرة من أبطال فاطمة الخياليين. هي تعرف ان هؤلاء لن يلبثوا ان يتحولوا إلى رجال حقيقيين ولكن بأسماء وهيئات أخرى. تركتها تعيش هنا دون أن تعرض عليها حنانها خوفاً من ان تجفل. تركتها تعتاد جو البيت وطرق عيشه ومن ثم كانت ستعرض عليها رغبتها. كانت تفرح حين كانت وداد تراقب عائشة وفريدة وهما تلتصقان الواحدة بالأخرى، تتبادلان القبلات والملامسات دون حرج. كانت وداد تضحك بسبب رؤيتها لما تفعلان. كانت تتسلى بالنظر اليهما بينما بهيرة تراقبها خلسة لتعرف ردود فعلها.. تراقب تنفسها ولحظات عينيها ورطوبة شفتيها لتتأكد إذا ما كانت قد نضجت أم لا..

لقد جاء حرصها الشديد في التعامل مع كل صبية بعد تلك الحادثة مع صبيحة التي ضمتها إلى فرقتها كمغنية مبتدئة. كانت قد هربت من بيت أهلها لتصبح مغنية وعندما دعتها بهيرة هرعت إليها على الفور. كانت سمراء بشعر أسود كالليل إلا أنها كانت رقيقة التقاطيع لا يوجد فيها شيء خشن (هناك كثير من النساء اللواتي لهن أشكال خشنة وطباع رقيقة مثل الخوجة بهيرة بالذات) دقيقة الفم والأنف والعينين. كانت مرحة تضحك باستمرار حتى وهي تغني. أحبتها بهيرة منذ اللحظة الأولى وزاد عشقها لها مع استمرار تدريبها لها على الغناء. وفي أحد الأيام تحرشت بها بهيرة فمدت

يديها إليها فضمتها ثم راحت تقبلها. كانت المفاجأة عظيمة على صبيحة، فقد انتفضت بقوة ثم خلصت نفسها من حضن خوجتها. شعرت بريبة شديدة واحمر وجهها وارتبكت على الرغم من ضحكها الذي جاءت به لتتوازن وتتماسك. أما بهيرة فقد شعرت منذ تلك اللحظة أنها ليست لها وان صبيحة ستهرب وتعود إلى بيت أهلها، وهذا ما حدث فخسرت حبها مما أثر في حالتها، وكان على صديقاتها وأعضاء فرقتها أن يواسينها طويلاً لكي تنسى المغنية المبتدئة.

كانت بهيرة في تلك اللحظة، تقف خلف نافذتها بشكل موارب كي لا تراها النساء من الحوش. كانت تقف دامعة العينين، فهي تعرف انها قد ظلمت وداد وظلمت فاطمة بسبب عشقها الذي لم تجد، حتى الآن، المناسبة اللازمة لكي تعلنه.

هل هو حرام ان تعشق؟ ان تحب؟ يقولون عنها انها ليست طبيعية، وانها ابنة عشرة وكان عليها ان تتزوج من رجل يسمح لها بالعمل في الافراح كما فعلت الكثيرات من صاحبات المهنة. هذا ليس صحيحاً. انها تكره الرجال.. على كل انسان ان يحب كما يحلو له، والمهم ان يكون المحبوب جميل الروح والطلة والله جميل ويحب الجمال. أما ان يكون المحبوب رجلاً أو امرأة فهذا غير مهم. المهم هو المحبة.

بالنسبة لها فهي لا ترتاح مع الرجال. لا يثيرها الرجل ببشرته الخشنة المشعرة وبشاربيه ونحنحاته وصوته الجهوري. خلقها الله هكذا تحب النساء. تحب البشرة الناعمة والصدور الناضجة. إنها تحب رائحة المرأة وتكره رائحة الرجل. بسبب ذلك أحبت الكثيرات، واحدة منهن كانت بديعة أما الآن فوداد.

من مكانها خلف زجاج نافذتها راقبت عائشة وفريدة. كانتا متعانقتين وهما تخطوان نحو الإيوان بحزن. كانتا قد تأثرتا بانفطار قلب وداد على خادمتها. جلستا هناك على الأريكة. أسندت

عائشة ظهرها إلى المسند واحتفظت برأس فريدة مرتاحاً على صدرها وهي تلاعب شعرها. ظلتا ساكنتين على هذه الحال فملَّت بهيرة الوقوف إلى جانب نافذتها فتركتها واستلقت على السرير. مسحت الدموع التي رطبت وجنتيها النحيلتين ثم تنهدت. إنها عاشقة هذه المرأة التي تشبه الرجال..

تركتها ذلك اليوم حابسة نفسها في غرفتها. لم تكن الليلة ليلة عمل فبقين في البيت. ران صمت ثقيل على الحوش إذا استثنينا وقع أقدامهن وهن يمرقن إلى هنا وهناك، ثم حاولت سعاد الدخول إلى غرفة وداد لإطعامها ولكنها اضطرت لترك الصحون والخروج، فمن الأفضل عدم التحرش بها اليوم. لكنها وجدت طريقة مبتكرة لتغيير الجو ومخاطبة وداد. أمسكت كمنجتها ثم وقفت خارج باب غرفتها وراحت تعزف لها.عزفت لها مقاطعاً طويلة من أغان لمحمد عثمان وداوود حسني ومحمد عبد الوهاب.

استمعت وداد إلى صوت الكمان الشجي. كانت سعاد بارعة في العزف فجعلتها تنسى مؤقتاً كراهيتها لبهيرة. ابتسمت لمقطع مرح، عندها شعرت بالجوع فاقتربت من الصحون التي أتت بها سعاد وراحت تأكل. ظلت سعاد تعزف ساعة كاملة وحين انتهت، دفعت الباب وأطلت إلى الداخل. رأتها جالسة في سريرها وقد أسندت رأسها إلى قبضتها. كانت قد تناولت شيئاً من الصحون فابتسمت لها مشجعة ثم أغلقت الباب من جديد.

في الصباح الباكر، تسللت بهيرة إلى غرفة وداد. كانت نائمة فوقفت بجانب السرير تتمعن جمالها الغافي. كانت قد ثنت ركبتيها ووضعت يدها على المخدة كأنها تنظر اليها. شعرها الأشقر الذي جعدته لها بهيرة تناثر بلا انتظام بينما ارتاحت خصلة صغيرة باستسلام على عنقها الأبيض كالثلج. كم كانت لذيذة وهي نائمة. لو لم تكن خائفة عليها ان تستيقظ مذعورة لمدت يدها وتلمستها.

كان بياض بشرتها أكثر مما توقعت الخوجة المجربة. يبدو ان النائمات يبدون أكثر جمالاً وبياضاً مما نراهن وهن صاحيات. كانت طريقة نومها هي التي جعلت بهيرة تستنتج نظريتها الجديدة فقد كان ثوبها قد ارتفع الى منتصف فخذها بينما لم يكن ملتصقاً على صدرها بسبب ارتخاء ثدييها.

قرفصت الخوجة واستندت بمرفقيها على السرير ثم أراحت رأسها على يديها وجعلت تراقب وداد النائمة بلذة. تمعنت جبهتها ثم انسياب انفها حتى الارنبة لينكسر بعد ذلك باستدارة خفيفة نحو الشفة. الشفتان ممتلئتان ومتجعدتان، ثم يستدير الذقن ويلتف إلى عنقها.

هنا لاحظت سر تشابهها مع أمها بديعة، في طريقة استدارة الذقن وانسياب الأنف، ولكن زاوية العين المغمضة تبدو غريبة علي بهيرة. هل ورثت ذلك عن أبيها اليوزباشي جودت؟ هل كان جميلاً إلى هذا الحد؟ إذا كان ذلك صحيحاً فهذا معناه انها ورثت عنه أيضاً تلك الحركات الموزونة والهادئة التي تأخذ العقل، تلك الحركات التي لا تسمى ولا توصف، والتي قالت عنها راحيل إنها رقص بديع.

تحركت وداد لتزيل الخدر عن يدها المركونة أمامها على المخدة ففتحت عينيها. شاهدت وجه بهيرة يطل عليها قريباً منها وهي مقرفصة بجانب السرير.كانت في الحالة المتأرجحة بين النوم والصحو. ارتجفت من الخوف وقد توسعت عيناها. لاحظت بهيرة رعبها فابتسمت لها ومدت يدها تلمس وجهها عند الخد والعنق. ارتاحت وداد فقد عرفت انها بهيرة فأغمضت عينيها دون أن تعود للنوم. قالت بهيرة بصوت خافت ورقيق:

ـ صباح الخير.. دخلت لأطمئن عليك. أعرف أنك تكرهينني ولكنني فعلت ذلك لأنني لا أريد أن أخسرك مثلما خسرت أمك قبلك. كنت أحبها ولكن رجلاً جاء وخطفها مني. جعلها تعيش كالفلاحات في احدى القرى على الحدود. لقد أرسلتك إلي بنفسها لتطمئن عليكِ

قبل أن تموت. رحمة الله عليها فقد عرفت كم أخطأت وهي لا تريدك أن تصدقي الرجال والعسكر وقطاع الطرق. أنا أحبك ولا أريد ان أخسرك. أنت تكرهينني الآن ولكنك ستفهمين فيما بعد لماذا فعلت ذلك.. السبب هو حرصي عليكِ.

كانت وداد تنظر مباشرة في عيني بهيرة وهي تستمع إلى ما تقول. لم تكن تحب كلامها ولم تكن تكرهه. كانت تستمع فحسب. تابعت بهيرة:

ـ لن اتركِكِ بعد الآن أمانة عند أحد. سوف ترافقينني إلى حيث أذهب.. إلى الأفراح والأعراس التي نقيمها. انت حبيبتي وسوف تظلين إلى جانبي.

راحت تمسح بيدها على شعرها ثم أذنها نزولاً إلى عنقها، ولكن حنق وداد ظل يفرض نفسه رغم رقة بهيرة التي تبديها لها. قالت وداد معاتبة:

ـ كنت قد بدأت أشعر بميل كبير نحو فاطمة. كانت تحبني مثل أمي فناديتها ماما.

صمتت بهيرة لهذا الوصف وشعرت برجفة. تابعت وداد:

ـ أنا لن أهرب مع قاطع طريق كما هربت أمي مع اليوزباشي جودت.

ـ لا أريدك أن تحبي الرجال.

ـ لماذا؟ كان هناك، في ميدان اكبس الكثير من الرجال. لم أحب سوى عبدو السنكة، ولكنني لم أفكر بالهرب معه. انه مسكين..

ـ لا تثقي بالرجال، إنهم أنانيون. نحن النسوان نفهم بعضنا بعضا أكثر وبشكل أفضل. أنا لا أريدك أن تصبحي خادمة لرجل في بيته إذا ما خرجت من بيتي ولحقت به.

ـ بالعكس، أحب ان أبقى، فأنا أحبك وأحب سعاد وعائشة وفريدة.

ـ إذن فأنت لا تكرهينني..

ـ أنا لا أكرهك وأريدك أن لا تكرهي فاطمة.. أعيديها وسوف أتوقف عن طلب الحكايات.

ـ انسيها .. سوف أكون مثل أمك أنا أيضاً.

عبست وداد. انها تريد فاطمة وإن عادت فإنها ستحب بهيرة. استدارت وجعلت بهيرة خلف ظهرها. زفرت الخوجة. إنها لا تريد فاطمة لأنها تحاول صنع مخيلة لوداد تجعلها تسرح بعيداً عنها. انها تريدها ملكاً لها بشكل كامل. تريدها كائناً لم يدنسه الرجال حتى ولو في المخيلة.

لمست فخذها برفق تطلب منها ان تستدير ولكن الفتاة لم تتحرك. سوف تصبر عليها بهيرة كما يصبر حبيب على حبيبته. ظلتا على هذا المنوال.. وداد تعطيها ظهرها ومؤخرتها وبهيرة مقرفصة بجانب السرير ويدها ممدودة تتحسس فخذها ثم تصعد بها إلى وركها.لاحظت بهيرة بأنها لا تمانع ولا تزيح لها يدها. إنها تتقبل ملامساتها ويبدو انها تعودت على هذه الأشياء لكثرة مشاهدتها عائشة وفريدة وهما تتلامسان. نهضت وجلست على السرير فالتصقت بها واستندت بكوعها على المخدة بحيث يدغدغ شعر وداد يدها. أصبحت الآن تتلمس ذراع الفتاة ثم كتفها نزولاً حتى عنقها. كم هو ممتع دلال وداد وملمس بشرتها. كان رأس بهيرة فوق رأسها مباشرة فلاحظت انها مفتوحة العينين تنظر بثبات إلى حشرة نائمة على الجدار. تابعت تحادثها:

ـ هل تعلمين ما هو الحب؟ أصبحت بسن يسمح لك ان تعرفي شيئاً عن الحب. انه مثل ان تتعلقي بشخص ولا تستطيعين الابتعاد عنه. انه مثل ان تحب الفتاة أمها ولا يشبه ذلك أيضاً. عائشة وفريدة تحبان بعضهما بعضا. لقد وهبنا الله هذا الامتياز بان يحب الانسان انساناً آخر.. انه النقيض للكراهية. ان تحب امرأة هذا معناه انها تتفانى فيمن تحب. بلا سبب وبلا هدف أو مصلحة. الرجال يحبون المرأة لأنهم أنانيون، أما المرأة فهي تحب لتعطي.. الرجل يأخذ

ويرهن مستقبل المرأة له فقط. انه يجعلها تحبل لتلد له الأطفال، يجعلها تخدمه في البيت، فتطبخ له وتكنس وتسهر على راحته. أما راحتها هي فلا قيمة لها. عندما تحب المرأة امرأة أخرى فالهدف هو الحب، وفقط الحب.. بلا أطفال والاثنتان تتعاونان وتخدمان بعضهما بعضا. إنه الحب الصافي.. حبنا يشبه حب المتصوفة.

كانت وداد تستمع اليها جيداً، فلم تعد تنظر إلى الحشرة فحسب. كانت دقات قلبها تنتقل إلى جسد بهيرة بفعل تماسهما. قررت بهيرة ان تعترف لها. لقد آن الأوان. اقتربت أكثر وهمست:

ـ ذات مشاعر الحب الصافي بدأت أشعر بها نحوك. أنا أحبك.. طردت فاطمة لأنني خفت أن تحبي رجلاً ولا تحبيني.. خفت أن تكرهيني بسبب ذلك، ولكن أعذريني، فالتي تحب تصبح مقاتلة دفاعاً عن حبها. تتصرف في بعض الأحيان بدناءة.

صمتت الخوجة بهيرة. كانت وداد تنتظرها لتكمل، فقد أحبت ما قالته، وعندما طال سكوتها استدارت لتواجهها. كان وجهها يبعد عن وجه بهيرة بمقدار شعرة فتلقت كل واحدة أنفاس الأخرى. كانت تبحث في عيني الخوجة عن تلك الكلمات التي انتظرتها لتقولها فوجدتها تنظر في عينيها نظرة غريبة على وداد. كانت بهيرة ضعيفة، متوسلة وصادقة. كان هناك شيء آخر عرفته صدفة في عيون عائشة وفريدة ولم تعرف كيف تسميه. شيء يذبل العينين ويجعل النفس حاراً والشفاه رطبة ومنفرجة.

أغمضت بهيرة عينيها ثم أنزلت شفتيها مقدار الشعرة فأطبقت على شفتي وداد.

3

كيف خطط اسماعيل خادم الشيخ لقتلي أو على الأقل لدفعي إلى الهرب

لم يكن الوقت قد تأخر كثيراً تلك الليلة مع ذلك فقد لاحظت أن الشيخ قد أصابه الإرهاق بفعل استمراره في الكلام لساعات عديدة. وكان اسماعيل قد غاب عنا، (ربما كان قد آوى إلى فراشه أو جالساً في زاوية من زوايا البيت يخطط لفعل شيء غير ودي). خطر في بالي أن أطلب من الشيخ القيام بمساعدته في الوصول إلى غرفته في الطابق العلوي حتى يتسنى لي مشاهدة الصور المعلقة على جدرانها لعلي أرى صور أبطال القصة التي استمعت إليها خلال اليومين الماضيين. كنت متأكداً من أن الشيخ الجليل يحكي لي حكاية كان هو أحد أبطالها، أو على الأقل ان أبطالها كانوا جزءاً من عالمه.

كان قد توقف مطولاً بعد أن قال جملته المشوقة عن قبلة بهيرة لوداد فوجدت انه من المناسب ان أنهض وأنظر من النافذة إلى الخارج المعتم الذي تغسله مياه الأمطار، فقد أصبح صوت الهطول أكثر قوة بعد ان صمت الشيخ. وقفت هناك وقمت بمسح الغبش عن الزجاج بمنديلي ثم ألصقت وجهي بعد ان أحطت عيني بيديّ الاثنتين كي أرى الظلام في الخارج. كانت الرؤية صعبة فلم يكن هناك

بصيص من نور سوى نور النافذة الذي يسقط على الأرض بموشور يتسع ثم يتلاشى. كان المطر قد صنع سيلاً سطحياً قرب النافذة مليئاً بالفقاعات وكأنه ماء يغلي في قدر. توقعت ان يخرج علي وجه اسماعيل من الظلام فتملكني خوف جعلني أبتعد على الفور عن النافذة.

عدت إلى الشيخ الذي سكَن وكأنه قد نام وعرضت عليه ان أساعده في الوصول إلى غرفته. قال لي وهو يرفع وجهه كمن يستيقظ للتو:

ـ لا تعذب نفسك، انني متعب فعلاً ولكنني سأنتظر اسماعيل.

ـ لا داعي لذلك فقد يكون قد آوى إلى فراشه. دعني أساعدك فأنا أود أن ألقي نظرة على الصور في غرفتك إن كنت لا تمانع..

عندها مد يده نحوي كي أتمكن من مساعدته على النهوض واعتلاء الدرج المرمري السهل، فعرفت انه يرحب بتفحصي للصور.

ـ هل أحببتها؟ سألني بصوت أظنه كان خافتاً أكثر من اللازم (تأكدت من أنه لا يريد ان يسمعه اسماعيل وهو يسألني عن رأيي في الصور). كان في فراشه الذي قمت بمساعدته في الوصول اليه ثم قمت بتغطيته جيداً فلم تكن ترى منه سوى العينين. كان يتابعني وأنا أتوقف مطولاً عند كل إطار.

هل علي ان أصف جميع الصور التي تحتويها غرفته؟ هذا شيء مستحيل، فقد كانت أكثر من مئة صورة موضوعة في مئة إطار. وكما قلت سابقاً فقد كان الشيخ موجوداً في الكثير منها (أكثر من خمسين صورة) كان معظمها بالابيض والاسود وعدد منها قد أصفر بسبب مرور الزمن، وهناك عدة صور لحقها التلف بسبب طريقة حفظها غير السليمة قبل ان يتم وضعها في اطار.

كانت الصور تختصر جزءاً من حياة الشيخ، فقد كانت له عدة صور وهو فتى ثم وهو في سن المراهقة فالشباب، عندها تتوقف مراحل حياة الشيخ فلم أجد له صورة وهو في سن الرجولة أو في

مرحلة الشيخوخة، فإذا كان الآن في الثمانين من عمره (أعتقد ان الرقم قريب من الحقيقة بسبب ضعفه الظاهر وارتجاف يديه بفعل مرض الباركنسون وشدة تجعد وجهه ويديه) فهناك إذن فترة تزيد على الخمسين سنة مفقودة في الصور. خطر ببالي ان أسأله عن السر فاستدرت لأجده نائماً. تركته وعدت لتفحص الصور وبكثير من التدقيق هذه المرة فأنا أقوم بذلك دون رقيب، وفجأة لفت انتباهي اطار لصورة مختبئة إلى جانب خزانة إضافية للملابس. كانت بالأحرى عدة صور مصفوفة بشكل عمود واحد في حيز ضيق محصور بين الخزانة ونافذة دائمة الإغلاق تطل على الحديقة الجانبية للفيلا. كان عمود الاطارات مختبئاً خلف طرف الستارة التي جمعت وشكلت على خطاف. كانت الصورة التي لفتت انتباهي قد نسخت عن جريدة قديمة لحفل استقبال الوفد العائد من باريس عام 1936 في محطة الشام بحلب وقد أخذت امام عربة القطار المزينة ويظهر فيها أعضاء الوفد يتوسطهم المفوض السامي الفرنسي آنذاك المسيو دو مارتيل والى جانبيه كل من هاشم الاتاسي وسعد الله الجابري وفارس الخوري ومصطفى الشهابي وإدمون حمصي وجميل مردم بيك بينما ظهرت خلفهم فتاة ريفية جميلة كانت واقفة على سلم عربة القطار وهي تحمل حقيبة سفر وتنظر باستغراب إلى الكاميرا.

هذه هي إذن وداد. أقعيت ورحت اتمعن أكثر في الصورة. شعرت بالسعادة لهذا الاكتشاف، فقد تأكدت بان الحكايات التي كنت أسمعها من الشيخ هي في الواقع قصة حقيقية عن امرأة كان الشيخ قد عرفها في شبابه. حاولت ان أرسم في ذهني تفاصيل وداد ولكنني وجدت صعوبة كبيرة في ذلك لأن النسخة المصورة عن صفحة الجريدة تظهر اطاراً عاماً للفتاة بينما نقاط بيض وسود ترسم تقاطيع الوجه التي لا يمكن ان تكون واضحة خصوصاً وانها كانت تقف خلف المفوض وأعضاء الوفد الذين كانوا موضوع الصورة.

ولكن قد يسألني سائل، كيف عرفت انها جميلة من صورة غير واضحة؟ ليس لدي جواب على هذا التساؤل فقد أكون قد رسمت لها في ذهني، من حكاية الشيخ، صورة جميلة فتطابق ما شاهدته على ما رسمته. هذا شيء مسموح به لأن الشيخ كان يصف جمالها بطريقة بسيطة وهو الذي عرفها على ما يبدو. رحت أبحث في الاطارات الأخرى (فوق وتحت صورة الوفد) عن صورة أخرى لوداد ولكنني لم أفلح في ذلك لأن الصور الأخرى كانت لأشخاص آخرين ميزت بينهم الشيخ في شبابه مع امرأة بدينة تصغره كثيراً في السن.

تركت عمود الاطارات المتوضع بين خزانة الثياب والنافذة المغلقة ورحت أبحث في تلك المعلقة على الجانب الآخر من النافذة حيث المكان أكثر وضوحاً واتساعاً. تبين لي من فحصي لحوالي عشرة اطارات ان تلك المرأة البدينة تتكرر مراراً، وانها كانت تقف وحيدة أو إلى جانب الشيخ (الذي كان شاباً) فيبدوان وكأنهما متزوجان، وتبين لي أخيراً ان بعض الصور قد أخذت في باريس وخاصة امام برج إيفل.

كنت أريد أن أجد اطارات أخرى تحوي صوراً أكثر وضوحاً لوداد أو ربما للخوجة بهيرة ولكن شيئاً أرعبني وجعلني أتوقف عن البحث. كان اسماعيل يقف هناك إلى جانب الباب وهو ينظر الي بغضب. كان مكفهراً ومقطباً وصامتاً. حاولت ان احتمي بالجدار ولو كان هناك منفذ لهربت، ولكن لا سبيل إلى ذلك. كان الشيخ نائماً يطلق شخيراً ناعماً بينما كنت أسمع صوت ضربات قلبي السريعة. قال بصوت خافت ومن بين أسنانه:

ـ ماذا تفعل هنا؟ ليس لك شأن بهذه الغرفة..

ـ كان الشيخ متعباً فحسبناك نائماً. عرضت عليه ان أساعده في الوصول إلى هنا فرحب بالفكرة. جعلته يستلقي ثم غطيته جيداً كما ترى.

ـ انت تتطفل على خصوصيات الآخرين.

ـ تقصد انني كنت أتفرج على الصور؟

ـ نعم.

ـ لقد أذن لي الشيخ.

ـ لم يسبق للشيخ ان دعا غريباً إلى غرفته.. انت تستغل طيبته. إنني أحذرك، لقد سئمت منك.

ـ لكنني لم أفعل شيئاً، كل ما هنالك انني ساعدت الشيخ فوجدت الصور.

ـ كان علي أن أمنعك من دخول الفيلا تلك الليلة.. كان بوسعي.

ـ ولماذا سمحت لي؟

ـ كنت أحسب انك ستغادر في الصباح. أنت جعلت الشيخ يحكي لك حكايات ليس لها أساس من الصحة. أنت تتعبه بهذه الحكايات، التكلم يتعبه كثيراً. عليك ان تغادر في الصباح.

ـ في الصباح؟

ـ وقبل ان يستيقظ الشيخ، إنني انذرك، من الأفضل لك ان ترحل.

شاهدت اصراره على ان أرحل. كان اسماعيل مخيفاً وهو ينظر الي بطريقته العدائية تلك. وفي الحقيقة فقد خفت من طريقته في توجيه انذار إلى ضيف هو الآن تحت رحمته. تمنيت لو يستيقظ الشيخ لأنه الشخص الوحيد الذي بامكانه مساعدتي في تلك اللحظة. حاولت استمالة اسماعيل:

ـ كيف ستقنع الشيخ بغيابي إذا ما رحلت فجأة دون أن أودعه؟

ـ لن يتذكرك الشيخ نافع (اسمه نافع اذن، فقد عرفت شيئاً جديداً) سوف أترك لك مظلة وبوصلة وسكيناً.

ـ كيف يحدث ان يتذكر الشيخ نافع كل تفاصيل قصته بينما تقول انه سوف ينساني؟

ـ انه يختلق كل هذه القصص من الخيال، ثم إنني لا أريدك ان تستمع إلى أية قصة.

نسيت خوفي واقتربت من طرف الستارة ثم أزحتها وأشرت إلى صورة المفوض السامي وأعضاء الوفد وأشرت إلى صورة وداد.

ـ ومن تكون هذه؟ لقد قال لي شيئاً عنها ينطبق على الصورة.

لم أعرف انني سوف أغضبه أكثر حين كشفت له عما أعرف. كنت أحسب انني أجادله فحسب. كانت عيناه تشبهان عيني قاتل فجعلتاني أخاف أكثر ولكنني وجدت نفسي أسأله:

ـ لماذا لا تريدني ان استمع إلى الحكايات أو ان أعرف شياً عن ماضي شخصياتها؟

ولكنه لم يجبني بل طلب مني بكل حزم ان أذهب إلى غرفتي. قال أخرج من هنا ثم تنحى جانباً ليفسح لي مروراً آمناً حتى الباب فخرجت من الغرفة دون أن أنظر في عينيه وأسرعت إلى غرفتي. دخلتها ثم أطبقت الباب وأدرت القفل ثم استندت اليه وانا ألهث.

استلقيت في فراشي وتدثرت جيداً فقد كانت الغرفة باردة، وكان رذاذ المطر ينقر زجاج النافذة مما جعلني أكثر شعوراً بالبرد. فكرت طويلاً بما جرى لي فقد جافاني النوم وكان علي ان أجد المبررات لأرفض إنذار اسماعيل وتهديداته، ولكن أكثر الأمور مدعاة للتفكير كان اصراره على ان كل ما يقوله لي الشيخ عبارة عن تهيؤات أو حكايات مختلقة مثل تلك الحكايات التي كانت تحكيها فاطمة الأرمنية لوداد. لم يقنعني كلام اسماعيل ولكن بقي ان أجد الشجاعة لأبقى في البيت حتى يتسنى لي الاستماع إلى حكايات الشيخ. لم تعد الحكايات مجرد حكايات، أصبحت تاريخاً لشخص أعيش معه ولغزاً لآخر يمنعني من معرفة القصة وابطالها.

لم أكن أتوقع ان أجد صورة وداد التي التقطها مصور مجهول في محطة القطارات. ولكن، لماذا كانت هذه الصورة الوحيدة لوداد؟ ثم من تكون المرأة البدينة، فالشيخ لم يأت على ذكرها حتى الآن؟ وبما أنني أرجح أنها كانت زوجته، وقد يكونا قد سافرا إلى فرنسا لقضاء شهر العسل، فهل عرف وداد قبل زواجه أم بعده؟ هل كانت

عشيقته؟ فأنا أرجح أنها كانت مجرد عشيقة لأنه أخفى النسخة المصورة عن الجريدة في مكان غير مكشوف لئلا يراها فوراً كل من يدخل إلى غرفته. ولكن، ماذا يمكن أن يفعل لي اسماعيل إذا ما رفضت الرحيل وبقيت في البيت محتمياً بالشيخ إذا كان باستطاعته ان يحميني؟

نهضت من جديد وتأكدت من اغلاق الباب. ان مجرد التفكير بان اسماعيل كان ليلة امس في غرفتي يصيبني برعب حقيقي. فهل هناك مدخل سري إلى الغرفة؟ مستحيل، فهناك باب مقفل ونافذة محكمة الإغلاق وخزانة ومرآة ملتصقة بالجدار وعمود لتعليق الثياب ولوحة فوق السرير لمجموعة من بيوت الشعر وفي الخلفية يُرى جبل «بشري» بالاضافة إلى طاولتين على جانبي السرير وضع على احداها مصباح ليلي. هذا كل ما في الغرفة أما ماخلا ذلك فهو جدران عارية مكسوة بدهان بدون لمعة.

فكرت بزوجتي نادية وبابني حسان، ثم فكرت بزميلي الاستاذ تميم وبسائق اللاندروفر وتمنيت من الله ان يكونا بسلام في هذه اللحظة. ولكن ماذا لو انهما أخبرا زوجتي ومديري بأنني قد فقدت في البرية؟ سوف يحسب الجميع بان الكلاب المتوحشة والضباع قد أكلتني. وفجأة ارتعدت من الخوف، ماذا لو فكر اسماعيل ان يستفيد من هذا الاحتمال فيقتلني ثم يرمي جثتي بعيداً عن الفيلا لأصبح طعاماً لتلك الكائنات المتوحشة؟ لقد رأيت في عينيه أكثر من مرة (وخاصة في غرفة الشيخ) ما يدل على أن بإمكانه أن يلجأ إلى مثل هذا الحل ليتخلص مني. تركت السرير ورحت أقطع الغرفة رواحاً ومجيئاً. كنت أفكر في طريقة أستطيع فيها البقاء في الفيلا دون ان يرتكب اسماعيل حماقة بحقي.

فكرت في البداية انه ربما من الأفضل ان أتكلم مع الشيخ نافع، ولكنني سرعان ما شلت الفكرة من رأسي، فماذا يمكن أن يفعله الشيخ بخادمه؟ فاسماعيل يبدو في الخمسينات من عمره وهو مازال يحتفظ ببنية قوية بالاضافة إلى تأثير روحي وذهني على سيده

الشيخ بسبب الخدمة الطويلة أولاً وبسبب انقطاعهما عن العالم وسكنهما معاً في مكان مقطوع من البرية ثانياً. فكرت أيضاً باستمالة اسماعيل نحوي فهناك احتمال ان نصبح أصدقاء، ولكن الفكرة بدت ضعيفة وغير مقنعة لأنه لم يسمح لي حتى الآن بالمبادرة ويبدو انه كان يمنع الشيخ من التكلم مع الغرباء ومن سرد حكاياته وسيرته ولهذا السبب فقد أقنعه على ما يبدو في السكن في هذا المكان كي يعزله عن الناس. أما لماذا لا يريد اسماعيل انتشار قصة الشيخ فهذا موضوع علي ان أهتم بالتفكير به وربما حلت حكاية الشيخ هذا اللغز.

تعبت من الدوران في الغرفة (وربما دخت) فعدت إلى السرير وقد قررت ان أنام والصباح رباح. وبينما كنت أغالب النوم على أنغام حبات المطر التي تقرع كل سطح يصادفها سمعت وكأن هناك من يحاول فتح باب غرفتي فوجدت نفسي جالساً في السرير وقد تحولتُ إلى صنم جامد لا شيء يعمل فيه سوى حاسة السمع. ساعدني نور الكون الداخل من النافذة من رؤية مَسْكة الباب وهي تنزل بهدوء ثم يدفع الباب الذي لن ينفتح بسبب إقفالي له بواسطة المزلاج . نهضت من السرير وسرت نحو الباب على رؤوس أصابعي كي لا أحدث صوتاً ثم وقفت هناك محاولاً أن التقط أي صوت يدل على الفاعل الذي كنت متأكداً مئة بالمئة انه اسماعيل (هذه الشجاعة جاءتني بسبب قناعتي ان المزلاج قد حماني من ذلك العابث المجرم) وكنت أحسب ان الرجل سوف يرحل بعد أن تأكد من صعوبة الدخول ولكن الأمر سار على عكس ما كنت أحسب، فقد شاهدت كيف ان المزلاج راح ينسحب من تلقاء نفسه وكأن له مسكة أخرى في الطرف الآخر من الباب فلم أعِ نفسي (من حلاوة الروح) إلا وأنا أهجم على الباب فأمسكت بالقفلَ (انت تحسب أخي القارئ انني رحت أمنع بثقلي امكانية فتح الباب، ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل) ثم فتحت الباب بحركة مباغتة وسريعة فاصبحت وجهاً لوجه مع شخص ملثم يمسك بإحدى يديه قطعة خشبية غليظة. ويبدو ان

الشخص قد تفاجأ بحركتي وربما خاف مثلي فاستدار على الفور وراح يركض دون ان أسمع وقعاً لأقدامه فوجدت نفسي ألحق به على طول الممر ثم نزولاً على السلم المؤدي إلى الطابق الأرضي. توقفت في منتصف السلم ألهث وأنا أتابع الشخص الذي استطاع الاختفاء في احد الممرات ثم سمعت صوتاً خفيفاً لانصفاق باب ثم ساد صمت كان يمكن أن يكون مخيفاً ولكنه كان مريحاً بسبب ما جرى. جلست على درج السلم أهدئ قلبي والتقط أنفاسي وبعد أن هدأت قمت وسرت نحو غرفتي لاكتشف ان الشخص قد نسي الجهاز الذي كان يحاول بواسطته سحب المزلاج. كان عبارة عن أداة يستخدمها عمال القطارات لفتح الكابينات والخزائن وهي عبارة عن مسكة معدنية في مقدمتها تجويف رباعي. سحبت الأداة وعاينت المكان الذي كانت عالقة فيه فاستغربت انني لم ألحظ المكعب المعدني رغم شكي ان شخصاً قد دخل الى غرفتي أثناء نومي.

دخلت غرفتي ثم أعدت إقفال الباب، وللحيطة وضعت الكرسي الوحيد امام الباب ليحدث صوتاً في حال أعاد الشخص المحاولة للدخول ثم استلقيت في فراشي وانا أشعر بأنني انتصرت هذه المرة على اسماعيل، وهكذا نمت حتى الصباح دون منغصات.

قلت «الشخص» لأنني لم أكن متأكداً من ان اسماعيل هو الرجل الملثم الذي حاول دخول غرفتي لقتلي. كان علي أن أكون أكثر دقة لأن الأمر يتعلق بحياتي الشخصية وهذا ليس لعب أطفال، ومن أجل إنقاذ حياتي كان علي أن أكون دقيقاً. لقد بدا لي الرجل أكثر شباباً من اسماعيل (الذي أقدر أنه في الستين من عمره) وربما كانت قامته أقصر من قامة اسماعيل أو هكذا هيأ لي بسبب الظلام، ومهما كان الأمر محيراً بالنسبة إلى الشخص فقد كان محيراً لي أكثر بالنسبة إلى تمكني من مواجهته وأنا المعروف عني جبني وخوفي الشديدين في مثل هذه الظروف. لقد حدث الأمر وكأنني كنت أشاهد فيلماً بوليسياً أعرف سلفاً ان البطل سينتصر في النهاية.

اسيقظت في اليوم التالي متأخراً. ظللت لدقيقتين مستلقياً

مفتوح العينين ثم خطر في بالي ان أتفقد الخارج فقد كنت أحسب ان الشمس تشرق وكان ذلك الاحساس بسبب حالتي المعنوية العالية، ولكن للأسف فقد كان المطر مستمراً في الهطول بقوة فجعل الدنيا في الخارج تغرق وتغرق. في الحقيقة، إنني لا أتذكر هطولاً كهذا طوال خدمتي في الأرياف.. أليس غريباً أن يحصل ذلك الآن؟ هل هو مصادفة أم أنني مدفوع للاستماع إلى حكايات الشيخ، حيث ان المطر يعطيني حجة للبقاء في الفيلا؟ حمدت الله وانا ابتسم. دخلت الحمام وقمت بجميع الأمور الصباحية ثم حلقت ذقني وشرعت في ارتداء ثيابي.

عندما نزلت إلى الطابق السفلي ذهبت مباشرة إلى الممر الذي يؤدي إلى باب الفيلا. أردت ان أتأكد من جدية كلام اسماعيل ليلة أمس حول انذاره لي بالرحيل، وبالفعل فقد شاهدت سكين مطبخ ومظلة وبوصلة عسكرية مركونة على الكونصول. اذن الرجل مصمم على طردي. تفحصت البوصلة فوجدتها روسية الصنع ومن النوع الجيد، أما السكين فقد كان يثير الضحك ولكنه حاد ويستخدم في تقطيع اللحوم.

دلفت إلى الصالون الدافئ فوجدت الشيخ نافع جالساً إلى جانب المدفأة ينظر إلى المطر في الخارج عبر النافذة. صبحت عليه ثم احتللت مقعدي. سألني إن كنت قد أفطرت فقلت له إنني استيقظت للتو وليست لي أية نية للإفطار ولكنه لم يستمع إلي بل مد يده إلى زر جرس كهربائي رأيته لأول مرة لأنه لم يضطر الى استخدامه في وجودي من قبل. ما هي إلا ثوانٍ حتى دخل اسماعيل. قال له وهو يشير إلي:

ـ يا اسماعيل، من فضلك قدم إلى ضيفنا شيئاً يفطر به.

عندها نظر إلي اسماعيل. كان بالأحرى يسدد نحوي عينين محذرتين ومتوعدتين. كان قاسياً وغامضاً يحاول ان يتجاهل أحداث الليلة الماضية ولكنه يتوعدني بالأسوأ إن أنا لم أستجب إلى طلبه بالرحيل. قال للشيخ دون أن يرفع عينيه عني:

- فهمت ان ضيفنا يريد الرحيل، فقد هدأ المطر..

استغرب الشيخ ما قاله خادمه فاستدار إلي وهو يتساءل:

- هل تريد الرحيل فعلاً؟

- فكرت بالذهاب.. قلت إذا توقف المطر أو خف هطوله فإنني أفضل المغادرة للبحث عن سيارة اللاندروفر أو للوصول إلى حلب، فقد تأخرت في العودة وربما هم الآن يبحثون عني في كل مكان.

- ولكن المطر يهطل بغزارةـ قال الشيخـ سوف تبقى.

نظرت إلى اسماعيل وكأنني أقول له: ما باليد حيلة. قال اسماعيل:

- سوف أقوم بمرافقته حتى طريق الاسفلت.

- سوف يبقى الضيف.

- ولكن يا شيخي.. إنهم الآن يبحثون عنه.

- سوف تذهب أنت إلى أقرب قرية فيها هاتف لتطمئن أهله.

كدت أضحك على منظر الخادم من قرار سيده البات. صمت اسماعيل باحثاً عن كلمات يخرج بها من ورطته، فهو لم يخطر في باله ان يتمسك بي الشيخ حتى ولو اضطر إلى ارساله ليتصل هاتفياً بأهلي. استدار نحوي وقال:

- هل يمكن ان تتركنا لوحدنا دقيقة.. اريد أن أتحدث مع الشيخ في أمر خاص؟

نظرت إلى الشيخ لأسمع قراره ولكنه كان مطرقاً وربما كان ينتظر مني الخروج فعلاً، حينها نهضت :

- لا بأس. قلت وانا أخرج من الصالون إلى الممر.

انتظرت في الممر مدة ربع ساعة. حاولت أن استمع إلى حديثهما ولكن الأصوات كانت تصل إلي دون أن أفهم منها شيئاً. لاحظت ان صوت اسماعيل أكثر قوة بينما صوت الشيخ أكثر ضعفاً

ويظهر وكأن للخادم سلطة على سيده لا يريدها ان تظهر أمامي. بعد ذلك خرج اسماعيل وهو يكظم غضباً قوياً، حتى إنه صفق الباب بشيء من جلافة ووقف هناك أمامي مانعاً إياي من العودة إلى الشيخ.

ـ الشيخ يريدك ان تبقى.

ـ إذن سأبقى.

ـ اسمع، أنا لا أريدك ان تستمع إلى حكاياته. انت رجل متطفل ووقح، جعلت الشيخ يثق بك. اجعله يتكلم عن أمور أخرى.

ـ وماذا بها هذه الحكايات لكي تثيرك بهذا الشكل؟ إنها قصة عادية..

ـ هذا ليس شأنك، لا أريدك ان تعرف بعض الأمور..

ـ هل الأمر يتعلق بوداد أم بالخوجة بهيرة؟

أطبق على حنجرتي بحركة مفاجئة ثم راح يعصرها حتى شعرت بالاختناق. قرب وجهه من وجهي وقال وهو ينثر بصاقه في فمي:

ـ سوف أقطع لك لسانك.. عليك ان تنسى ما قاله لك. هل فهمت.. عليك ان تنسى؟

تركني قبل أن أختنق. رحت استنشق الهواء بصعوبة، وبينما كنت مشغولاً بتنفسي أمسك بشعري وجذب وجهي إلى الأعلى بطريقة مؤلمة ليكمل تهديده:

ـ سوف أدعو الله ليتوقف المطر، حينها عليك المغادرة وإلا ذبحتك بالسكين التي تركتها لك على الكونصول. سوف أغيب لمدة ساعتين وسوف أعود لأقول بأن هاتف أهلك لا يجيب، في هذه الأثناء عليك أنت ان تحادث الشيخ.. إياك أن تتركه يسرد عليك تخريفاته.

تركني بطريقة غير عادية، فقد جذب رأسي إلى طرف ثم أفلته فكدت أقع وابتعد. أقعيت بجانب باب الصالون ألتقط أنفاسي ولأكسب وقتاً أعيد إلى وجهي لونه العادي.

سألت الشيخ:

ـ هناك شيء استغربه من خادمك اسماعيل أيها الشيخ نافع، يبدو انه ليس سعيداً باستماعي إلى حكاية وداد.

ـ اسماعيل ليس له علاقة بما أحدث ضيوفي.

ـ هذا صحيح ولكنه يفضل ان تبقى هذه الحكاية حبيسة في ذاكرتك، حتى إنني لاحظت انك أيها الشيخ تصمت حينما يدخل علينا ونحن نتكلم، حتى إنه أصبح يتمنى ان أرحل.

ـ دعنا منه ولنعد إلى وداد، اين وصلنا؟

ـ عندي سؤال من فضلك قبل ان نتابع القصة، من هو اسماعيل، هل هو مجرد خادم أم..؟

ـ إنه ليس خادماً.

ـ هل له علاقة ما بالقصة؟ يبدو لي ان له علاقة..

ـ أنت تستبق الأمور، دعني أكمل لك الحكاية وستعرف الجواب بنفسك.

قلت له برجاء ان يتركني أطرح عليه بعض الأسئلة قبل أن يعود اسماعيل من حيث ذهب ليتصل بأهلي فالأمر يهمني كثيراً لتكتمل الصورة التي أرسمها في ذهني لشخصيات القصة، فقال:

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

ـ لقد وجدت ليلة أمس في غرفة نومك صورة وداد في محطة القطارات بحلب.

ـ نعم، إنني احتفظ بها. انها فوتو كوبي لصفحة الجريدة التي نشرت الصورة حينها.

ـ أين وجدت الجريدة.

ـ بحثت عنها كثيراً حتى وجدتها فاشتريتها، ثم انها موجودة في محفوظات دار الكتب الوطنية في حلب.

ـ هل تذكر اسم الجريدة؟

ـ أظنها كانت جريدة «الشباب» الحلبية التي أصدرها المرحوم محمد طلس.

سجلت اسم الجريدة على ورقة بدأت احتفظ بها في جيبي لتسجيل بعض الملاحظات التي أخاف ان أنساها ثم أخفيتها من جديد (أنا احتفظ في العادة بدفتر ملاحظات في جيبي بشكل دائم لتسجيل أرقام سريعة وملاحظات عابرة حول محاصيل الفلاحين ومقادير القروض ولكنني فقدت الدفتر أثناء سيري تحت المطر ثم لما قادتني الكلاب البرية إلى الفيلا). تابع الشيخ يقول:

ـ اضطررت لتصفح معظم مجلدات الجرائد والمجلات التي تحتوي على أعداد أيلول وتشرين من عام 1936.

ـ وهل عدد جريدة «الشباب» مازال موجوداً حتى الآن؟

ـ لا أعرف، كان ذلك قبل ثلاثين عاماً.. لماذا تسأل، هل تريد ان تحصل على نسخة؟

ـ أريد فعلاً، ان صورة الفوتو كوبي التي وجدتها خلف ستارة غرفتك لا تعطي وصفاً قريباً لوداد. أعتقد إن أنا تفحصت الجريدة بنفسي فربما أحصل على رؤية أفضل. والآن.. هل لديك صورة للخوجة بهيرة؟

ـ لا.. ولكن هناك من قال لي بان أحد المصورين كان يحتفظ في محله بصورة ثنائية مكبرة ومؤطرة لوداد والخوجة بهيرة. كانت صورة جميلة لهذا فقد كان يحتفظ بها معلقة في دكانه كدعاية لنفسه.

ـ ما اسم المصور؟

ـ أعتقد انه «استوديو دنيا» في باب النصر.

أخرجت الورقة من جديد وقمت بتسجيل اسم الاستوديو. قال:

ـ لن تستفيد شيئاً من الاسم، فقد ذهبت إلى هناك ولكن متأخراً، فقد كان المصور قد مات وقامت زوجته بتصفية الاستوديو.. قالوا لي ان شخصاً كان مغترباً في البرازيل قد اشترى الأجهزة والصور، بحثت عنه مطولاً ولكنني كنت قد أصبحت عجوزاً فتعبت سريعاً من البحث.

ـ سؤال أخير.. هل حكيت القصة إلى أحد ما قبلي؟

ـ لم أجد جدوى من سردها إلا بعد ان انتقلت إلى هنا مع اسماعيل، ولكن أين هو الشخص المتعلم الذي تنقطع به السبل فيلتجئ الينا فيتاح لي الوقت لأحكي له الحكاية.. أحمد الله أنها ما تزال تمطر منذ ثلاثة أيام، وأتمنى ان المطر سيدوم حتى أنتهي من سرد قصتي لك، واذا استغرقت في طرح الأسئلة فلن ننتهي.

ـ هذا يعني انني الوحيد الذي يعلم بها؟

ـ اسماعيل يعرفها أيضاً ولكنه يكرهها.. يطلب مني باستمرار أن أنساها. حتى انه يحاول اقناعي بأنني أتوهم أحداثها وانني اخترعتها بسبب العزلة التي نعيشها وبسبب خرف لحق بعقلي نتيجة اصابتي بمرض الباركنسون.

ـ هذا مفهوم..

ـ كما أن هناك ذلك الشخص..

ـ أي شخص؟

ـ طبيب يهوى صيد القطا، كان في رحلة صيد فضاع في البرية. وصل وهو على آخر رمق من العطش فقد كان الطقس حاراً. كنا على ما أعتقد في تموز. كان ذلك قبل ثلاث سنوات. استضفته

ورحت أحكي له الحكاية بينما كنا نجلس في الفرندة. كنا نسهر حتى الفجر الذي يأتي باكراً أيام الصيف.

ـ وبعد ذلك؟

ـ استيقظت في أحد الأيام، جلست انتظره، وبعد ان طال انتظاري سألت عنه اسماعيل فقال لي ان الدكتور قد رحل في الصباح الباكر.. رحل دون أن يودعني فحزنت لذلك.

ارتجفت، فقد عاد إلي الرعب من اسماعيل. خمنت طريقة رحيل الدكتور، فإما أن يكون قد قتل وإما أن يكون قد أرغمه على الرحيل. سألت الشيخ على الفور:

ـ كم يوماً بقي هنا؟

ـ ثلاثة أيام.

ـ هل سمع منك بقدر ما سمعت أنا أم أكثر أم أقل؟

ـ أعتقد بقدر متساوٍ.. لم أعد أذكر.

ـ هل تذكر اسم ذلك الطبيب؟

ـ نعم، فمازلت حتى الآن أردد اسمه حين أعاتبه في ذهني.. كان اسمه الدكتور وليد فارس.

نهضت بسبب ارتباكي والتجأت إلى النافذة انظر إلى الدنيا الغارقة تحت المطر. فكرت.. هناك احتمال كبير في ان يكون قد قتل. السبب في اعتقادي هذا هو انني لو كنت أجبرت على الرحيل لكنت اختلقت أي عذر لأعود لاستمع إلى تتمة الحكاية. لن يمنعني شيء عن هذا إلا الموت.. وانا أعتقد بان الدكتور وليد فارس قد حصل له ما حصل لي، وحصل له ما سيحصل لي. لو كان حياً لعاد، هذا إذا كان فعلاً قد انفك من أسر الحكاية ورحل عن طيب خاطر. فكرت أيضاً.. هذه الحكاية تقودني إلى الموت.

فجأة شاهدت اسماعيل، يقف تحت وابل المطر بدون حراك على

بعد مئة متر من سياج الحديقة. كان وجهه باتجاهي وربما كان ينظر إلي عبر خيوط المطر. تنحنح الشيخ فقررت ان أنسى كل ما يمكن ان يحصل وعدت إليه. جلست في مقعدي وطلبت منه بكل أدب أن يتابع الحكاية. لا يمكنني هنا أن أصف مقدار الارتياح الذي شعر به بسبب طلبي ذاك.

4

«صباح الخير ياعود الحور واقف

داب اللحم يا يوم وتم العضم واقف

لأجل عيونو السود لأتم انا واقف

عبد مرهون لحين الطلب»

«عتابا غنتها الخوجة بهيرة

لوداد في حفلة الحمام»

قالت الخوجة بهيرة لوداد التي كانت مستسلمة ليدي سعاد حين كانت تجري اللمسات الأخيرة على زينتها:

ـ هيا، لقد تأخرنا.. تجاوزت الساعة الثانية عشرة .. فردت عليها وداد وهي تنظر إلى نفسها بإعجاب في المرآة:

ـ حاضر يا أبلتي.. لقد انتهينا.

خرجت بهيرة إلى الحوش وراحت تعطي أوامرها إلى عائشة وفريدة لكي لا تنسيا شيئاً من الواجب عدم نسيانه. كانت المرأتان تكومان البقج والحقائب المنتفخة بأشيائهن. قرفصت سعاد امام وداد. كانت ساحرة، امرأة ليست ككل النساء، ثم قبلتها من خدها:

ـ بعد قليل ستصبحين مشهورة يا وداد.. سيتعرف الجميع على أجمل امرأة في حلب.. بعد قليل ستتنهد النساء لسحرك وستتناقل الألسن اسمك.

ابتسمت وداد وهي تتفحص نفسها للمرة المئة. لقد علمتها النساء الأربع معنى ان تكون جميلة ولماذا هي جميلة بهذا القدر. كان خد سعاد مازال ملتصقاً بخدها. وجهان ملتصقان منطبعان على صفحة المرآة.

ـ وانت أيضاً جميلة. قالت وداد لسعاد وهي تحاول ان تجاملها، فقالت سعاد:

ـ أنا..؟ أنا دميمة مقارنة بك، وهذا لا يزعجني على الاطلاق.. إن كل آهة تنطلق من فم امرأة حين تراكِ ستكون موجهة إلينا جميعاً.

سمعتا صوت بهيرة من الحوش تستعجلهما. قبلتها وداد هذه المرة ثم نهضتا. وبعد قليل كانت العربة تسوق النساء الخمس إلى حمام «بلابان».

كانت الخوجة بهيرة قد قررت ان الوقت قد حان لتخرج وداد من العزلة التي فرضتها هي عليها. قررت ان تقدم وداد إلى نساء المجتمع في حلب بعد ان تقبلت حبها ورحبت به، فلم يعد هناك خوف من ان تسرقها إحداهن. كان خوف بهيرة ان تجفل وداد وتخاف منها وربما تهرب من البيت إن هي اعترفت لها بحبها، ولكن وداد تقبلت كل ذلك بقلب مفتوح، وعندما قبلتها بهيرة قبلتها الأولى تجاوبت معها.

قضت بهيرة ذلك النهار كله في غرفة وداد. احتضنتا طوال النهار على السرير. بكيتا أيضاً وامتزجت دموعهما فهناك دائماً ما يبكي عند النساء، وبعد ان تقبلت وداد مداعبات خوجتها صار الافتراق عنها صعباً. لم تكن بهيرة تشبع من ملامسة حبيبتها وتقبيلها، حتى ان سعاد اضطرت إلى تقديم طعام الغداء والعشاء للمرأتين في غرفة وداد على صينية. كانت أيضاً مناسبة لتقوم بهيرة باطعام وداد بيديها. وعندما خرجت سعاد من عندهما أخبرت عائشة وفريدة بان الأمور على أحسن ما يرام فعم الفرح في بيت

الفرافرة ثم رحن يعزفن الموسيقى المرحة أسفل نوافذ الغرفة المطلة على الحوش، كما رقصت عائشة وهي تضرب على الايقاع، وفي المساء قادت بهيرة حبيبتها إلى غرفتها فأصبحت تنام عندها وفي سريرها فاستعادت سعاد غرفتها.

في البداية كانت وداد تخجل حين تقوم بهيرة بمداعبتها وتقبيلها امام الأخريات. ولكن العشق لا يدوم مع الحياء، فهن يعشن في بيت واحد ويدخلن باستمرار إلى غرف نوم بعضهن البعض لذلك فيجب ان تتقبل كل واحدة منهن حالات العشق التي تحدث امام عينيها. ليس هناك شيء طبيعي أكثر من رؤية بعضهن في أوضاع الحب والملامسة والتقبيل. كانت في البداية تخجل حين تدخل سعاد إلى غرفة نومهما لأمر ما أو لإحضار صينية الطعام، أو للتكلم مع الخوجة بهيرة. كانت تخجل من رؤية سعاد لهما وهما في السرير شبه عاريتين أو لنقل، بالحد الأدنى من الثياب. لم تكن بهيرة تحب افتراق جسدها عن جسد وداد الخارق لذلك لم تكن ترى ضرورة في الانفصال عنها حين تدخل سعاد أو عائشة أو فريدة. وهذا أيضاً ما كان يحدث امام عينيها حين تدخل إلى غرفة عازفتي القانون والايقاع لايقاظهما أو لمجرد التريض في البيت وللتسلية. كانت تراهما متلاحمتين في فراشهما سواء كانتا نائمتين أم مستيقظتين.

كان عليها أيضاً ان تجلس دائماً إلى جانب بهيرة حين يجتمعن في الحوش أو في احدى الغرف. ان تجلس إلى جانبها يعني أيضاً ان تلتصق بها كما كانت تفعل عائشة وفريدة أمامها مباشرة. أما سعاد فقد كان عليها ان تتحرك وتقوم على خدمتهن لأنها غير مرتبطة ولا تلتصق بأحد.

بعد عدة أيام أصبح الأمر طبيعياً لوداد وأصبحت ترى متعة فيما تفعلانه هي وبهيرة، حتى انها راحت تجد بهيرة أكثر جمالاً وقبولاً، وأصبحت تشعر بغصة إن أهملتها أبلايتها للحظة بسبب استغراقها في حديث أو انشغالها في أمر ما. ومع مرور الأيام أصبحت وداد لا تشعرْ بأي حرج حين تدخلان معاً إلى الحمام أو

حين تخرجان منه، فقد أصبحت بهيرة أبلايتها (وهذا كما قلنا من أكثر الأمور طبيعية في بيت الفرافرة).

أصبحت وداد جاهزة لتقدم إلى نساء حلب. لقد أصبحت تعي قيمة نفسها ومقدار جمالها ورقتها. أكثر من ذلك تعلمت كيف تبرز كل هذه الأمور بطبيعية دون زيادة أو نقصان. صارت تعرف كيف تتكلم وتضحك وتلم شعرها المنفلت وكيف تسير بالكعب العالي دون أن تقع وكيف تلمس وجهها دون أن تنزع غواها. هنا في مجتمع حلب سوف تلتقي بنساء أنيقات ومترفات وغاويات طرب وعشق من الطبقة العليا. بنات باشوات وبيكوات وآغاوات وأفندية. زوجات تجار وأصحاب ورش صناعية وملاك أراض وموظفين من الدرجة الممتازة. وقد تلتقي بزوجات المحافظ ورئيس البلدية ورئيس غرفة الصناعة أو التجارة أو المستشارين الحكوميين والقضاة ورؤساء المحاكم. من أجل ذلك كله حرصت الخوجة بهيرة ألا تخرج وداد إلى الناس إلا وهي على أكمل وجه. أرادت بذلك ان تفجر قنبلتها في وجوههن جميعاً وتقدم لهن أبلايتها الجديدة.

كانت بهيرة قد حجزت حمام «بلابان» لهذه الغاية وأرسلت الدعوات إلى كل النسوة المهتمات، خاصة إلى كل امرأة من صاحبات المزاج. أما سعاد فقد اهتمت بمكياج وداد بينما كانت هناك من اهتمت بالاطعمة والحلويات التي ستقدم في الحمام. ويبدو ان خبر وداد كان قد انتقل قبل ذلك بين النساء ولاكت الألسن حكاية فتاة خطيرة الجمال اتخذتها الخوجة عشيقة جديدة لها. كان الفضول على أشده حين وصلت الدعوات لرؤية وداد، وفي الموعد المحدد بدأت السيارات والعربات الخاصة والعامة تصل إلى الحمام حاملة النسوة حتى غصت بها الطرقات الواصلة إلى باب الحديد أو إلى مبنى السراي قرب القلعة فاضطرت الكثيرات للسير على الأقدام لمسافات طويلة. كان من بين المدعوات بعض الخوجات ولا أريد لأحد ان يستغرب اذا علم ان الخوجة سماح، منافسة بهيرة في الطرب وفي العشق، كانت من بين المدعوات، فقد أرادت بهيرة ان

تحضر لتُنذَر بأن وداد لبهيرة ولا داع لتعب القلب للحصول عليها أو لخطفها منها.

ـ إذن هذا هو السبب الذي دفع الخوجة بهيرة إلى اقامة الاستقبال. سألتُ الشيخ فأجاب:

ـ بالضبط، الهدف هو اقامة حفل استقبال تدعى اليه كل الصديقات والصاحبات وكن في غالبيتهن من بنات العشرة وذلك لتقديم الأبلاية الجديدة غير المعروفة في الوسط كما هو الحال بالنسبة لوداد. وتقديم الأبلاية الجديدة وتعريف الوسط عليها يشبه اعلان الخطوبة بين رجل وامرأة.

ـ وهل الحاضرات كن بالضرورة من نفس الهوى؟

ـ على الأغلب، كانت هناك الكثيرات ممن يخالطن بنات العشرة ولكنهن لسن منهن، كن يجدن في ذلك متعة رغم عدم امتلاكهن لزْديقة.

ـ زْديقة يعني صديقة أليس كذلك؟

ـ نعم، وبالنسبة للدعوة فإنها توجه إلى الأبلاية وزديقتها. فانت تراهن جالسات اثنتين اثنتين.

ـ ولماذا في الحمام؟ لماذا لم تدعوهن إلى بيتها؟

ـ جرت العادة ان تجري هذه الحفلات في حمام السوق. ففي مثل هذه الأمكنة تجري الأمور بشكل طبيعي وبدون مضايقات الأطفال أو الأزواج الذين لم يكن الكثير منهم يعرف ان زوجته ذاهبة إلى الحمام لهدف آخر غير الاستحمام. وهناك سبب آخر ومهم بالنسبة لبنات العشرة، ففي الحمام من الطبيعي ان تتجرد المرأة من بعض ثيابها أو منها كلها وتلف نفسها بمئزر وهذا شيء مستحب لهن لأن ذلك يسهل عليهن القيام بالمداعبة والملامسة. قلت للشيخ بلهفة:

ـ أكمل من فضلك.

عندما وصلت عربة الخوجة بهيرة وصاحباتها إلى طرف سراي الحكومة كان الطريق من هناك حتى حمام بلابان قد أخلي من العربات والسيارات فاستطاعت عربتهن الاقتراب حتى باب الحمام. وما إن توقفت حتى هرعت كل من سعاد وعائشة وفريدة إلى الداخل يحملن البقج وآلاتهن الموسيقية بينما ظلت بهيرة ووداد في العربة في انتظار الاشارة لتتبعانهن.

كانت صالة الحمام (البراني) ممتلئة بالنسوة، جالسات اثنتين اثنتين على المقاعد التي اصطفت على المصاطب أو على أرضياتها التي غطيت بالبشاكير وقد خففن من ثيابهن أو تعرين ولففن أجسادهن بالمآزر. كانت هناك نساء ذات أسماء رفيعة لها طنين ورنين خاصين:

فضيلة خانم زوجة نعمان بيك الذي ورث عن أبيه ستة آلاف هكتار وقصراً واسعاً (قناق) في القرية حيث كان يقضي معظم أوقاته على الرغم من كراهية فضيلة للقرية وغرامها الخاص بالحياة في حلب وبزديقتها وهيبة خانم، الست كريمة زوجة نقيب المحامين الذي يحلم بالوصول إلى المجلس النيابي، الست فدوى زوجة الاستاذ ناظم الأديب والشاعر وأستاذ الأدب العربي في مدارس حلب، أم سعد الدين، زوجة رئيس مجلس الادارة لشركة غزل القطن والنسيج بحلب، زوجة قائمقام قضاء منبج، الست عديلة زوجة المترجم الخاص للمفوض السامي الفرنسي الكونت داميان دو مارتيل وأبلايتها فريزة التي طلقت زوجها وهي تعيش في بيت اشترته لها أبلايتها، سعدية زوجة رئيس تحرير مجلة «صوت الشمال»، أم عمر زوجة الرئيس الفخري لنادي سورية الاجتماعي الذي يتفاخر بعلاقات زوجته بزوجة الوالي، سمية زوجة الوالي، أمينة خانم زوجة رئيس جمعية أندية الأدب في حلب والخطيب المفوّه ضد الفرنسيين ومعهم على السواء (حسب الظروف) وحبيبتها ابنة معاون رئيس الجمارك النحيلة جداً، أم أسعد وأبلايتها دلال، منيرة خانم زوجة صاحب شركة «فينيقيا» لأشغال

الزجاج المشهورة بجمالها وبأخلاقها النسّة، الست يسرى زوجة صاحب «مصنع روائح سارة لعموم أنواع الكولونيا وكريمات الوجه وبرلنتين الشعر»، زوجة صاحب «الفابركة الوطنية للقمصان والكلسات» وعشيقتها افتكار زوجة صاحب اوتيل «امبريال صوفر» وغيرهن من زوجات رجال المجتمع بالاضافة إلى الخوجة سماح وأبلايتها الجديدة راحيل اليهودية.

كن موحدات لا تفرق بينهن الثياب. فرحات، يثرثرن ويضحكن ويغنين ويميل بعضهن على بعض ويلتصق بعضهن ببعض. كل واحدة تدلل صاحبتها وتؤكد على محبتها لها. أما عندما فتحت الحارسة الباب وظهرت سعاد ورفيقتاها فقد ضج الحمام بالزغاريد وأصبح الأمر أكثر إثارة. احتلت النسوة الثلاث مكانهن المخصص إلى جانب رفيقتهن بهية عازفة العود البدينة، التي كانت قد سبقتهن وبدأن بعزف مقطوعة على الموضة لعلي الدرويش، فتوقعت النساء انه قد حان موعد دخول الخوجة بهيرة مصطحبة معها اكتشافها الجديد فسددت الأعين إلى جهة الباب.. ولم تمض دقائق حتى انفتح لتدلف الخوجة بهيرة وهي تمسك بيد وداد.

حدث الأمر بطريقة أقرب إلى السحر منه إلى الواقع. توقف اللغو فجأة وتوقفت الموسيقيات عن العزف، ولم يسمع أي تعليق بل تابعت العيون المرأتين وهما تتجهان نحو المكان المخصص لهما وكان بالمناسبة مزيناً بالورود ومفروشاً بالأطلس. لم يخطر ببال احداهن ان تزغرد بل تجمدن لا يأتين بحركة. كل ما هنالك ان العيون كانت معلقة بوجه وداد زائد الحلاوة والذي ينقط طفولة وبراءة، حتى ان «ام سعد» وكانت بالمناسبة زوجة أكبر تجار سوق الزرب، قد انفلتت عقدة مئزرها بينما كانت يدها تحيط بخصر أبلايتها «دلال» وكاد ان يسقط إلى الأرض كاشفاً عريها الكامل (فقد كانت فضلت، هي وزديقتها دلال، ان تخلع كامل ثيابها وتلف جسدها بمئزر كي لا تفوت عليها فرصة التمتع بالملامسة في هذه المناسبة) ولكن أبلايتها شعرت به ينحسر عن نهديها الممتلئين

فامسكت به وأعادت تثبيته حول جسدها دون ان تشعر بكل ذلك زوجة تاجر سوق الزرب.

شعرت الخوجة بهيرة بنشوة المنتصرات، فقد شاهدت الدهشة في عيون كل النساء المدعوات. كان الصمت أكبر تعبير عن نجاحها، أما وداد فقد كانت تراقب بخجل، فلأول مرة تعرض جمالها امام كل هذه العيون الخبيرة في الجمال الأنثوي. بنات العشرة اللواتي يعشقن جمال المرأة أكثر من الرجال ويحتفلن بالمرأة الجميلة ويشتهينها. تلقت قوة معنوية من عيني سعاد ومن ابتسامتها فنسيت حرجها، وعندما جلستا في المكان المخصص لهما (كعروس وعريس) رفعت الخوجة بهيرة يدها تشير إلى سعاد لكي تصدح الموسيقى، عندها عادت النساء إلى رشدهن وعدن إلى الثرثرة.

عزفت الموسيقى من جديد فلقي ذلك حماساً كبيراً لدى النساء فرحن يزغردن عند كل مناسبة، ثم نهضت راحيل واقتربت من بهيرة ووداد فقبلتهما وباركت لهما ثم وقفت في منتصف الصالة وراحت ترقص. كانت تريد اظهار صداقتها لأبلايتها القديمة رغم كل ما حدث وأيضاً لوداد الوديعة التي لاذنب لها إن هي أخذت مكانها في سرير بهيرة. رقصت راحيل بفرح. كانت بهيرة تتابع رقصها بصمت بينما كانت يدها في يد وداد.

كانت راحيل بعد خروجها من بيت بهيرة قد انضمت إلى فرقة الخوجة سماح. أصبحت ترقص في الحفلات التي تتعهدها خوجتها الجديدة. وعندما صارت حرة دعتها سماح للعيش في بيتها الذي يقع في حي الجميلية بجانب محطة القطارات. من أجلها تركت سماح أبلايتها التي رحلت فور مجيء راحيل فاحتلت هذه مكانها في غرفة نوم الخوجة الجميلة. لم يكن أحد يحزن على هجران النساء بعضهن لبعض. ان ما كان يجري شبيه بحركة انزياح خفيفة. كل واحدة تأخذ مكان الأخرى في حياة الأبلايات وفي غرف نومهن وأسرتهن. لم يكن الأمر يتسبب إلا في شيء من الغيرة المؤقتة وبعد ذلك ما تلبث ان تزول لتنغمس الحبيبة المهجورة في عشق جديد. وعندما صارت

راحيل أبلاية سماح حكت لها عن وداد وعن جمالها. للغرابة لم تكن راحيل تكره وداد، بل كانت تتحدث عنها وعن جمالها بكل حب. وبما ان سماح كانت تعتبر منافسة قوية لبهيرة فقد راحت تسألها عن كل صغيرة وكبيرة تخص وداد. من كانت تشبه، وكيف تبدو، وما هو لون شعرها وانساني عينيها، وكيف تسير، وما هي مواهبها..؟ إلى آخر ما هنالك.. لقد تملك عليها فضولها حتى انها حلمت مرة بفتاة تشبه وداد. كل ذلك حصل دون ان تشعر راحيل بالغيرة. وعندما وصلت الدعوة إلى الحمام من الخوجة بهيرة فرحت سماح لأن الفرصة سوف تسنح لها لمقابلة وداد. من أجل الدقة أقول بان راحيل شعرت بشيء بسيط من غيرة عابرة عندما شاهدت سماح تتفحص بعينيها الخبيرتين وداد حين دخلت بصحبة بهيرة. ثم ان العديدات رحن يلقين على راحيل نظرات متسائلة عن حالها لأنهن كن يعلمن ان وداد قد أخذت مكانها عند بهيرة، من أجل ذلك، كما قلت، نهضت وهنأت المرأتين ثم راحت ترقص لهما.

في مثل هذا الجو، وبعد الاستقرار الذي تم إثر عملية الانزياح (ازاحة عدة فتيات بعضهن لبعض على شكل سلسة)، كان على الخوجة سماح ان تتصرف بفروسية هي أيضاً، فقد كسبت راحيل رغم شعورها بالغيرة لأن غريمتها تمتلك أبلاية أجمل منها. نهضت من مكانها وأعادت لف المئزر على جسدها الأنثوي الجميل (كانت متكئة في مكانها وقد أرخت مئزرها كاشفة عن ثدييها وفخذيها ناصعي البياض تتفرج مرة إلى وداد ومرة إلى راحيل التي كانت ترقص على نحو غريب). التقطت صرة كانت قد أتت بها معها وسارت نحو تخت غريمتها. حركة سماح أثارت جميع النساء، فقد كانت قصصها مع بهيرة معروفة للجميع. صعدت المصطبة واقتربت من بهيرة، قبلت وجنتيها ثم احتضنتها بتودد زائد ثم سددت نحو وداد نظرة قوية وقالت لها:

ـ أنا الخوجة سماح، ربما سمعت عني وربما لم تسمعي بعد، ولكنك ستسمعين الكثير ابتداءً من اليوم. هاتي أقبلك.

قبلتها ثم احتضنتها وحاولت شد جسد وداد أكثر إلى جسدها ثم قبلتها في عنقها وابتعدت عنها. كل ذلك جرى تحت سمع وبصر الخوجة بهيرة وكل الموجودات. احمر وجه وداد ونظرت إلى بهيرة التي غمزتها ان كل شيء على ما يرام. فضت سماح صرتها الصغيرة وأخرجت عقداً من الذهب المطعم بالزمرد ثم رفعته كي يراه الجميع. تحولت بعدئذ إلى خلف وداد وألبستها العقد. قالت لهما مبروك لكما ثم نزلت المصطبة عائدة الى مكانها.

كانت راحيل قد شاهدت حركة سماح التي تجاوزت بها حدودها مع وداد، فمن المفترض انهن يحتفلن بوداد وبهيرة وهذا اعلان صريح عن العلاقة بحيث يحظر على الأخريات ابتداءً من الآن اقامة علاقة مع أي من الأبلايتين. كانت النسوة يثرثرن بصوت مسموع ومتداخل عما شاهدنه حين مرت سماح قرب راحيل. الآن توجه انتباههن نحوهما ليشاهدا رد فعل راحيل، فغيرة بنات العشرة قاتلة. قطعت راحيل الدرب على أبلايتها وهي ترقص رقصها الغريب ثم راحت تتلوى أمامها. كان جسدها يلتوي كالحية بينما يداها تسبحان كأنهما اخطبوط. أصبحت تقرب طرفها العلوي منها كأنها تهاجمها، كأنها تريد ان تلسعها. كانت سماح واقفة وقد أسندت يديها على خصرها. كانت تشعر بغيرة راحيل وتتلذذ بها. طال بهما الأمر على هذا المنوال. وماذا حصل؟ كل النساء كن في انتظار ما يمكن ان تفعله سماح بأبلايتها. أمسكت بها ثم شدتها نحوها وأطبقت على شفتيها بقبلة طويلة جعلت حركات رقصها الغريب تهدأ ثم تهمد. زغردت النساء طويلاً يرحبن بما تفعله سماح التي ما لبثت ان انفكت عن راحيل ثم قادتها إلى مصطبتهما.

بعد ذلك حمي الجو. كانت الفرقة تعزف لحناً راقصاً للسيد درويش فانفصلت الكثيرات كل عن صاحبتها وراحت ترقص إلى جانبها، فقد شحنت سماح وراحيل الشهوة في نفوس النساء ولم يعدن يراقبن ما يجري بل راحت كل واحدة تهتم بصاحبتها إما بالرقص لها أو بمداعبتها وتقبيلها. وقد لاحظت بهيرة بان

المدعوات قد ابتعد اهتمامهن عنها وعن وداد وأصبحت هناك أكثر من راقصة فأعطت اشارة إلى سعاد لتتوقف عن العزف للحظات مما جعل النساء يوقفن ما كن يفعلنه. همست بهيرة في اذن وداد فنهضت ونزلت إلى الصالة. عادت الفرقة لعزف أغنية «مين عذبك بتتخلص مني/ وذنبي إيه بتعذب فيّ» لمحمد عبد الوهاب، فقد كانت وداد قد اعتادت عليها في بيت بهيرة فجعلت ترقص على أنغامها. شرعت تتحرك فحسب بطريقة لا تسمى رقصاً ولكنها حركات وخطوات تفرح القلب لما فيها من رقة وعذوبة. تجمدت النساء من جديد ورحن يتابعن كل حركة تأتي بها وكل التفاتة من عينيها. انها ملاك خجول ورقيقة كنسمة. كان صدى الموسيقى يغطي على آهات النساء التي كانت تنفلت رغماً عنهن.

استمرت حفلة الحمام حتى المساء. غنت بهيرة لوداد بعض العتابا، ثم غنت سماح أغنية فاجرة قال الشيخ انه نسي كلماتها. أكلن وشربن، غنين ورقصن وزغردن ثم رحن يتسابقن في تقديم الهدايا إلى وداد، أصبحت في يوم واحد تمتلك من عقود الذهب والخواتم والليرات العثمانية والفرنسية ما يجعلها في مصاف الثريات.

سمعنا تكة الباب الخارجي وهو ينطبق فصمت الشيخ. لقد عاد اسماعيل من رحلته المزعومة لمخابرة أهلي بواسطة الهاتف. لقد صمت الشيخ لأنه يعلم تماماً بأن اسماعيل يعارض نشر القصة، أي ان الشيخ يتواطأ معي ليشبع رغبتي بسماعها. لم أقل له ما جرى معي في الليلة الماضية وكيف ان اسماعيل هددني وطلب مني الرحيل. لم أرد ان تسوء العلاقة في الفيلا إذ ان الحل سيكون على حسابي حتماً.

سمعنا صوت خطوات ناعمة ثم انفتح باب الصالون ودخل اسماعيل. كان مبللاً من رأسه حتى قدميه. لقد رأيته يقف تحت المطر ليقنع الشيخ بأنه ذهب فعلاً إلى احدى القرى ليتصل بأهلي وكنت

أعرف النتيجة سلفاً. تملاني اسماعيل باحتقار. وبما أنه كان يصنع رومة ماء على الأرضية فقد وقف بعيداً عن السجادة لكي لا تتبلل. رفع الشيخ عينيه ليعرف النتيجة. قال اسماعيل بصوت كريه:

ـ هاتف أهله لا يجيب. تعذبت على الفاضي. سأله الشيخ وقد نظر الي ثم نظر اليه:

ـ كيف لا يجيب؟ كان عليك ان تحاول أكثر من مرة.

ـ حاولت عشرين مرة، يبدو ان الأمطار قد عطلت الخطوط.

حجة مقنعة. هز الشيخ رأسه ثم سألني:

ـ كان عليك ان تعطيه عنوان بيتك كي يرسل برقية مهتوفة.

ـ فعلاً يا شيخي، لم يخطر ببالي. نظرت إلى اسماعيل فرأيته يسدد نحوي عينيه غير المريحتين، فجأة قررت ان أطمئنه:

ـ سوف أذهب غداً مع الأخ اسماعيل لنقوم باللازم. لم تعجبه الفكرة، فقد كان يعلم انني كنت أستمع إلى قصة الشيخ وانني لن أكف عن ذلك مادمت موجوداً في الفيلا. رمقني بنظرة احتقار أخرى ثم قال وهو يهم بالخروج:

ـ سوف أحضر طعام الغداء.

خرج اسماعيل فقال الشيخ:

ـ اسماعيل طيب القلب، لا تهتم ان ظهر وكأنه يكرهك. انه يكره الغرباء. لا أعلم كيف حصل له هذا ولكنني أؤكد لك انه غير مؤذٍ.

ـ انه يعلم انك تسرد علي القصة وهذا ما يستفزه.

ـ سوف نتكلم بصوت خافت ريثما تجهز المائدة.

أصبحت الخوجة بهيرة تتلقى الطلبات الكثيرة لإحياء الأعراس والحفلات الخاصة. كل نساء المدينة سمعن بها بعد حفلة الحمام، وكل واحدة أرادت ان تراها. لقد آمنت النساء بان وداد هي الآن ملك الخوجة بهيرة بعد ان تم اعلان أبلايتها لها ولكن هذا لا يمنع من ان

يشاهدنها ويتملين جمالها ورقتها وعذوبتها. لهذا السبب رحن يتسابقن في دعوتهما إلى البيوت سواء لشرب القهوة أو لإحياء حفلة أو للمشاركة في جلسات بنات العشرة التي كان يجري فيها ما كان يجري في حمام بلابان ذلك اليوم.

كانت بهيرة تؤجل موافقتها على زيارة البيوت الخاصة. لا أحد عرف السبب. أنا أخمن بأنها لم ترد في البداية ان تتعرف وداد على بيوت صديقاتها. أرادت ان تعرف بيتاً واحداً في المدينة.. بيتها في حي الفرافرة. كانت قد ضمتها إلى فرقتها كراقصة وأصبحت تصحبها معها إلى الأعراس. هناك كانت بهيرة تغني بينما ترقص وداد. كانت نساء المدينة قد اعتدن على ان الراقصة ترتدي بذلة خاصة للرقص، اما وداد فكانت ترتدي فستاناً طويلاً حتى كاحليها. كان في معظم الأحيان من قماش الصاية الحريري الأبيض. تموج الصاية على قدها الممشوق كان يطير لب النساء. ثم انهن كن يشاهدن مثل هذا الرقص لأول مرة. في الحقيقة لم يكن أحد يهتم للرقص أو لمبادئه حين ترقص وداد. كانت تسحرهن بقوة غريبة غير معهودة. قوة هي في الحقيقة ضعف ورقة وعذوبة. بحركات ليست أكثر من جسد ينثني ويتحرك باتزان حسب الايقاع وقد لمست صدغها باصابعها بينما أمسكت عكس يدها باليد الأخرى. ومن أجل تأثير أكبر على النساء صارت بهيرة تطلب من وداد النزول عن المسرح والاقتراب منهن. بهذه الطريقة أصبحت النساء يشعرن بعذوبة نفس وداد وبرقتها الفائقة. أصبحن يشاهدن ابتسامة الخجل واحمرار الوجه.

حين يأتي العريس كان على الراقصة ان ترقص وتسير امامه وتوصله حتى التخت الذي تجلس عليه عروسه التي غالباً ما تنهض وتأتي إليه. وجدت وداد صعوبة كبيرة في ذلك. انها لم تعتد الرقص أمام الرجال بينما ابتداءً من الآن كان عليها ان تشارك أيضاً بالزفة حين يحين الوقت ليأخذ فيه العريس العروس ويرحل. ومن حفلة العرس الأولى في «قهوة البرتقال» حُسم الأمر. فقد كانت النساء

يعشن تحت سيطرة سحر وداد حتى انهن كن ينسين ان يزغردن. كل شيء كان على أحسن ما يرام فأحبت وداد ذلك فاندمجت في رقصها. اقتربت مرة من خوجتها وهمست لها انها تحب الأعراس وتحب ان ترقص فيها. وفجأة تعالت الأصوات تبشر بمجيء العريس فحدث ارتباك كبير في الصالة فقد شرعت معظم النساء (ماعدا أم العريس وأخواته) في التحجب وحصلت فوضى بسبب ذلك فتوقفت وداد عن الرقص وقعدت تراقب ذلك فهي تشاهد لأول مرة عرساً حلبياً. جاءت أم العريس وطلبت من بهيرة ان ترقص وداد امام ابنها حين يدخل ولكن وداد رفضت ذلك بسبب خجلها ولكنها ما لبثت ان نهضت بسبب الالحاح. وقفت امام باب الصالة تنتظر بينما كانت الزغاريد تصم الآذان. دخل العريس (وكان بالمناسبة صبياً في الثامنة عشرة له شاربان رفيعان). دخل مختالاً تفوح منه رائحة العرق، فقد كان أصحابه قد أسكروه. شرعت وداد تتحرك امامه لتوصله إلى العروس، التي رفضت قريباتها ان تنزل لاستقبال عريسها، فزلت قدم وداد بسبب خجلها وعدم تعودها فكادت تقع فأمسك بها العريس يسندها. وبما أنه كان يترنح من السكر فقد سقط معها وكان على النساء رفعه ورفع وداد التي ركضت هاربة وهي تجهش بالبكاء فلحقها وحاول الامساك بها من جديد (دون ان يعرف أحد السبب) ولكن بهيرة التي كانت توقفت عن الغناء، وقفت في طريقه تمنعه فاستطاعت سعاد ان تقود وداد إلى غرفة، تحجز عادة للخوجة وفرقتها، لتبكي كما يحلو لها.

كان عليهم ان يهدئوا الخوجة ويعتذروا منها لأنها كادت ان تنسحب هي وفرقتها من العرس. أجلسوا العريس المخمور في مكانه إلى جانب عروسه وعادت الزغاريد ولكن الفتنة كانت قد بدأت بين أهل العريس وأهل العروس بسبب تصرف الصبي. كان أهل العريس يعتبون على العروس عدم قيامها لاستقبال عريسها حين دخل بينما أهل العروس يبدون انزعاجهن من تصرف العريس غير الناضج. حصل لغط عال ونقاش حامٍ بين الفريقين وكانت هناك

نساء عاقلات في كلا الطرفين حاولن تهدئة الأمور التي وصلت إلى حد التلاسن. وبينما كانت مجموعة من أهل العروس تزغرد نهضت امرأة صفيقة من أهل العريس وقالت لهن بأعلى صوتها:

ـ ماذا..؟ هل انتن فرحات لأن ابنتكن سوف تُخرق هذه الليلة؟

هذه الكلمات فجرت الموقف وانفجر أهل العروس غضباً فحصل شجار وشدت احداهن شعر الأخرى وما لبث الأمر ان تطور إلى الضرب بالأيدي والعض بالاسنان وانتثرت بعض قطع الصيغة الذهبية التي كانت بعض المتشاجرات يرتدينها. حاولت الخوجة بهيرة ان تغني بصوت عال كي تساعد في تهدئة الحالة ولكنها وجدت ان النساء لا يعرنها أي اهتمام وانهن كن يفضلن متابعة الشجار أو الاشتراك به. وفجأة صعدت ام العروس إلى المسرح وشدت ابنتها من يدها لتعلن ان العرس قد بطل وان ابنتهن ليست للزواج ثم صعدت خالة العروس وصفعت العريس المخمور ثم خرجن من الصالة تلحق بهن كل قريباتهن.

ضحكت طويلاً وانا أتصور ما حصل. تركني الشيخ أضحك بينما كان ظل ابتسامة يرتسم على شفتيه. سألته وقد شعرت بالمرح:

ـ أعتقد بأن وداد قد ارتعبت كثيراً تلك الليلة، أليس كذلك؟

ـ كثيراً، ولكن سعاد وبهيرة جعلتاها بعد ان عدن إلى البيت تهدأ ثم وعدتها خوجتها انها لن تدعها ترقص امام العريس مرة أخرى.. كانت بهيرة في الحقيقة خائفة على وداد أكثر من أي شيء آخر، بسبب ذلك وعدتها ثم اتفقت مع راقصة محترفة اسمها «ملك» لتقوم بالرقص حين يأتي العريس ولكي تقوم بمراسم زفة العروسين.

ـ أعتقد بأن رقص وداد الذي لا يسمى رقصاً لا يفي بالحاجة للقيام بالزفة.

ـ هذا صحيح، فتأثير رقصها الذي هو في الحقيقة خلق جو محيط من الرقّة والعذوبة يصبح لا معنى له حين يغيب التركيز، انه

يحتاج إلى معايشة وانسجام. كانت الخوجة بهيرة ذكية بشكل كاف لتعرف بأنها بسبب الفوضى التي يخلقها دخول العريس وزوبعة الزغاريد تحتاج إلى راقصة محترفة وتقليدية.

ـ ألم تعرض الأمر على راحيل؟

ـ لم تفكر في ذلك لأن راحيل كانت سترفض على كل حال، أصبحت تعمل كما قلنا مع الخوجة سماح ولأسباب تتعلق بكرامتها كأبلاية مهجورة كانت سترفض.

ـ وهل شهدت وداد خناقات أخرى؟

ـ كثيرة هي الخناقات التي تحصل في الأفراح، ولكن كما تعلم، يجب ألاّ يكوّن المرء انطباعاً بأن الأفراح عندنا عبارة عن مشاجرات وخناقات. ان من تعمل في مهنة الأفراح يمر بها مثل هذه الأمور.

ـ أنا أعرف ذلك جيداً يا شيخي...

أصبحت وداد ترقص حتى موعد وصول العريس، وما إن يصل حتى تجلس وداد لتتفرج وتخرج الراقصة ملك التي كانت ترتدي في العادة ثوب الرقص التقليدي لتقوم بوصلتها. هذا الحل أراح الجميع بمن فيهن صاحبات العرس فقد كانت ملك تقوم بواجبها على أكمل وجه. كانت وداد تتفرج كيف تهرع النساء لارتداء الأحجبة ليخبئن نصف عريهن الذي اعتدن ان يظهرنه بثياب الأفراح. كان العريس يطل على باب الصالة وتأتي العروس (حسب الحالة) لاستقباله وترقص ملك امامهما حتى التخت وسط عواصف الزغاريد. تبدأ الصبايا بالرقص اما العازبات فتكون الأفراح فرصة للظهور وابراز الجمال امام أعين أمهات العرسان المقبلين. ولكن لا تجري الأمور دائماً بهذا الروتين وبهذه البساطة، فقد تعودت وداد على الصخب أيضاً.

هناك من يعتقد انه إذا ما داست العروس، في ليلة عرسها على قدم عريسها، فإنها ستكون لها الكلمة العليا مستقبلاً في بيت الزوجية. هذه العادة السخيفة كان البعض يقوم بها مازحاً والبعض

جاداً، وفي احد الافراح أسرعت العروس لتنفيذ الفكرة، وكانت العروس بالمناسبة ممتلئة الجسم، وكانت جادة وحازمة فداست على قدم عريسها بقوة حتى تصورت وداد، التي كانت تراقب بانتباه، انها قد هرست له قدمه. صرخ العريس من الألم ثم رفع قدمه و أمسك بها وراح يقفز على قدم واحدة وهو يكاد يبكي. توقفت الموسيقى وتوقفت ملك عن الرقص كما صمتت النساء عن الزغاريد ولم يعد يسمع سوى أنين العريس وهو يتألم، ثم وهو يسب العروس وأبا العروس ثم حلف عليها بالطلاق، فقد تفاجأ الشاب بغلاظة زوجته التي كان قد كتب عليها دون ان يراها. ذهب وجلس في مكانه محمر الوجه. طرد عروسه ورفض ان تجلس إلى جانبه.

قامت الفوضى وراحت النساء يتناقشن. حاولت قريبات العروس ان يهدئن العريس ولكن دون جدوى فقد طلقها وانتهى، ومن أجل ان يثبت جديته فيما عزم عليه نهض واقترب من وداد وطلب منها بصوت مسموع ان توافق على ان تتزوجه الآن وفي هذه اللحظة. ارتعبت الفتاة وكادت تنهض لتهرب ولكن بهيرة تصدت له وطلبت منه بكل شدة ان يبتعد عن وداد. كانت العروس في حالة سيئة، فقد كانت تبكي بحرقة لأنها كانت تفقد عريسها تحت سمعها وبصرها. كانت دموعها تسيل وقد اسودت بكحل عينيها، وبما انها كانت تمسحهما بيديها فقد أصبح لون وجهها لا يطاق.

من جديد نهض العريس وطلب من الصبايا اللواتي تواجدن في الفرح ان تتقدم اليه تلك التي تود الزواج منه، فقد كان يود عدم التفريط بالأموال التي صرفها في اقامة فرحه، وفعلاً، خرجت امرأة من بين النساء اللواتي كن يتناقشن ويتشاجرن، تمسك بيد ابنتها التي لم تبلغ الثالثة عشرة بعد. صعدت إلى المسرح وقدمت اليه ابنتها قائلة له:

ـ هذه ابنتي عائشة، أنا موافقة على ان تتزوجها الآن.

راح العريس يعاين الفتاة الصغيرة. صمتت النساء ينتظرن

قراره وقد انقطعت أنفاسهن، ويبدو انه كان ينظر إلى الصغيرة والى عروسه البدينة التي لوثت وجهها بكحل عينيها يقارن إحداهما بالأخرى، فوجد عائشة مناسبة له أكثر من تلك، فقال لأمه انه يريد هذه فاضطروا إلى إلباسها ثوباً ملائماً، وخرجت قريبات العروس البدينة غاضبات وباكيات، ثم طلبوا الشيخ ليكتب الكتاب من جديد واضطرت بهيرة إلى طلب أجر زائد لأنها ستضطر للبقاء فترة أطول.

كنت أضحك حينما دخل اسماعيل ليجهز مائدة الغداء في ركن الطعام المتصل بالصالون. شاهدني أضحك فرمقني بنظرة كراهية وتابع عمله. في تلك اللحظة صمت الشيخ فاضطررت إلى النهوض والوقوف امام النافذة أنظر إلى السماء الماطرة لكي لا تلتقي عيناي بعيني اسماعيل.

خرجت من غرفتي بعد الغداء (كان وقت القيلولة) بعد ان شعرت بقوة ضغط كبيرة في أمعائي أقصد الحمام الذي يقع في نهاية الممر. جلست على كرسي المرحاض وكان خروجي إسهالاً قوياً فاجأني بلونه ورائحته غير الطبيعيين. اغتسلت ثم نشفت يدي وقبل ان أخرج من الحمام خطر في بالي انني ربما تعرضت إلى التسميم من قبل اسماعيل اللعين. شعرت بالحرارة تتدفق إلى وجهي وانتابني خوف شديد على صحتي وحياتي فعدت إلى الجلوس على كرسي المرحاض دون ان أنزل بنطلوني ورحت أفكر.. هل دس اسماعيل السم في طعامي؟ لم أكن أشعر بالإقياء فلم أتسرع في الحكم على اسماعيل.

وبينما كنت أحاول تذكر عوارض التسمم في الحالات التي شهدتها طوال حياتي أو التي قرأت عنها شعرت ان علي ان أنزل البنطلون من جديد وعندما فعلت عاودني الاسهال الشديد وربما شعرت بدوار بسيط فراح قلبي يدق بعنف. قلت بصوت سمعته بأذني: يحرق.. لقد سممني اسماعيل. ويبدو انني أقنعت نفسي بصوتي

المسموع بأنني مسموم فتملكني ذعر خاطف فتذكرت ان علي ان أغسل معدتي فوراً.

ان تناول فطر سام في الريف أو في الغابات، بعيداً عن المشافي وسيارات الاسعاف، هو أسوأ شيء يمكن ان يحصل لواحد مثلي، فإذا نام الرجل فإنه قد يموت أما إذا كان صاحياً وعرف انه قد تسمم بالفطر فإن عليه ان يدخل يده في حلقه ويدفع اصبعه إلى أقصى ما بإمكانه لكي يتقيأ. بعد ذلك عليه ان يشرب الكثير من الماء ثم يعاود التقيؤ القسري عدة مرات حتى تنظف معدته من المادة السامة.

بدأت بعملية الغسيل ولاحظت في المرة الثالثة انني تقيأت الماء فقط فهدأت ثم عدت للجلوس على كرسي المرحاض كي استرد أنفاسي فقد تألمت كثيراً من العملية حتى انني شعرت وكأن معدتي ستخرج. حين هدأت قمت وغسلت وجهي المصفر ثم جففته وفتحت الباب لأخرج فاصطدمت باسماعيل.

كان يقف وكأنه كان ملتصقاً بباب الحمام. كان يسد علي الطريق وهو يرمقني بنظرة لئيمة. كان يعلم ما كان يحصل لي في الداخل. قال بشيء من السخرية:

ـ سلامتك أيها السيد.

ـ الله يسلمك.

ـ وجهك مصفر..كنت تتقيأ أليس كذلك؟ سمعت صوتك حتى الطابق السفلي. لم أرد أن أبدو ضعيفاً أمامه فلم أذكر شيئاً عن التسمم، قلت:

ـ يبدو انني أصبت بالبرد أو ربما تناولت كمية أكثر من اللازم على الغداء فلم تتحمله معدتي.

ـ أعرف السبب.

ـ ما هو؟

ـ إنني أضيف إلى طعام الشيخ بعض الأعشاب التي تنمو في البرية. انتم ابناء المدينة المدللين تتحسسون من هذه الأعشاب.
تساءلت باستغراب:

ـ أعشاب؟ قال وهو يضمر التهديد ليجعلني أرحل:

ـ في هذه الأصقاع تنمو أعشاب متنوعة، منها السام طبعاً، احمد الله انك قد تحسست فقط هذه المرة.

اذن فقد سممني الملعون. كنت أنظر في وجهه وقد احترت في ما يمكنني أن أفعل. سألني:

ـ ماذا قررت؟

ـ ماذا يعني ماذا؟

ـ لماذا لا ترحل إلى بيتك لتنعم بطعام زوجتك الآمن وبدفء فراشها؟

ـ عندما يأذن لي الشيخ عندها سوف أرحل. فقال وكأنه يريد ان يحملني مسؤولية ما سيحصل لي:

ـ كما تريد أيها السيد.

تنحى عن طريقي لأخرج من الحمام. سرت باتجاه غرفتي ولكنني توقفت واستدرت إليه لأجده ينظر إلي باستهتار. اقتربت منه لأتمكن من التكلم بصوت منخفض كما كنا نفعل طوال الوقت. قلت له بصوت فيه نبرة طيبة أعرض عليه صداقتي:

ـ لماذا لا نصبح أصدقاء يا أخ اسماعيل؟

ـ نحن أصدقاء.

ـ أصدقاء؟ ولكنك لا تهدأ من نصب الشراك لي. اسمع، أريد أن أعقد معك اتفاقاً.. أنا رجل قوي البنية ومهنتي تجعلني أجوب كثيراً الأرياف والبرية خاصة. أعرف كيف أتخلص من السم أو من شخص يهم بفتح الباب علي ليلاً وبيده قطعة خشبية من السنديان. ثم إنني

عنيد وأميل نحو المغامرة (كذبت عليه في هذا الأمر، فأنا دائم الخوف كأرنبٍ). دعني وشأني وسنصبح أصدقاء.

ـ ارحل وسنصبح أصدقاء إن شاء الله.

ـ من أجل الحكاية؟

ـ نعم.

ـ لماذا لا تريدني ان أسمعها، ما هو السوء الذي يمكن أن يحصل لك؟

تركني دون ان يجيب. شرع في النزول إلى الطابق الأرضي فلحقت به. اردت ان أجعله يلمح تلميحاً، هذا إذا لم يرد ان يقول كلاماً صريحاً عن علاقته بالأمر. أمسكت بذراعه وجعلته يتوقف عن هبوط الدرجات:

ـ الحكاية تخص حياة الشيخ.. أنت لا علاقة لك بها على ما أظن.

صعد الدرجتين وأصبح على بعد شعرة مني. كان بادي الغضب وإن فتح فمه فباستطاعته عض انفي. قال وهو ينفث نفسه في وجهي:

ـ اسمع يا محب المغامرات، عليك ألا تنسى انك خرجت من سيارة معطلة وتهت في البراري في ليلة ممطرة تكثر فيها الضباع والكلاب المتوحشة في البرية. أقسم انني سأتخلص منك.

قال الجملة الأخيرة وهو يكز على اسنانه ثم استدار وشرع في الهبوط. ظللت واقفاً برهة ثم عدت إلى غرفتي وقد قررت ان أفكر. من أجل التفكير وقفت بجانب النافذة اتطلع إلى السماء الرمادية والى سيل المطر الهابط من غيومها الداكنة. هذه الأوقات جيدة للتفكير. ولكن أي تفكير؟ كنت رافضاً بشدة فكرة هروبي من المكان. كنت قد تعلقت بالحكاية ولا أجد لنفسي مناصاً منها ومن اسماعيل في ذات الوقت. لو رحلت الآن فإنني سأظل طوال حياتي نادماً لأنني لم أسمع بقية الحكاية. إذن سأبقى وسأصارع اسماعيل.

سمعت صوت انغلاق باب في الأسفل ثم سكنت الفيلا. توقعت ان يدور اسماعيل حول المبنى فأشاهده من نافذتي التي تطل على الحديقة الخلفية ولكن ذلك لم يحصل. انتظرت خمس دقائق وحينما لم يظهر شعرت برغبة في الاستلقاء على بطني لأزيل الألم الذي كابدته بسبب التقيؤ القسري. كشفت اللحاف (كنت أرتب سريري صباحاً بعد النهوض) فتجمدت. كان هناك، على شرشفي الأبيض، عقرب بحجم الكف وقد عكف ذيله فوق جسده وكأنه يتأهب للسع. أصابني نوع من الجفلان. لقد شاهدت في حياتي الكثير من العقارب، وخاصة في البرية، ولكنني لم أر عقرباً ضخماً مثل هذا. كان لونه بنياً ويميل نحو الاحمرار اما ذنبه فكان مصفراً والابرة بيضاء. لو كان قرصني العقرب لمت على الفور ومن حسن حظي أنني كشفت اللحاف حتى منتصف السرير فوجدته.

وصفي هذا الذي كتبته عن العقرب احتاج مني الكثير من الوقت كي اتذكره، لأنني حينها كنت مصعوقاً وجامد العقل. دار العقرب حول نفسه ثم اختفى تحت الجزء من اللحاف الذي لم يكشف بعد. عندما غاب عن عيني عدت إلى وعيي فهجمت على المكان الذي اختبأ تحته فانهلت عليه ضرباً أريد سحق العقرب. ظللت أضرب في المكان وحوله حتى أصابني الإعياء. ابتعدت عن السرير ثم وباصبعين اثنين رحت أكشف اللحاف لأرى ما حصل له. للغرابة لم أجد له أثراً. كشفت كامل اللحاف ولكن العقرب كان قد أفلت مني وضاع. رحت أبحث عنه في ثنايا الفراش ممسكاً بفردة حذائي ولكنني لم أجده. زاد خوفي، فإن لم أجده فهذا يعني انني سأعيش في غرفة مُعقرَبة. كنت مخيولاً فلا أبرح من النظر إلى موطئ قدمي أو إلى يدي وكتفي، ففي كل لحظة كنت أحسب ان العقرب قد اقترب مني فانتفض. أخيراً ذهبت إلى زاوية الغرفة وقرفصت فيها، فمنها أستطيع رصد كامل أرضية الغرفة.

شعرت بدقات قلبي المفزوع على ركبتي التي تلتصق بصدري.

قلت في داخلي ان اسماعيل جاد في قتلي وانني اقترب من الاستسلام، ثم تصورت نفسي هارباً من الفيلا وانا أحمل الشيخ نافع ثم وانا أصل به إلى بيتنا في حلب حيث سنمضي وقتنا بهدوء وسكينة تمكنانى من الاستماع إلى باقي الحكاية بلا عقارب أو سموم، بل على العكس، ستحيط بنا ابتسامات نادية زوجتي.

فجأة سمعت صوت سقوط شيء أشبه بسقوط علبة كبريت على الأرض العارية. لقد سقط العقرب من أسفل السرير وراح يتجه نحوي وهو يصدر صوت خربشة وقد قلب ذيله وكاد يسبق كلابتيه. يبدو أنني انسان جبان ولكنني أمام الخطر الماحق أتحول إلى شخص شجاع (هذه في كل الأحوال ميزة تحسب لي). زحفت نحوه على ركبتي، ممسكاً بفردة حذائي، وفي اللحظة المناسبة جداً هويت بها عليه فتهشم (سمعت صوت تكسير) وانتثر حول هشيمه سائل أصفر اللون، وهو السم الذي خطط اسماعيل لقتلي به.

لممت العقرب المهروس ومسحت سائله بمنديل ورقي ثم هبطت إلى الطابق السفلي لألقيه في الزبالة. عندما انتهيت غسلت يدي بالماء والصابون. كان المطبخ مرتباً ونظيفاً تفوح منه رائحة عطرة تستخدم عادة لازالة روائح الطبخ. كان هناك صف من الخزن معلق على الجدار ثم لوح طويل من المرمر يعلو صفاً آخر من خزائن المونة. تفحصت المرمر فوجدته يلمع. كانت هناك ثلاجة ضخمة وطاولة مستطيلة ملتصقة بالجدار وفي كل طرف كرسي واحد. كانت هناك فوطة معلقة لتنشيف الأيدي، شممتها فوجدتها نظيفة، تفوح منها رائحة بودرة الغسيل.

فتحت خزانة فوجدتها ممتلئة بالعلب. فتحت أخرى فوجدتها للصحون النظيفة. قلت في نفسي ان اسماعيل مرتب ونظيف. هناك راحة يشعر بها الغريب في هذا المطبخ وهذا ما حصل لي. ظللت واقفاً برهة من الزمن ثم استدرت لأخرج. عند الباب المفتوح لاحظت انه بانفتاحه يخفي باباً آخر. كان علي ان أغلق باب المطبخ لأعاين

ذلك الباب وهذا ما فعلته. كان الباب الثاني ضيقاً لا يزيد عرضه عن الستين سم بدون مسكة عند القفل لفتحه وقد علقت عليه، على مستوى عيني، لوحة فوتوغرافية قديمة لقلعة حلب. حسبت ان الباب مقفل ولكنني تجرأت فدفعته واذ به ينفتح إلى الداخل.

هذه إذن غرفة اسماعيل. غرفة مضاءة بضوء النهار يتوسطها سرير مرتب ومكتبة صفت على رفوفها مئات الكتب باللغة العربية والانكليزية والفرنسية. كانت هناك خزانة كبيرة للثياب وعدة خزن أصغر شكلها لا يدل على ما يحفظ فيها. دخلت الغرفة واقتربت من المكتبة. استغربت وجود كل هذا العدد من الكتب واستغربت أكثر وجودها في غرفة اسماعيل بالذات. هو يقرأ إذن وبثلاث لغات. إنه مثقف هذا الملعون. على جانب السرير كانت هناك كوميدينة تحمل مصباحاً ليلياً وكان هناك كتاب كان اسماعيل يقرأ فيه ويستعين بريشة لطائر النعام في تعيين الصفحة التي وصل اليها. كان كتاب «وصف مصر» الذي أنجز اثناء حملة نابليون على مصر عام 1798. فتحت إلى الصفحة التي علمتها ريشة النعام فكانت فصلاً يصف فيه المؤلف موكب العروس وخاصة الراقصات اللواتي كن يسرن في المقدمة. أعدت الكتاب حيث كان وفي الوضعية التي كان فيها كي لا يعرف انني دخلت إلى غرفته حين يعود. ذهبت إلى المكتبة أتفقد باقي العناوين، فقد استغربت انه يقرأ عن مصر وعن الرقص ومواكب العروس. كانت في معظمها كتباً تاريخية وروايات فرنسية وانكليزية من القرن التاسع عشر لفلوبير وستندال وبلزاك وديكنز وكونراد وغيرهم. أما الكتب التاريخية فقد كانت لديورانت والشيخ كامل الغزي ويوميات نعوم بخاش وبعض الكتب عن الزراعة المنزلية وكتاب عن السموم وآخر عن مكافحة الآفات والفطور وكتاب «عشائر الشام» لاحمد وصفي زكريا.

كان هناك رف سفلي وكان علي ان أنحني لأقرأ العناوين (كأنه أراد ان تكون هذه الكتب في متناول يده دائماً). كانت في معظمها عن الفنون: كتاب «المغني المصري» الصادر عن «شركة

الجرامفون ليمتد» بمصر عام 1912 و«ديوان العتابا الشرقية» وكتاب «حياتي» للراقصة الأمريكية ايزادورا دنكان وكتاب أثارني وجوده على الرف فالتقطته وكان «رحلة في مصر وبلاد النوبة». كان الكتاب وصفاً لمصر ومنطقة النوبة كتبه رحالة اسمه «ريفو» بين عامي 1805 و1828 وقدمه الى قيصر روسيا آنذاك، تصفحته فوجدت فيه رسوما لمجموعة من الرقصات لاهل المنطقة بالاضافة الى رسوم تبين طرق معيشة السكان.

كان علي ان أفكر فوراً في عدة أمور أهمها الرابط بين مصر والرقص واسماعيل (هل لذلك علاقة بلكنته القريبة من لهجة أهل مصر؟)، ولكنني وجدت نفسي أؤجل ذلك إلى ما بعد، فالوقت ضيق فقد يعود اسماعيل من الخارج فيجدني في غرفته (كان سيقتلني حتماً). تركت المكتبة وفتحت خزانة ملابسه. فوجدتها في فوضى على النقيض من الترتيب الذي لاحظته في المطبخ والغرفة. ثياب من كل الأنواع، شتوية وصيفية، بذلات، قمصان بيض وملونة، ربطات عنق، عباءة بدوية، دشداشات وشماخات عربية وغيرها. أبعدت كومة من الثياب المكومة بدون ترتيب فلمست يدي معدناً بارداً. أبعدت الثياب جيداً فوجدت ماسورة مزدوجة لبندقية صيد. كانت «جفت». أخرجتها ثم أمسكت بها بيدي الاثنتين واقتربت من النافذة لكي أتفحصها. كانت صناعة فرنسية ماركة «سنتاتيل». كانت الماسورتان بدون رائحة احتراق البارود وهذا يعني انها لم تستعمل منذ مدة طويلة. لاحظت ان هناك كتابة محفورة على خشب البندقية باللاتينية، قربتها أكثر من الضوء فارتعدت. كان اسم الدكتور وليد فارس.. فجأة تملكني رعب كاد يشلني. دفعني الخوف إلى التفكير بضرورة الخروج من الغرفة فوراً ولكن الرعب لم ينسني أن أبحث بين كومة الثياب عن خراطيش للبندقية ربما يكون قد خبأها هنا أيضاً. بحثت بسرعة فوجدت علبة كاملة من الطلقات ذات الأغلفة الكرتونية الحمراء. جعلت كل شيء يبدو طبيعياً (أو هكذا خيل إلي) ثم خرجت من الغرفة. عدت إلى غرفتي وخبأت البندقية وعلبة

الخراطيش تحت فراش سريري ثم جلست ألتقط أنفاسي المتسارعة وكأنه ضبطني وأنا أعبث بغرفته، وبعد قليل سمعت صوت انغلاق الباب فقد عاد اسماعيل.

جلست في الصالون إلى جانب المدفأة انتظر نزول الشيخ من قيلولته. كان قد تأخر كثيراً عن موعد نزوله فصعد اليه اسماعيل. نهضت ورحت أنظر الى المطر. أين يذهب اسماعيل في هذا الجو؟ اين يختفي؟ فكرت في البحث عن طريقة استكشف بها المكان لعلي أجد سر اختفاء الرجل في هذا الجو فربما كان هناك كوخ قريب يلتجئ اليه أو مدخل سري لغرفة أخرى يخطط فيها لقتلي.

كنت في حيرة بسبب كل ما وجدته في الغرفة الملحقة بالمطبخ. ولكن أكثر ما كان يقلقني هو عثوري على بندقية صيد الدكتور وليد فارس. لقد قال لي الشيخ ان ضيفه كان قد اختفى بعد ثلاثة أيام دون أن يودعه ودون ان يستمع إلى نهاية الحكاية. كنت أشك بأن اسماعيل قد أرغمه على الرحيل، ومن المحتمل انه قام بقتله والتخلص من جثته. اليوم تأكدت من انه كان قد قتل، فلو انه رحل لكان أخذ معه بندقيته التي يحتاجها في البرية. وأكثر هذه الاحتمالات واقعية هو ان اسماعيل قتل الدكتور الصياد ببندقيته ثم دفنه في حديقة الفيلا.

شعرت انني واقع في مصيدة. حاولت ان أفسر سبب كراهية اسماعيل للحكاية وتماديه في ذلك حتى انه يقتل كل من يستمع اليها من خلال تحليل مواضيع الكتب التي رأيتها في مكتبته فوجدتني عاجزاً لأنني لم استمع إلا إلى جزء من حكاية الشيخ. هناك رابط بين الحكاية ومواضيع الرقص التي يقرأ عنها اسماعيل، فقد اعتاد ان يضع علامة على الفصول التي تأتي على ذكر الرقص في تلك الكتب، أما نسخة كتاب «حياتي» للراقصة «ايزادورا دنكان» فقد كانت مستهلكة أكثر من غيرها رغم انها كانت قد صدرت في الخمسينيات عن «دار اليقظة العربية بدمشق». ولكن لماذا يقرأ عن مصر؟ هل هذا

بطلاتنا إلى هناك وهذا ليس غريباً لأنهن كن فنانات؟

هناك احتمال ان تكون المكتبة ملكاً للشيخ وليس لاسماعيل، فحكايته تدل على اهتمامه هو شخصياً بالخوجات فاضطر إلى القراءة عن الرقص القديم وعن الغناء أيضاً (كتاب المغني المصري). ولكن هذا الاحتمال يسقط من تلقاء نفسه، لأن اسماعيل كان يقرأ أحد الكتب وكان يضعه بجانب سريره وقد علم الصفحات التي تتحدث عن الرقص والمواكب بريشة نعام. ثم إذا كانت المكتبة ملكاً للشيخ فلماذا ليست في غرفته بل في غرفة اسماعيل السرية وهو المثقف والمتابع..؟

ثم انني متأكد من ان الشيخ يقرأ باللغات الأجنبية لأنني وجدت صوره في باريس، وهذا يؤكد بان الكتب تخصه هو وانه ربما طلب من اسماعيل ان ينقل المكتبة إلى غرفته كي يحصل على مساحة كافية تمكنه من تعليق جميع صوره على الجدران. ولكن لماذا لم يصف الكتب في مكتبة الصالون عوضاً عن التحف والخزفيات والصيني التي تملؤها؟

فجأة خطر في بالي خاطر مرعب جعلني أشعر انني بحاجة إلى التبول. ماذا لو كان الشيخ يشارك في هذه المصيدة، التي هي عبارة عن فيلا غريبة في مكان غريب من البرية، بحيث انه يأسر من يلتجئ اليها من الأغراب والضائعين بحكايته ثم يقوم اسماعيل بقتله؟ لقد سمعت بحكاية غريبة لا أعرف أين حصلت ومع من ولكن ظروفها تشبه الظروف التي وجدت فيها نفسي مع الحكاية التي يحكيها لي الشيخ وهاأنذا أقصها عليكم.

في إحدى الطرقات الجبلية، وبينما كان المطر يهطل بغزارة (يا للمصادفة) كان هناك رجل يسوق سيارته في ظلام بعد منتصف الليل. كانت ماسحات الزجاج الامامية تعمل بأقصى سرعة ولكن الرجل كان يجد صعوبة كبيرة في المشاهدة. وفجأة اصطدمت

الأمر فوجد انه كان قد خرج قليلا عن الاسفلت واصطدم بصخرة. احتار الرجل. كان المكان مقطوعاً وكان الظلام دامساً فقرر ان يعود إلى السيارة ليجلس وينتظر سيارة تمر وتنقذه. مر وقت طويل فشعر بالبرد وكان قد تبلل والمحرك مطفأ فقرر ان يخرج من جديد ويسير في الظلام ويبحث عن مأوى. سار مدة من الزمن واذ به يشاهد بصيص نور بين الأشجار. اتجه نحوه يغوص في الغابة. وصل إلى بيت ذي معمار جبلي أشبه بقصر عتيق. رن الجرس ففتح له خادم عجوز فطلب منه ان يسمح له بالدخول أو باستخدام هاتفه ليطلب النجدة من أهله. أدخله الخادم وطلب منه ان يجلس بجانب المدفأة ريثما يستقبله سيده. كان المكان يعج بالحيوانات المحنطة وعلى الجدران علقت رؤوس دببة وأيائل وذئاب. كان المكان غريباً فشعر الرجل بالضيق. بعد دقائق جاء رجل في الأربعين، رحب به ثم دعاه للمكوث حتى الصباح ومن ثم سيقوم هو بايصاله إلى الوجهة التي كان يقصدها. جلسا بجانب المدفأة يتمتعان بالدفء وبالشراب الساخن الذي كان يقدمه لهما الخادم. المهم في الحكاية ان السيد اقترح على الرجل ان يلعبا لعبة يتسليان بها قليلاً قبل النوم فوافق الضيف مجاملة.

أخرج السيد ورق اللعب ثم شرح مبادئ اللعبة لضيفه. كانت لعبة شبيهة بالبريدج وكانت مبادئها غامضة وكان على السيد ان يشرح باستمرار خطوات اللعب للرجل الذي لم يعتد على لعب الورق. في البداية سار الأمر عادياً وكاد الرجل ان يلتقط شيئاً من مبادئها، إلا أن السيد، وللغرابة الشديدة، راح يبدل في قوانين اللعبة بشكل يجعل أوراقه تتفوق دائماً على أوراق خصمه فكان الرجل يخسر باستمرار. كان يُطلب منه ان يراهن على أي شيء يملكه مهما كان ضئيلاً. كان يشعر ان عليه ان يجامل السيد فرضخ لشروطه وأخيراً استطاع السيد ان يكسب كل أوراق الرجل فانتهت اللعبة، حينها أعلن ان من شروط اللعبة، وفي حال خسارة كل الأوراق، على الخاسر ان ينفذ ما يطلبه منه المنتصر. كان طلب السيد هو ان يخدم الضيف في

القصر مدة غير محددة وإن أراد ان يستعيد حريته عليه ان يلعب مع السيد نفس اللعبة وبنفس الشروط إلى ان يتمكن من هزيمة السيد. أما إذا رفض الرجل أو حاول الهرب فإن الخادم العجوز سيقوم باطلاق النار عليه، وفعلاً فقد خرج عليهما الخادم وبيده بندقية يسددها نحو الرجل.

يقولون ان الرجلين مستمران في اللعب حتى اليوم في حين يقوم السيد بتغيير القوانين باستمرار. وقد تحسبون ان ما جرى لي لا يتشابه مع ما جرى لذلك الرجل صاحب السيارة، ولكنني أجد أموراً كثيرة متطابقة بيننا منها ان الرجل كان أسير لعبة تتغير قوانينها إلى الأبد بينما وجدت نفسي أسير حكاية تمتد وتمتد إلى ما لانهاية وقد لا تنتهي أبداً.

كانت السماء قد بدأت بالاظلام عندما سمعت وقع أقدام فاستدرت على الفور متوقعاً ان أرى الشيخ ينزل من غرفته ولكنني شاهدت اسماعيل ينزل وحيداً من الطابق العلوي يطالعني بسحنة عدائية فظيعة. حسبت انه دخل إلى غرفتي فاكتشف البندقية وعلبة الذخيرة، أو على الأقل علم انني اكتشفت العقرب وقمت بهرسه. وقف امامي مسربلاً بعتمة خفيفة بينما كنت بجانب النافذة. كان يراني أفضل مما كنت أراه فيه فلم يكن النور قد أشعل بعد. قال لي وكأنه يستغرب بقائي على قيد الحياة حتى الآن:

ـ أنظر أيها اللعين ما فعلت بالشيخ.. انه متعب ولا يستطيع النزول.

ـ ما به الشيخ؟

ـ كل هذا بسببك، لقد أرهقه الكلام، وان حدث له أي مكروه فسأقتلك في الحال. لقد طلبت منك الرحيل ولكنك ترفض بكل وقاحة.. المشكلة هي ان الشيخ يطلب ان تصعد اليه في غرفته. سوف نتفق على أمر كأصدقاء كما اقترحت اليوم.. سوف تصعد الآن وتتحدث انت مع الشيخ.

ـ ماذا أقول له؟

ـ قل له أي شيء يا ابن القحبة.. احكِ له حكاية. لا تدعه يفتح فمه. لا أريدك ان تستمع إلى تلك القصة السخيفة. سوف أكون هناك أنا أيضاً لأتأكد من أن أوامري تنفذ حرفياً.. مفهوم؟

ـ مفهوم.

ـ أنت ابن حرام وساقط، سوف أمهلك هذه الليلة أيضاً. غداً في الصباح سأوصلك بيدي إلى طريق الاسفلت لترحل دون رجعة. الكلام الذي سمعته هنا أريدك ان تمحوه من رأسك. إذا عرفت يوماً بأنك تثرثر.. أقسم بأنني سألحق بك إلى حلب وسأقتلك.. مفهوم؟

ـ أريد ان أسأل، لماذا تحرم الشيخ العجوز الطيب من الرفقة؟ إنك تصر على رحيلي وقبل وصولي دبرت شيئاً للدكتور وليد فارس فهرب.. حرام عليك، الشيخ يتسلى.

ـ هل حدثك عن الصياد؟

ـ حدثني.

ـ يبدو لي انك بدأت تعرف أشياء كثيرة وهذا لا يفرحني، كما ان هذا غير مناسب لك ولا أعتقد انك بسبع أرواح.. أنظر إلى نفسك، إنك ما تزال في ريعان الشباب وأمامك حياة عليك ان تحياها.

ـ أرى أنك تخاف على حياتي.

ـ هيا.. اصعد اليه وحدثه عن عملك في المصرف الزراعي.. سوف ألحق بك بعد قليل.

أصبحنا لا يرى أحدنا الآخر بسبب العتمة التي ازدادت. كان يقف قرب المخرج وكان علي ان أمر بقربه لأخرج من الصالون. توقفت وقلت له:

ـ لا أعتقد انني سأتناول طعام العشاء الليلة.. لا أريد أن أصاب بتسمم فلا تحسب حسابي.

شعرت انه يبتسم ولكنني قد أكون مخطئاً، عندما هممت لأتجاوزه أمسك بذراعي بقوة كلابة حديدية.

ـ اطمئن، إذا فعلت ما طلبته منك فكل شيء سيكون على ما يرام، أما إذا صعدت إليكما وسمعت انه يحدثك قصته فسوف أؤذيك.. وإذا رفضت السفر صباحاً فسوف أقتلك، ولكي تتأكد من حسن نواياي أنصحك بتفتيش غرفتك، فقد يكون هناك عقرب سام قد استقر بين شراشفك.

ـ أشكرك على تنبيهي، لقد وجدته وقتلته.

لم أر تعابيره فأفلتُّ يدي وخرجت من الصالون. سمعته يزفر. صعدت الدرجات إلى الطابق العلوي ثم اتجهت إلى غرفة الشيخ. طرقت الباب فسمعته يسمح لي بالدخول.

كان مستلق وقد أسند ظهره إلى مسند السرير. كان مصفر الوجه وقد تغطى باللحاف السميك وببطانية إسبانية بينما كانت إحدى يديه تمسك بالأخرى وترتجفان. شعرت بحب نحوه وبالأسف لاعتلال صحته، حتى أنني شعرت بالذنب لأنني أرهقته بالحكاية. ولكن الرجل يشعر بالوحدة ان ابتعدتُّ عنه. إنه يحتاجني، وأنا هنا، في غرفته، قد جئت أسليه حسب طلبه.

كان الضوء ضعيفاً في الغرفة مما زاد في نحول وجهه. بان هرمه أكثر مما كنت أتوقع. كأنه في التسعين من عمره. أصبح يشبه أبي في آخر أيامه. تركني أتمعن في طرف وجهه وهو يحاول ان يضبط ارتجاف يديه. كان ينظر باتجاه الصور المعلقة على الجدار المقابل. إلى صور شبابه الذي يحكي لي قصة أعتقد جازماً انها جزء منه. خطر في بالي ان أسرع إلى النافذة التي علقت خلف ستارتها صورة وداد في محطة القطار. شيء ما دفعني إلى التمعن فيها مرة أخرى. نهضت ثم درت حول السرير باتجاه النافذة، أبعدت الستارة وانحنيت. كانت في زاوية شبه معتمة لأن الخزانة كانت

تمنع عنها النور. رفعت اطارها عن الجدار فصارت في يدي فعدت بها إلى مكاني بجانب سرير الشيخ.

هنا صرت أرى الملامح بشكل أفضل. حاولت ايجاد شيء مشترك بين وداد وبين الشيخ دون جدوى، فلم يكن يشبه أحدهما الآخر. ولكن وجه وداد أصبح يبدو لي أكثر إلفة. أين أعرف هذا الوجه؟ نعم.. بدأت أشعر أنني أعرف شخصاً له نفس الملامح أو ربما كنت أعرف صاحبة الوجه. هراء، أظن أن الأمر يحدث لأنني اشاهد الصورة للمرة الثانية، أو ربما حلمت بها الليلة الفائتة. أنزلت الصورة ووضعتها في مكان لا يراها فيه اسماعيل إذا دخل علينا فجأة ثم عدت بنظري إلى الشيخ. إنه ينتظرني ليكمل لي الحكاية، وربما لن تنتهي اليوم أو غداً واسماعيل يأمرني بأن أجعل الشيخ يصمت. إنني متعلق بالحكاية ثم ان البيت قد أصبح مليئاً بالألغاز والحكاية قد تفك بعضها وقد تزيدها غموضاً، ولا أنسى محاولات اسماعيل لقتلي أو على الأقل ليسبب لي الأذى وليدفعني إلى الرحيل. وجدت نفسي أصارح الشيخ بمخاوفي:

ـ أرى ان الحكاية لن تنتهي قريباً، وأنا أخاف ان اضطر إلى الرحيل قبل سماع نهايتها.

ـ أرجوك ألا ترحل، سوف أحاول انهاءها في ثلاثة أيام، ويمكنك الذهاب غداً مع اسماعيل إلى أقرب هاتف لتتمكن من طمأنة أهلك بسلامتك.

ـ المشكلة هي اسماعيل بالذات، انه يهددني.. يريدني أن أرحل ليمنعني من الاستماع إلى بقية الحكاية.

ـ لا تأبه له.. انه يتصرف على هذا النحو مع كل من يطرق بابنا. حاول منع الدكتور أيضاً وقد اشتكى هو أيضاً من مضايقات اسماعيل قبل أن يرحل.

ـ وهل رحل حقاً أم اختفى؟ اعتقد انه اختفى.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لقد وجدت بندقيته مخبأة في مكان ما في القصر.

ـ لقد أهداها لاسماعيل في اليوم الأول لوصوله.. أهداها له بوجودي. اسماعيل شخص طيب القلب. انه لا يريدني ان أحكي القصة لأحد، لهذا السبب نحن هنا في البرية معزولين عن البشر.

كلمات الشيخ الأخيرة أربكتني. جعلتني أتخبط اكثر في تشتت أفكاري. اين هو إذن الدكتور وليد؟ وهل يمنع اهداؤه البندقية لاسماعيل من أن يقتله؟ ان اعتقاد الشيخ بان اسماعيل طيب القلب ليس دقيقاً، وربما هو طيب لأنه لم يقتل الشيخ حتى الآن، ولكن ماذا قصد عندما قال إنهما هنا معزولان في البرية لأن اسماعيل لا يريده ان يحكي الحكاية لأحد؟ هذا يعني ان الخادم يمتلك سلطة على الشيخ بحيث يستطيع ان يعزله عن العالم في هذا المكان من البرية. قلت للشيخ:

ـ حاول اسماعيل الدخول إلى غرفتي ليلاً موحياً ان باستطاعته ايقاع الأذى بي، ثم حاول تسميمي، يبدو انه وضع شيئاً ما في طعامي وأخيراً وجدت عقرباً ساماً في فراشي.

لم ينبس الشيخ بل استمر في النظر إلى رسومات البطانية. كان يتمعن فيما قلته له. استمرينا على هذا المنوال فترة. أنا أنظر اليه وهو ينظر إلى البطانية. سألته:

ـ ما رأيك ان ترحل معي إلى المدينة؟ سوف أهرب بك. أستطيع ان أحملك مسافة طويلة. في حلب تستطيع ان تكمل سرد الحكاية دون ان يمنعك أحد.

رفع وجهه نحوي ونظر في عيني. أعتقد انه كان يفكر في أمر الهروب لأنه راح، بعد فترة، يهز رأسه بأن الفكرة لم تعجبه. من الواضح انه كان يتصور نفسه محمولاً على ظهري وأنا أهرب به. في هذه اللحظة سمعت وقع أقدام اسماعيل وهو يصعد الدرج إلى الطابق العلوي ثم وهو يسير في الممر ويقترب من باب غرفة الشيخ.

قبل ان يدخل اسماعيل قال الشيخ وهو يتواطأ معي أو يقوم بتنبيهي إلى أمر في غاية الأهمية:

ـ هناك عدد من النباتات السامة هنا في مناطقنا وعلى الانسان ان ينتبه جيداً..

سمع الخادم بعضاً من كلمات الشيخ وهو يدخل. نظر الينا وانا بدوري نظرت اليه. عرف ان الحديث يدور عن النباتات السامة كأي حديث يمكن ان يدور بين رجلين يجمعهما بيت دافئ في يوم ممطر. أغلق الباب ثم سار وجلس على مقعد منجد بجانب الخزانة فاختفى رأسه خلف جانبها فلم أعد أرى منه سوى خط ذقنه وانفه وجبهته. جاء ليراقبنا ويستمع إلى أحاديثنا. استمر الشيخ في حديثه وكأن خادمه غير موجود:

ـ هذه النباتات تحيط بالانسان وتعتبر أليفة ويعتني بها باستمرار ولكنها سامة وربما قاتلة.

ـ أعتقد أنني على معرفة ببعضها ـ قلت ـ هناك زملاء لنا من المهندسين الزراعيين يعملون معنا في المصرف الزراعي يرددون باستمرار اسماءها اللاتينية ولكنني سرعان ما أنساها.. إنني أفضل تذكر الأرقام والميزانيات ومبالغ القروض للفلاحين، ولكنني لم يسبق لي ان سمعتهم يتحدثون عن نباتات أليفة من النوع السام.

ـ ألم تسمعهم يذكرون شجيرة الدفلى التي تكثر في حلب؟

ـ الدفلى، ما غيرها؟

ـ نعم، NERIUM OLEANDER فجيمع أجزائها سامة. انها منبهة للقلب، تسبب القيء وخفقان القلب وتحدث شللاً في جهاز التنفس ومن ثم الموت. عليك ان تنتبه إلى شدة سميتها. مرة قام بعض الصيادين بالتهام عصافير مضمومة بأعواد من أغصان الدفلى.

ـ وماذا حدث لهم؟

ـ تسمموا ومات بعضهم. كما ان العديد من أزهار الزينة تعتبر سامة مثل «ست الحسن» أو «البلادونا» التي تحدث ارتفاعاً في الحرارة وهلوسة إذا ما تناولها الانسان، وفي بعض الأحيان تسبب هبوطاً مفاجئاً في القلب. هناك نبات «الداتورا» شديد السمية للماشية والانسان على السواء. ان تناول سبعة غرامات من أوراقه يسبب الموت. أزهار نبات «السكران أو البنج» تزيد من سرعة نبضات القلب وتناول كميات كبيرة منها تسبب الخبل وربما الموت أيضاً. أستطيع ان أعدد لك أيضاً «بصل القنصل» و«الدفنباخيا» و«العايق» و«بذور الخروع».

ـ كيف أعرف أنني تسممت بواحد منها؟

ـ عليك ان تراقب حدقة العين، على الأغلب تتوسع بسبب «الأتروبين».

أردت ان اكتشف ما وضع لي اسماعيل في طعامي وجعلني أشعر بأنني سممت فسألت الشيخ وأنا أنظر باتجاه مكان جلوس اسماعيل:

ـ مرة شعرت بعد تناول طعام مشكوك فيه باسهال شديد.

ـ ربما تناولت كمية قليلة من أوراق اللبلاب، فهي تحدث مثل هذه الأعراض. لو كانت الكمية كبيرة لتهيجت أعصابك بشدة وشعرت بصعوبة في التنفس..

هل شاهدت على جدران البيت الخارجية أغصان اللبلاب؟ لقد وصلت في الليل ولا أستطيع ان أؤكد وجود أية أغصان متسلقة عليها. حاولت التذكر ولكن بدون جدوى.. ربما كانت جدران الواجهة المطلة على الحديقة الخلفية تحتوي على مثل هذه الأغصان. الصمت الطويل دفع اسماعيل إلى استراق النظر الي، من نظرته تيقنت بأنه سممني فعلاً بقليل من أوراق اللبلاب.

توقفنا عن الكلام لأننا، أنا والشيخ، لا نجيد لعبة خداع اسماعيل. كان الوقت يمر، والصمت يلفنا إلا من نقرات حبات المطر

على زجاج النافذة وأصوات هطول الماء من المزاريب في الخارج. كيف يمكنني خداع اسماعيل وجعله يخرج دون ان يعود حتى موعد النوم؟ شعرت بنفسي وانا أزفر ثم راح الضيق يتسلل إلي. نهضت وقد قررت ان أفعل شيئاً. اعتذرت من الشيخ بطريقة وكأنني كنت اعتذر من اسماعيل:

ـ عذراً يا شيخي فأنا مضطر للذهاب إلى الحمام.. خمس دقائق وأعود.

هز الشيخ رأسه يسمح لي وعندما استدرت شاهدت اسماعيل وهو يرنو إلي. خرجت من غرفة الشيخ وما إن أغلقت الباب حتى سمعت حواراً بدأه الخادم ولكنني لم أتوقف لاستمع بل هرعت إلى الحمام. فتحت الباب ثم أغلقته دون أن أدخل، ثم عدت وأنا أسير على رؤوس أصابعي إلى غرفتي. دخلت، ودون أن أغلق الباب أضأت الغرفة ثم رفعت طرف الفراش وأخرجت البندقية وعلبة الطلقات. كسرت البندقية ولقمتها بطلقتين ثم أعدت إغلاقها وهممت بالعودة وإذ بشيء جعلني أتجمد رغم إرادتي. كان هناك ثعبان يشرع في الخروج من تحت سريري. كان لونه اسود، مقززاً ومرعباً. رؤيته هي التي جعلتني أتصلب وأنكمش وأتجمد. كان يتجه نحوي، له عينان بحجم الخرز وجسد بحجم كعكة عيد. يزحف إلي وهو يرفع رأسه فوق أرضية الغرفة. كان قد اقترب مني وكان علي ان أتحرك وإلا لدغني. بحركة مفاجئة (مفاجئة لي أكثر من للثعبان) أنزلت أخمص البندقية فسقط على رأسه بقوة. ضغطت بكل ما أملك من قوة وهو يسوط بجسده إلى اليمين والى اليسار ثم رحت أرفع البندقية وأنهال بها عليه حتى هرست رأسه. لم انتظر حتى يهمد ارتعاش باقي الجسد بل ابتعدت عنه وأنا أرتجف والدم يصعد إلى وجهي ويجعلني أشعر بسخونة لا تطاق. نظرت في المرآة فشاهدت وجهي وقد احمر وشفتاي مزرقتان. أطفأت النور ثم أغلقت الباب بهدوء وأسرعت باتجاه غرفة الشيخ. نقرت على الباب ثم أمسكت البندقية متأهباً لاطلاق النار وعندما سمعت صوت الشيخ

الضعيف يأذن لي، دخلت وبقفزة واحدة أصبحت أمام اسماعيل الذي كانت المفاجأة قد جمدته.

سددت البندقية إلى رأسه بطريقة خرقاء تعلمتها من أفلام السينما. قلت له وأنا أكز على أسناني لأبين له تصميمي على قتله إن هو لم يستجب إلى ما آمره به:

ـ سوف تخرج الآن يا اسماعيل وسوف تدعنا بمفردنا، أنا لا أطيق البقاء معك في غرفة واحدة.

ـ انت مجنون ـ قال ـ أنزل البندقية.

ـ لن أنزلها، هل فهمت ما قلته لك؟.. وإياك ان تحاول اقتحام الغرفة.

ـ كل ذلك من أجل الحكاية؟

ـ نعم، كل ذلك من أجل الحكاية.

أشعرته بأن اصبعي يتلمس الزناد فنهض. كان ينفث السم وهو يرمقني بغضب واحتقار. ابتعدت عنه قليلاً كي لا يفاجئني بحركة يخلصني بها من البندقية وأشرت بها إلى باب الغرفة. استدار ومشى. قال للشيخ الذي كان قد اصفر ويرتجف بطريقة بائسة:

ـ انظر إلى ماذا يفعل ضيفك؟

ـ اترك الشيخ ـ أمرته ـ إلى الخارج.

خرج. اقتربت من الباب دون ان أنزل البندقية وطلبت منه ان يغلقه. أمسك بالمقبض ورمقني بنظرة لا أريد أن أصفها هنا ثم جذبه، وقبل ان ينغلق بصق باتجاهي فأصابني رذاذه في وجهي ثم انصفق الباب. لم أهتم ببصاقه الذي يلوث وجهي بل أسرعت وسحبت المزلاج ثم أدرت مقعدي بشكل أستطيع، إن جلست فيه مراقبة الباب والنافذة معاً وجلست.

هذا ما حصل بسرعة شديدة وبطريقة أدهشتني أنا نفسي أكثر

مما أدهشت الشيخ واسماعيل. كان علي أن أبرر ما فعلته للشيخ. كان قد نسي ان يمسك يديه فراحتا ترتجفان بقوة، أما وجهه فقد كان، كما قلت، مصفراً وبائساً وزاد نحوله:

ـ أرجو المعذرة يا شيخي الجليل. كان علي ان أفعل شيئاً. شاهدته بنفسك كيف صمم على منعي من الاستماع إليك. لن نضيع وقتنا في الحديث عن النباتات السامة كي نخدعه.. أرجو المعذرة منك مرة أخرى. تستطيع الآن ان تعود إلى الحكاية، فأنا متشوق لسماعها كلها، فقد أسرتني هذه الحكاية وكل ما أفعله هو في سبيلها.

5

من محطة القطارات إلى سينما روكسي

قال الشيخ بعد ان هدأ روعه وزال الاصفرار عن وجهه:

ـ أنا لا أدين تصرفك رغم حزني على اسماعيل، فالحكاية يجب ان تحكى على كل حال، ولقد وصلنا إلى الجزء الذي يخصني أنا نفسي.

ـ يخصك؟ ـسألت بلهفةـ إنني متشوق للاستماع، فطالما تساءلت عن علاقتك بقصة وداد، ثم إنني أتوق الى حل لغز اسماعيل.

ـ انه ليس لغزاً، كل ما هنالك انني لم أبدأ القصة من النهاية، أي لم أحكها معكوسة.. لو كنت فعلت لما فهمتها ولكنت طالبتني باعادتها بالشكل الصحيح.

ـ إنني متلهف للاستماع أيها الشيخ الجليل، وأرجو ان لا تأبه لاسماعيل ان هو حاول مضايقتنا. فقال الشيخ:

ـ سوف أبدأ بقصة عمي ابراهيم باشا وزوجته وابنته البدينتين..

كنت قد سكنت في بيت عمي ابراهيم باشا. لم يكن عمي باشا كما قد يحسب بعض الناس ، بل كانت كلمة باشا تلصق باسمه كلازمة اعتاد الجميع على استخدامها، وأول من استخدمها كان أبي

ولا أعرف السبب، فعمي كان يحب أن يناديه الآخرون باسمه مضافا إليه ذلك النعت. ولكن أغلب الظن هو أن أبي الذي كان يكبر عمي بخمس سنين، كان يدلله فيناديه بالباشا ثم اعتاد على ذلك فراح يصفه بها حتى في غيابه، وعندما كان عمي ابراهيم يتحدث بالهاتف كان يعرف نفسه بذات الصفة.. وهكذا عرف في كامل المدينة باسم ابراهيم باشا.

كان على والدي ووالدتي أن يسافرا إلى باريس بالباخرة وكانا يودان أخذي معهما ولهذا الأمر سجلا اسمي في وثيقة السفر إلا أنني وقبل موعد انطلاق الباخرة من ميناء بيروت بأسبوعين، أصبت بالتيفوئيد ولزمت الفراش. كان جسمي نحيلا، نحيلا جدا. وعندما مرضت كادت أمي أن تموت عوضا عني أو معي على الأقل، فأنا أبنها الوحيد والتيفوئيد مرض خطير لا يقاومه إلا الرجال الأقوياء... ولكن ولدا نحيلا ضعيفا مثلي لن يستطيع المقاومة وسيكون مصيره الموت... وهكذا، كان المقربون إلينا يتهامسون وقد وصلت هذه الهمسات إلى مسامع أمي.

وبما أنها كانت تعرفني وتعرف قوتي جيدا فقد صدقت تلك التنبؤات، فانهارت وكان عليهم أن يعتنوا بها وبي في آن واحد. ولكني كذّبت كل الأقاويل والنصائح ولم أمت، حتى أن الطبيب اليهودي الذي كان يشرف على علاجي (و الأصح أن أقول يشرف على انحطاطي ومسيري نحو الموت) استغرب عودتي إلى الحياة بعد أن كان يؤكد عكس ذلك. كان متأكدا من موتي ولهذا راح يعتني بأمي أكثر مما كان يعتني بي، وعندما أفقت من غيبوبتي وخفت الحمى قلب شفتيه ورفع كتفيه مستغربا بينما كان ضغط أمي في أدنى درجاته ولم يشفها ويجعلها تنهض من سريرها سوى مشاهدتها لي وأنا اقترب من سريرها على مهل باحثا عنها، حينها عاد ضغطها إلى طبيعته وابتسمت.

ولكن أبي كافأ اليهودي (الدكتور بيخار) على جهوده جيداً، فقد حسب أنني تخطيت الخطر على يديه.كافأه بشكل مضاعف. من أجلي

ومن أجل أمي رغم أنه لم يكن له يد في الحالتين. ولكن الطبيب قدم لأبي نصيحة طبية تساوي فعلا المكافأة التي تلقاها وأكثر.. أكثر بمئات المرات. فقد نصحه بأن لا أسافر معهما إلى فرنسا خوفا من انتكاس حالتي الصحية بشكل أقوى حينها سيقضي علي التيفوئيد لا محالة.

كان عليهما السفر من أجل عرض أمي على أطباء فرنسا الممتازين...فقد كانت تعاني دائما من انخفاض الضغط المفاجئ ومن داء الكآبة. وبما أنهما كانا قد حصلا على موافقة سلطات الانتداب الفرنسية على السفر، وبما أن الباخرة كانت ستنطلق بعد يومين من ذلك الزمان، فقد عزما على السفر وتركي في بيت عمي حتى يعودا. ولكنهما لم يعودا، فقد غرقت الباخرة في منتصف المسافة بين بيروت ومرسيليا وهكذا بقيت حيا بفضل داء التيفوئيد ونصيحة الطبيب اليهودي.

كنت قد انتقلت إلى بيت عمي بصحبة خادمتنا خديجة.كان عمري آنذاك اثنتي عشرة سنة وكانت خديجة في الخامسة والعشرين. كانت امرأة لا مثيل لها. متزوجة من رجل قاس وغضوب.كانت ذات جسد قوي ومع ذلك كان زوجها يضربها بشدة حتى يزرق جسدها. تنحصر مشكلتها في أنها لم ترزق له بأطفال. هذه هي مشكلتها الكبرى التي عانت من أجلها قسوة زوجها وبطشه. لم يكن يريد أن يطلقها رغم رجائها الحار له لكي يفعل (كانت طيبة مثل عصفور) وعندما تزوج من أخرى تنفست الصعداء فقد حسبت بأنه سينشغل عنها بزوجته الجديدة، خصوصا وأن بطنها انتفخ بعد أشهر قليلة من زواجهما. ولكن خديجة كانت واهمة. فقد استمر زوجها في ضربها تساعده في ذلك ضرتها، وعندما جاءت إلى بيتنا للمرة الأولى، كان وجهها وجسدها مزرقين من شدة الضرب ، حتى أن أبي كاد يذهب إلى بيتها لمحاسبة زوجها على ذلك.. أما أمي فقد بكت لمنظرها ومن ثم تم استخدامها فورا،

وأصبحت تبيت عندنا غير آبهة بتهديدات زوجها التي كان يطلقها من الرصيف المقابل لبيتنا.

أصبحت خديجة قضية والدي الخاصة. عرض على زوجها أن يطلقها لقاء مبلغ كبير من المال، لكن الرجل أبى أن يفعل، فأرسل له دركياً يهدده بالسجن،كذلك لم ينفع الأمر. وفي أحد الأيام نظرت خديجة خلسة إلى الرصيف المقابل، حيث كان يعسكر طوال النهار فلم تجده. مرت عدة أيام دون أن تراه. انشغل بال خديجة على زوجها (تصور!!). هل حدث له مكروه؟..كأن راحة بالها لا تتأمن إلا بالتأكد من سلامة زوجها الذي اعتاد على ضربها بقوة حصان. رجت خديجة والدي ليرسل من يسأل عنه. كان أبي يضحك من تصرفاتها وطيبتها. أي إنسانة هذه؟ كانت فعلا غريبة وطيبة. ولكن المفاجأة كانت عظيمة، فقد علمنا، بطرق والدي الخاصة، أن زوج خديجة قد مات... نعم مات. فقد قتلته زوجته الجديدة، في ثورة غضب، بأن غرزت في صدره سكين المطبخ فدخلت القاتلة السجن وحكم عليها بالإعدام، في حين جاء أخوها الأكبر وأخذ طفليها (أحدهما كان رضيعا) وأحكم سد باب البيت بالمسامير.

بكت خديجة طويلا حزنا على زوجها، حتى أنها قعدت العدة كاملة لا تقابل فيها أبي أو أي رجل آخر مهما كان. عاشت في بيتنا كأنها واحدة منا فلم يبق لها في الدنيا أحد سوانا. وعندما مات أبي وأمي غرقا أغمي عليها من الحزن وعندما أفاقت قالت لي :

ـ لم يبق لي أحد في الدنيا سواك.

بعد انقضاء اسبوع على المصيبة، استدعاني عمي. قال لي إنه يريد أن يتكلم معي على انفراد. جلست قبالته وأنا أجاهد لكيلا أنظر في عينيه مباشرة، فقد كنت أهابه كثيراً ولا أذكر انني قد أحببته. هذه هي المرة الأولى التي أعترف فيها بذلك.. حتى أنني لم أقل ذلك لخديجة التي تجيد حفظ الأسرار وصناعتها، ولكنها عرفت ذلك من تلقاء نفسها حين عدت إلى غرفتنا بعد تلك المقابلة مباشرة.

كان أبي وعمي يملكان مصنعا للصابون البلدي (مصبنة) ورثاه عن أبيهما، أي عن جدي الذي رحل عن الدنيا مبكرا.كان المصنع من أهم مصانع البلد وأشهرها. أما صيت صابونه فقد ذاع حتى القاهرة واسطنبول. ويقال أن الناس كانوا يدققون في مكعبات صابون الغار التي يودون شراءها بحثا عن الختم الدائري الذي يحمل اسم عائلتنا (الأغيورلي).

أما المصنع فقد كان عبارة عن بناء واسع وقديم ينقسم إلى ثلاثة أقسام. قسم لخزن المواد قبل التصنيع، وقسم لطبخ الصابون ويحتوي على وعاء هائل تشعل تحته النيران، وهناك يسكب ثم يترك ليبرد ثم يقطع إلى مكعبات متساوية الأضلاع. وأخيرا القسم الذي تصف فيه المكعبات فوق بعضها البعض على شكل هرم وتترك بينها فراغات للتهوية ليجف الصابون جيداً ومن ثم يصبح جاهزا للتسويق.

كنت أسعد كثيرا حين كان والدي يأخذني معه إلى المصنع، فقد كنت أحب تنشق رائحة الغار العالقة في كل أرجائه. وقد كنت معجبا أكثر بمنظر أهرامات الصابون وكنت أتجول بينها ولا أتعب من التمعن فيها. وفي كثير من الأحيان كنت أتسبب في هدم جزء من هذه الأهرامات. أما أحب الأعمال إلي فقد كانت عملية ضرب الختم على مكعبات الصابون قبل بناء الهرم بها ..كنت أصر على المشاركة فيها رغم ضعف قوتي، فهي تحتاج إلى ذراع قوية تنزل بالختم الثقيل على سطح المكعب بقوة محسوبة. وعندما كبرت وأصبحت رجلا عرفت كم كنت مدللا على أبي وعلى عماله، فقد كانوا يسايرونني ويعطونني الختم عن طيب خاطر فتسوّق تلك المكعبات بنقوش غير واضحة. أما عندما يكون عمي ابراهيم باشا في المصنع فإن كل شيء يتغير، فحينها أجلس صامتا لا أجرؤ على الحركة. كان يصرخ في العمال ويكره الأطفال ويعتبرني حشريا وغبيا.

أقسم أبي وعمي أمام جدي وهو يحتضر على عدم تقسيم

المصنع وعلى إبقائه ملكا لسلالته إلى الأبد . كان عليهما أن يجاهدا من أجل ذلك وبكل الوسائل. كان عليهما من أجل تنفيذ القسم أن يتزوجا من أختين وينجبا صبيان وبنات لتزويجهما من بعضهما.. وهكذا لعدة أجيال. كان على أحدهما أن ينجب ذكورا وعلى الآخر أن ينجب إناثا.. أما إن أنجبا جنسا واحدا (ذكورا فقط أو إناثا فقط) فعليهما ان يتزوجا من جديد، وأيضاً من أختين.. إذن، كان عليهما أن يفعلا المستحيل للإبقاء على سلالة الأغيورلي والحفاظ على ختم الصابون المميز والذي كنت أمرح حين أضرب به مكعبات الصابون الطرية .

وكما شاء جدي ولدتني أمي ذكرا وولدت امرأة عمي ،حميدة خانم ، أنثى أسموها جليلة. ورغم أن أمي وامرأة عمي أختان من أم واحدة وأب واحد إلا أنهما كانتا مختلفتين جذريا. فقد كانت أمي نحيلة وعاطفية وطيبة القلب بينما كانت الأخرى بدينة وميتة الإحساس وغبية . كان وزنها يتجاوز المئة كيلو غرام وربما وصل وزنها في تلك الأيام التي انتقلت فيها أنا وخديجة للعيش معهم إلى مئة وعشرين كيلو.

وبسبب بدانتها الهائلة فقد كانت بطيئة الحركة ولا تقوى على السير دون مساعدة من أحد. كانت تفضل أن تبقى جالسة كي لا تبذل أي جهد في الحركة. وقد صنعوا لها مقعدا خاصا يحتويها ، وكان من الصلابة بمكان بحيث يتحمل ثقلها الرهيب . ومع ذلك كان يئن حين تحرك مؤخرتها إلى هنا وهناك . وعندما كانت تضطر للنهوض لقضاء حاجة أو للذهاب إلى النوم ، كانت تنادي على عمي ابراهيم باشا أو على الخادمة لمساعدتها. ولكن عمي توقف عن المجازفة في رفعها أو إسنادها خوفا من الإصابة بالديسك (كان ظهره يؤلمه)ثم إنهم اضطروا للبحث باستمرار عن خادمة تخدمها وتخدم البيت بسبب هروب الخادمات المستمر بعد أسبوع واحد من بدء الخدمة في بيت عمي. ولهذا الأمر اضطر عمي لتوظيف عدة

خادمات في آن معا، اثنتان لخدمة زوجته وواحدة لخدمة باقي البيت.

كانت عيوش وأمون، وهما خادمتا حميدة خانم الخاصتان، قويتي الجسم ومعتادتين على العمل الشاق، فإحداهما وهي أمون كانت تعمل في السابق في مقلع لتقطيع الأحجار. كانتا تلازمانها منذ الصباح، من ساعة استيقاظ امرأة عمي وحتى موعد نومها حيث تضعانها في فراشها ومن ثم ترحلان إلى بيتيهما.

كانت كتلة الشحم تلك بحاجة أيضا إلى من يساعدها في الاغتسال وفي التجفيف وفي ارتداء ثيابها وترتيب شعرها. أما حين أصبحت واحدا من سكان البيت، فقد كنت أجد متعة كبيرة في مراقبة امرأة عمي، التي هي في نفس الوقت خالتي، التي تشبه جبلا من اللحم الأبيض المتهدل. وفي إحدى المرات رأيتهما يساعدانها في ارتداء سروالها الداخلي، فلم يكن في استطاعتها ارتدائه بنفسها لعدم تمكنها من الانحناء لالتقاطه. ولكن الذي أثار قرفي إلى أقصى حد هو رؤيتي لها صدفة وهي جالسة على وعاء التغوط الذي يستخدمه الأطفال. كانت تجاهد للخروج. وقد عاينت الوعاء فيما بعد فوجدته واسعا فاستنتجت أن عمي كان قد طلب من أحدهم صنعه على مقاس مؤخرة زوجته.

كل من يشاهدها يستغرب كيف تمكنت هذه المخلوقة من أن تلد أبنتها جليلة.كان فخذاها ملتصقين ببعضهما لضخامتهما. فكيف إذن ولدت ابنتها ؟ هذا السؤال طرحته على نفسي كثيراً حين عرفت صدفة أن الأطفال لا يخرجون من سرة امهاتهم، كما أخبرتني خديجة حين ألححت عليها في السؤال (في واقع الأمر سمعت أيضا بعض صديقات امرأة عمي يسألنها هذا السؤال وهن يتضاحكن). والغرابة تكبر وتتعاظم حين تشاهد جليلة... ابنة عمي وخطيبتي.كانت تصغرني بثمانية أعوام، أي أنها كانت في الرابعة حين سكنت في دارهم. كانت جليلة بدينة كأمها، مرشحة لأن تكون مثلها في المستقبل إن لم تكن أكثر منها. كانت أيضا كسولة وأكولة،

تلتهم مقادير هائلة من الطعام في وجبة واحدة. لا تتحرك ولا تلعب. تبحث باستمرار عن مكان للجلوس فيه. ثم إنها كانت غبية وميتة الإحساس كأمها وأكثر ما كان يغيظني هو أنني ما صادفتها آنذاك إلا وكانت جالسة على وعاء التغوط الخاص بها، تجاهد للخروج. محمرة الوجه. فقد ورثت عن أمها أيضا كسل الأمعاء.

هناك حسنة واحدة في امرأة عمي حميدة خانم، فقد كانت تهوى الطرب. لا أعرف من أين أتى لها هذا الهوى، لكنها كانت سمِّيعة اسوة بأشهر خانمات البلد آنذاك. ربما كانت تقلدهن لمجرد التقليد، ولكنها كانت تحب السماع، وتطرب وتهتز وتتمايل للموسيقى العربية الجيدة.

كان بيت عمي من البيوت الأجمل في المدينة. فقد ابتناه جدي لتسكن فيه العائلة، ولكنه مات قبل أن ينجز. كان من طابقين يصل بينهما درج داخلي أنيق. كانت غرفه واسعة وخاصة في الطابق السفلي، الذي كان يتكون من ثلاث غرف للنوم وحمامين ومطبخ وثلاث غرف واسعة متصلة بعضها ببعض بابواب خشبية إذا ما طويت تحولت الغرف الثلاث إلى صالة كبيرة للمعيشة والاستقبال. وفي الأيام العادية كانوا يبقون الأبواب، التي كانت مساحتها بمقدار مساحة الجدار لو كان مبنيا، مغلقة ويكتفون باستخدام الغرفة الأولى التي كانت قريبة من المدخل وغرف النوم، وبالتحديد مقابل غرفة نوم امرأة عمي، وفي كثير من الأحيان، بل غالبا ما كنت أرى ما يجري في غرفة نومها وأنا جالس في غرفة المعيشة، فقد اعتادت على أن تبقي باب غرفتها مشرعا طوال الوقت ولا يتم إغلاقه إلا في وقت النوم. أما الطابق العلوي فقد تم إهماله تماما لعدم تمكن حميدة خانم من الصعود إليه، وهناك أعطوني غرفة خاصة تقع فوق غرفة نوم عمي وتشرف على حديقة المنزل وعلى الشارع. وبسبب إهمالهم للطابق العلوي فقد تركوا خديجة تحتل غرفة أخرى بجانب غرفتي .

كان للبيت شرفات واسعة وتطل على جميع الجهات وخاصة

على الحديقة الأمامية وعلى الشارع. وكان يحلو لعمي وامرأة عمي الجلوس في إحداها صيفا يحجبهما عن رؤية الشارع أشجار السرو والدفلى والزنزلخت، التي كانت تخشخش أوراقها حين تهب الرياح غربية طيبة فتثير في النفس الشجن.

كان عمي ابراهيم باشا يجلس في الطرف القصي من مائدة الطعام حين دخلت عليه في غرفة الجلوس بعد أن أرسل يدعوني إليه. جلست في الطرف الآخر وإلى يساري كان الباب مشرعا فكنت أرى امرأة عمي في غرفتها. كان الوقت بعد العصر بقليل، وكان يوم جمعة، ففي مثل هذا اليوم لا ينزل عمي عادة إلى المصبنة، بل يمكث في البيت بعد أن يعود من الصلاة. وقد يزوره بعض الأقارب البعيدين.كان قد انقضى أسبوع على المصيبة التي أصابتني بورود خبر غرق باخرة أمي وابي. كنت مشوشا وحزينا، ومما زاد في حزني تصوري بأنني سأعيش مدى العمر في هذا البيت وثقتي بأنني ، وبضربة قدر قاصمة، أستُبْدِلَتْ أمي النحيلة والحنونة بزوجة عمي البدينة والغليظة.

لم أكن حتى يومها، أصدق ما جرى. حتى البكاء المر لخديجة لم يؤكد لي بأن البرقية التي تلقاها عمي والتي تنبئ بغرق الباخرة صحيحة، وبالتالي فقد فقدت إلى الأبد أمي التي أرادت أن تموت معي حين أصبت بالحمى. ولهذا السبب، فحين جلست قبالته كنت أتوقع من عمي تكذيب الخبر والاعتذار نيابة عن مصلحة التلغراف، خصوصا وأنه كان يمسك بمظروف وهو ينظر إلي بثبات منتظرا أن أنهي دخولي وجلوسي. ولكي لا أشطح بخيالي إلى توقعات سارة، قال بصوته الغليظ والمنخفض، محطما التكات الرتيبة لتلك الساعة التي تفوقني طولا والمستندة إلى جدار غرفة المعيشة:

ـ أنت تعلم علم اليقين، يا ابن أخي، بما جرى لأبيك وأمك.. رحمهما الله.

صمت ليضفي على كلامه عن الموت مهابته اللازمة. شكرته في

سري لأنه صمت، فقد أخذ مني أملي الذي كنت أتمسك به. لقد تأكدت إلى الأبد بأنني أصبحت يتيما وصمته أتاح لي فرصة لإعادة النظر بتوقعاتي، وبما أنني كنت أكرههم جميعاً فقد تمنيت أن ينبئني بأنه سيطردني من البيت أنا وخديجة، لنعيش وحدنا في بيت أبي وأمي الذي أصبح بيتي. ولكنه تابع قوله دون رحمة:

ـ وقد حان الوقت لأقرأ لك وصية أبيك.

أخرج نظارته ووضعها فوق انفه، فلم تكن لها حمالتان توضعان فوق الأذنين كما هو حال نظارات اليوم. قرأ الوصية أما أنا فقد استمعت بصمت.

كان كل ما فهمته من الوصية هو أن علي أن أعيش في بيت عمي حتى أكبر، وأن علي أن أتزوج جليلة لكي لا تذهب أية حصة من المصبنة إلى شخص غريب. وأن عمي سيكون الوصي علي وعلى أملاكي (نصف المصبنة وبيت أبي). أما إن رفضت الزواج من جليلة فإنني لن أرث شيئا على الإطلاق.

لقد أورثوني جليلة. هذا هو الأمر. صمت عمي وأنزل نظارته عن عينيه، ثم أعاد الوصية إلى الظرف ونهض لإعادتها إلى الخزنة بجانب الساعة العملاقة. ظللت صامتا، ناظرا إلى المقعد الذي كان يجلس عليه. كنت مقهورا، ولكنني كعادتي (عادة ورثتها عن أمي) لم أكن أظهر انفعالاتي ولذلك لم أعبر بأي شكل عن مدى كراهيتي لعمي ولزوجته وابنته جليلة. لفت نظري شيء ما إلى يساري فاستدرت بهدوء. كانت جليلة جالسة على وعائها تجاهد لتغوط.كانت تنظر إلي. نظرت إلى وجهها المحمر والمنتفخ. خلفها كانت أمها جالسة في مقعدها الواطئ تهتز وهي تضحك لكلمة قالتها لها إحدى خادمتيها.

كانت هناك نافذة ضيقة تحت سقف الغرفة تطل على الدرجات الأخيرة في الطابق العلوي.كل من ينزل من هناك إلى الطابق السفلي يرى ما يجري في غرفة المعيشة، وكل من ينظر من تحت يرى من

يصعد إلى الطابق العلوي. تمنيت أن أنظر إلى النافذة لأبعد نظري عن جليلة، فأرى هناك خديجة. كنت أتمنى التعلق بعينيها الحنونتين. نظرت، لأول مرة صدقت تمنياتي. كانت هناك، منحنية على درابزون الدرج تحاول دعمي بعينيها الباكيتين.

صرفني عمي فخرجت. وعندما وصلت إلى الأعلى تلقتني خديجة بكلتا يديها وضمتني اليها. وفي غرفتي رحت أبكي وأنا أردد أكرهه...أكرههم... بينما كانت تجاهد لكي تسد لي فمي.

مرت الفاجعة بشكل سلس، بالنسبة إلي على الأقل، فقد كنت صغيراً، وكما قلت فلم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة بعد. أما خديجة (كانت تحب ان أناديها خدوج) فقد كنت غالباً ما أضبطها وهي تبكي. كنت أعرف بأنها تبكي موت سيدها وسيدتها، فقد كانا طيبين معها. حينها كنت أقترب منها وأحضنها، فتتلقاني كما أصبحت أحب ان تتلقاني. صارت تحضنني بيديها وتسند رأسي إلى كتفها فيلامس وجهي عنقها. كانت تستمر بالبكاء لفترة قصيرة ثم تهدأ، ونبقى هكذا لمدة تطول.

كنت أحب رائحتها. حتى أمي لم تكن تمتلك رائحة مثلها. رائحة قريبة من رائحة القرنفل. لم أعرف حتى اليوم تفسيراً لوجود تلك الرائحة. كنت، حين تحضنني، أشعر بالسلام.. بالهدوء والسكينة. لم يكن هناك شيء يعوضني فقدان أمي مثل رائحة خدوج، كما لا يوجد أي مكان في هذا العالم يشعرني بالسلام كما كنت أشعر ووجهي مركون في ما بين كتفها وعنقها. أما يداي فكانتا تشدان كتفيها إلي فتلامسان صدري الناحل بينما يداها تحيطان بي.

عندما كنا في بيتنا لم تكن تحضنني. ولا مرة فعلت ذلك. كما أن أمي لم تكن تفعل، بل كانت تسمح لي بان أدس رأسي في حضنها وأنا مستلق على ظهري وتشرع في العبث بشعري والمسح على جبيني بيد حانية. وعندما كانت خديجة تراني على هذه الحالة،

كانت تضحك وتدعوني بالمدلل، وحسب اعتقادها فإن الولد الوحيد لأبويه يصبح مدللاً، وهذا من حقه. أما عندما عدت في ذلك اليوم من مقابلة عمي، فقد احتضنتني لأول مرة. ولكي لا نبقى على الدرج أدخلتني إلى غرفتي ثم جلست وأجلستني في حضنها فدسست وجهي في ذلك العرش بين كتفها وعنقها. كنا نبكي معاً ثم توقفنا عن البكاء ولكننا ظللنا متلاحمين. شعرت حينها براحة عظيمة.. بسكينة تزيل عني قهري وشعوري بالكراهية نحو عمي وأسرته. وقد تملكني حينها شعور ناعم وغريب حين كان صدري يلامس ثدييها. في البداية كانت تحاول ابعادهما عني، فكلما اقتربت منهما كانت ترتد إلى الوراء، ثم تنسى نفسها فتريح ظهرها فألامسهما من جديد.. حاولت كثيراً ان ترتد إلى الخلف ولكنها في النهاية نسيتهما على صدري.

في ذلك اليوم اكتشفت رائحة القرنفل وجوز الطيب العالقة في بشرتها.

كانت تمتلك جسداً رشيقاً. طويلة، حنطية البشرة. لم تكن نحيلة مثل أمي ولا بدينة مثل امرأة عمي. يمكن أن أصفها بأنها كانت ممتلئة. فعندما كانت تحضنني لتهدئني كنت أمرر يديّ على ساعديها وكتفيها وظهرها. لم أكن اتحسس عظامها. كانت تكسوها طبقة رقيقة من اللحم البض والمريح. أما ثدياها فقد كانا قريبين مني في كل مرة أكون فيها ملتصقاً بها.

هذا الجسد الحميم واللين كان يتلقى بصمت ضربات زوجها قبل أن يقتل. كنت قد كرهته حين رأيتها أول مرة والبقع الزرق والخمرية متناثرة على وجهها وعنقها، وأعتقد بأنها كشفت لأمي في الحمام عن الكدمات التي صنعها لها زوجها في باقي جسدها. ربما لهذا السبب أشعر بعطف كبير نحو جسدها مثلما هي تشعر بعطف مماثل على يتمي المفاجئ.

لم نكن نتحدث كثيراً، فهذه هي عادتي، حتى ان عمي شك في

سوية شخصيتي حين كان يلاحظ صمتي الطويل الذي قد يستمر لأيام عدة. كان يشاهدني هنا وهناك، في أرجاء بيته الواسع، أنظر إلى كل الأشياء وأتعامل مع الجميع بصمت مطبق، هذا الصمت الذي وجدت فيه خدوج كلاماً بليغاً، كما قالت لي حين كبرت، وبسبب كرهي لاسرة عمي فقد ابتعدت عنهم ولم أكن أجد ملاذاً إلا في وحدتي وفي قربي من خديجة.

بعد وقت قصير بدأت أخاف الابتعاد عنها، خصوصاً في الليل، فقد كانت تأتيني كوابيس غريبة عن البحار والغرق والاختناق ثم الموت. كنت أستيقظ من نومي وأنا أموء كالقطط، خائفاً مما كنت أراه في المنام. متصلب الجسد لا أقوى على دفع اللحاف والنهوض لأخلص نفسي مما كنت خائفاً منه. لهذا قلت لها مرة حين كانت تهيئني للنوم:

ـ أنا خائف من الليل، بدأت أخاف من العتمة.

توقفت عن الحركة وقربت وجهها من وجهي وسألتني هامسة:

ـ مم تخاف؟ لم تكن كذلك فيما مضى؟

ـ أرى أحلاماً مزعجة.

ـ مثل أي شيء؟

ـ بحار وزوارق وكهوف.. وغرق وناس يموتون.

هزت رأسها، فهمت ان حادثة غرق والديّ تسبب لي الكوابيس. قالت وهي تشجعني:

ـ ليس بك حاجة، في الماضي كنت تنام وحيداً في غرفتك.

صمت وأنا حزين. كنت فعلاً أريدها ان تنام عندي.. لم أعد أطيق ان أترك وحيداً. نظرت إلي فوجدتني حزيناً. شكلي وأنا أنظر إليها جعلها تقترح:

ـ هل تريدني أن أنام عندك؟

هززت رأسي دون حماسة. تبسمت لي. ربما وجدتني تعساً إلى حد عدم الاستجابة بفرح على اقتراحها فراحت تدغدغني وهي تقبلني، ثم رحنا نتقلب على الفراش ونحن نضحك.

أطفأت النور واندست إلى جانبي. كنت بعيداً عنها لأنني كنت ملتصقاً بالجدار. أمسكت بي ودعتني للاقتراب منها. وضعت يدها تحت رأسي وضمتني إليها ثم نامت.

ظللت مدة لا أقوى على التحرك، استنشق عطرها الغريب ووجهي تحت ذقنها. كنت اخاف أن أغضبها، كان ذلك غريباً طبعاً. كنت خائفاً من ان أتحرك فتبتعد عني أو تستدير إلى جنبها الآخر. غفوت وأنا على هذه الحالة. لم أحلم تلك الليلة بأي كابوس، فوجودها الناعم ودفؤها ورائحتها الحرّيفة طردت الكوابيس بعيداً. أما في الصباح فقد انسرت عندما أخبرتها بأثر نومي إلى جانبها فوعدتني ان تنام عندي الليلة أيضاً.

رحت انتظر حلول الليل طوال النهار. كنت أكره الليل فأصبحت أحبه وانتظر قدومه. وعندما حل أخيراً وجدت نفسي بمزاج رائق، حتى أنني ترنمت دون أن أقصد بأغنية شائعة كانوا يرددونها آنذاك. ابتسمت خديجة ولعبت بشعري وهي تجهز الفراش، ثم طلبت مني ان أندس فيه. هذا ما فعلته بطيب خاطر ولربما تبسمت أيضاً. تركت النور دون أن تطفئه ثم اندست إلى جانبي. اقتربت منها دون ان تطلب مني ذلك وعندما قربت وجهي من جيدها تحركت هي لتدعني ألتصق بها.

كانت تلك المرة الأولى التي يلتصق فيها جسدي النحيل بجسدها اللحيم واللدن. لم تغضب، بل راحت تعبث بشعر رأسي. كانت تمرر أصابعها فيه ثم تمسح بيدها على محيطه حتى تعود لتغوص أصابعها في الشعر الغزير من جديد. همست تقول:

ـ لقد سمعت وصية ابيك المرحوم.. هل أنت بائس بسببها؟

فقلت وأنا استمتع برائحة القرنفل:

ـ نعم.. إنني بائس، لم يقل لي أحد من قبل أن علي أن أتزوج من جليلة حين أكبر.

ـ لا تفكر كثيراً في هذا الأمر.. سوف تكبر الفتاة وتصبح لطيفة.

ـ أنا لا أحبها ياخدوج.. إنها ثقيلة الدم، بدينة جداً، ثم إنني أكرههم جميعاً.

نهرتني بأن ضغطت يدها على رأسي فغاص انفي أكثر في إبطها. سمعتها تضحك بزفرة واحدة ثم قالت:

ـ إياك ان تقول مثل هذا مرة أخرى.. إنه عمك، مثل أبيك.

ـ ولكنني أكرهه، اشعر بأنه لا يحبني.. أخاف من عينيه حينما تتوسعان وتجحظان.

صمتت. تنهدت فصعد صدرها ثم هبط. كانت ترتدي ثوباً قطنياً للنوم ولكن ثديها الأيسر لمس أذني بنعومة. رفعت يدي وأحطتها بها فأصبح بطنها اللين تحت يدي، عندها حركت رأسها. خمنت بأنها كانت تحاول النظر في عيني ولكنها لم تر سوى شعر رأسي، فقد كان وجهي مدفوناً تحت إبطها.

مر وقت. ربما كانت تفكر بخطوتي تلك لتجد تفسيراً لما أفعل. لماذا التصق بها ثم أتجرأ وألمسها في بطنها عند السرة؟ أمسكت يدي برفق وأعادتها إلى مكانها على خاصرتي، ثم تحركت فابتعدت عني قيد شعرة ولكنها أبقت على رأسي في مكانه. لقد أرعبتها على ما أظن.

في اليوم التالي كانت تنظر إلي بعينين جديدتين. لمحتها عدة مرات وهي تلقي علي نظرات مستكشفة. تنظر لتعرف فيما إذا كنت أحدق فيها حين تستدير أو تنحني.. هل كنت أراقبها؟.. انشغل بال المسكينة. أحسست بشيء من الذنب، فلم أكن أعي ما فعلته تماماً، بل كنت أظن بأنني أتيت ذنباً طفولياً مثل ان أكون قد أصبحت غليظاً أو ثقيل الدم.. كان هناك شك في داخلي حول دوافعي. كنت أظنها تشك

في ذلك ولهذا لم أحسب حسابه. كان أحد هذه الدوافع هو أنني كنت أنسر أثناء الاحتكاك بجسدها، فقد كانت بالنسبة لي شيئاً من الأم وكثيراً من امرأة يود الصبي الذي كنته ان يلتصق بها.

حزنت للنتيجة. كنت أرتاح لنظراتها فأصبحت أهرب منها، خاصة وأنها توقفت عن الدخول معي إلى الحمام لمساعدتي في الاستحمام. اصبحت تدخلني وتشرح لي كيف استحم بمفردي. أصبحت تقول لي إنني أصبحت كبيراً وبإمكاني الاعتماد على نفسي. صرت استحم وانا أبكي. صارت دموعي تختلط بالماء الساخن الذي كنت اسكبه على رأسي بالطاسة النحاسية، وعندما طرقت باب الحمام، في المرة الأولى، طلباً للمنشفة، حسبت بأن احمرار عيني كان بسبب رغوة الصابون. ولكنها كعادتها، احتضنتني حينما وجدتني حزيناً. احتضنتني فحسب، دون ان تدعني التصق بها.

أخذتني خديجة بأمر من عمي لتسجلني في المدرسة القريبة من البيت. كان علي ان أتابع تعليمي بعد انقطاع دام شهراً بسبب صعوبة الوصول إلى مدرستي القديمة، فقد كان بيتنا يبعد كثيراً عن بيت عمي وكذلك مدرستي الأولى التي كانت على مسافة بنايتين من بيت أبي.

كنا قد نسينا المدرسة بسبب برقية غرق الباخرة، وكنت أنظر من نافذة غرفتي إلى الشارع فأرى الأطفال بالثياب الرسمية السوداء، حاملين حقائبهم، يتراكضون إلى المدرسة أو عائدين منها، ولكن دون حماسة لأن أفعل مثلهم، فقد كنت مرتاحاً وكسولاً. ولكن عمي ابراهيم باشا اكتشفني فجأة، وجدني جالساً بين النساء استمع إلى أحاديثهن فتذكر المدرسة ليبعدني عن هذه الأحاديث (وبالمناسبة، كانت شيقة).

سجلني المدرس في صفه ثم طلب مني الالتحاق به، حينها اضطررت لأن اترك يد خديجة الدافئة وأنا أسب في سري المدرسة وعمي الذي تذكرها. لكنني سرعان ما أحببتها، فقد كانت مختلفة

عن مدرستي الأولى وأكثر هدوءاً. كانت عبارة عن فناء تتوزع فيه غرف التدريس، وكان لكل صف شعبة وحيدة وغالباً ما كانوا يدمجون طلاب صفين مختلفين في غرفة واحدة ليدرسهم مدرس واحد، فقد كان عدد الطلاب قليلاً، على خلاف مدرستي الأولى التي لا يعلم إلا الله عدد الصفوف التي فيها وعدد التلاميذ. كانت كبيرة وباحتها كملعب كرة قدم. وعندما نكون خارج الصفوف، بين فصلين، تحسب وكأنه يوم الحشر. كان الصبيان فيها أكثر شقاوة، والذي جعلني أكرهها كان صبياً من الأشقياء، أكبر مني بسنة ولكنه كان أضخم. ما إن شاهدني في المرة الأولى حتى بدأ بإرهابي. كان يضربني كل يوم إن لم أعطه طعامي ونقودي.. وقد كنت أتسلح بالكثير منها لأتقي شره.

في المدرسة الجديدة لم أصادف مثيلاً لذاك الصبي الشرير، وربما كان هناك ولد مثله يتعدى على من هم أضعف منه ولكنني لم أصادفه لحسن الحظ، ولكن كان من نصيبي ولد في صفي (الصف الخامس) يشبهني كثيراً، هادئ الطبع، خجول ونحيل الجسم، إذا تكلم احمر وجهه مثلي تماماً. ولكن، كانت له عادات غريبة كنت استمتع بمراقبته حين يأتي بها وأضحك عليها. كان اسمه مالك، وعندما قرأت ان هناك طائر اسمه مالك الحزين أطلقت عليه ذات الاسم.

الشيء الأكثر متعة في المدرسة كان المدرس. كان عجوزاً، يضع طربوشاً أحمر على رأسه ليخفي صلعته. لم يكن ينهض عن كرسيه إلا حين يقرع جرس الانصراف، وكان يطلب من التلاميذ كتابة فرائضهم ليتفرغ لعمله الدؤوب الذي لم أره يوماً منقطعاً عنه. كان يخرج من جيبه مرآة صغيرة وملقاط شعر ويشرع بنتف الشعيرات السود التي تنبت على أذنيه. لا يمل ولا يكل من عادته تلك. كنت أنسى نفسي وأنسى فرائضي حين يخرج مرآته فأقعد ساهماً فيما كان يفعل. كان مقعدي أمام طاولته، يفصله عنها مقعد واحد، وفي كثير من الأحيان كان يراني أراقبه ولكنني كنت أطرق فوراً

خوفاً من العقاب. مع ذلك كنت أعود إلى مراقبته حالما ينشغل بأذنيه.. حتى أنني كنت أكتشف في بعض الأحيان شعرة استطاعت الاختباء بعيداً عن ملقاطه ومرآته فأتمنى أن أذهب إليه لأدله عليها.

كان عام 1936 مؤثراً وله طعم خاص، فقد أصبحت في العشرين بينما صارت جليلة في الثانية عشرة. كنت قد حصلت على شهادة البكالوريا، وعندما أردت السفر إلى دمشق لاكمال تعليمي، وجد عمي انه من المناسب ان اكتفي بهذه الشهادة مادامت تمكنني من مسك دفاتر المصبنة. كان يريدني ان أنزل إلى العمل لكي أتعلم كيفية ادارة المصبنة مادمت سأصبح المالك الوحيد لها (بالاضافة إلى جليلة التي ستصبح زوجتي) بعد وفاة عمي.

كنت أمضي نهاراتي في المصبنة منتظراً ان تبلغ ابنة عمي. أما في الأمسيات فقد كنت أرافق مالك الحزين إلى سينما دنيا أو سينما شرقي لمشاهدة أفلام محمد عبد الوهاب. كنا أيضاً نشترك في المظاهرات والمهرجانات التي كانت تقيمها الكتلة الوطنية ضد الانتداب الفرنسي. وفي أحد أيام أيلول جاء مالك وأخذني من المصبنة. همس في أذني بأن الوفد الذي سافر في بداية العام إلى باريس للتفاوض مع الحكومة الفرنسية على الاستقلال سيصل اليوم إلى حلب قادماً من هناك بعد أن أحرز نجاحاً منقطع النظير في المفاوضات لذلك فإن الكتلة تطلب من كل الشعب استقبال الوفد استقبال الأبطال العائدين من معركة مظفرة. استأذنت عمي، وكان بالمناسبة يتبرع ببعض الأموال إلى مكتب الكتلة الوطنية، فأذن لي الذهاب بعد أن علم بوجهتنا ورغبتنا فأسرعنا إلى المحطة.

كانت المحطة في ذلك اليوم تغص بالمستقبلين، وكان على رأسهم (كما سبق وأخبرتك) المسيو دو مارتان وجميع أعضاء حكومة حلب. كانت هناك فرقة نحاسية تعزف الموسيقى بينما كنا نهتف بحياة سورية المستقلة، ويبدو انهم أضافوا هتافاً جديداً وهو لتحيا الصداقة السورية الفرنسية فرحنا نردده فرحين بنجاح

المفاوضات. اقترب القطار فهاجت الجموع وحميت الموسيقى وقبل ان يتوقف كاد يدهس بعض المتحمسين، أما رجال الدرك فقد كانوا يمنعون الجماهير المتحمسة من السقوط من الرصيف على الخط الحديدي ولولا لطف الله لراح ضحية المعاهدة العشرات هرساً تحت عجلات القطار.

نزل أعضاء الوفد يترأسهم الشيخ هاشم الأتاسي ثم تبعه سعد الله الجابري والباقون. قبلهم المسيو دو مارتان فرداً فرداً ثم قبلهم النخبة من المستقبلين، وعندما اصطفوا امام القطار لالتقاط الصور التذكارية وذلك لتخليد المناسبة، وقفت على باب العربة فتاة ريفية لم أر مثل جمالها قط. وقفت مستغربة ما يجري، تتساءل ان كانت قد أتت بعمل غير لائق لأن كل الجماهير قد توقفت عن الهتاف والصراخ كما توقفت الفرقة الموسيقية التابعة للدرك عن العزف وراح الجميع يحملق فيها مستغربين وجودها في عربة الوفد. أما أنا فقد وقعت في الحب. عشقتها منذ تلك اللحظة وتمنيت أن أعرف قصتها وحكاية وجودها هنا لأنها كانت تتقرض خجلاً وخصوصاً حينما اشتعل فلاش الكاميرا وأصدر دخاناً فوضعت يدها على وجهها تحمي عينيها ويبدو انها فقدت القدرة على الرؤية السليمة من تأثير الفلاش.

قالت المسكينة شيئاً للوفد وللمسيو دو مارتان ثم نزلت درجات العربة إلى الرصيف فعادت الهتافات وعادت موسيقى المارشات فنسيها الناس وخصوصاً حينما تحرك الوفد ومستقبليهم إلى باب الخروج ولكنني لم أنسها إلا ان تيار البشر الهائل راح يدفعني بقوة وكنت أحاول البحث عنها باستمرار إلا أنني لم أجد نفسي إلا والناس يدفعونني خارج المحطة ثم في الشارع ثم بعيداً عن المبنى فعرفت انني أضعتها فعدت لاطلاق الهتافات اسوة بالجميع ممسكاً بيد مالك الحزين.

في اليوم التالي بحثت في كل الصحف عن تغطية خبر وصول الوفد فوجدت صورتها. اشتريت نسختين من الجريدة، واحدة

أخفيتها في غرفتي وواحدة وضعتها في جيبي لتكون في متناول يدي حين أكون وحيداً في أوضة المصبنة فأخرجها وأتمعن في جمال الفتاة. في المساء ذهبنا أنا ومالك الحزين إلى أحد المقاهي فأريته الصورة فظهر انه أحبها هو أيضاً فأصبحت فتاة أحلامنا، أنا وصديقي مالك الحزين.

صرنا نتحدث عنها كل يوم. تساءلنا عن اسمها، ومن تكون وأين هي الآن. صرنا نؤلف القصص عنها ونتمنى ان نصادفها في احد الطرقات، ولهذا السبب كنا نتجول في حواري المدينة باستمرار ونحن نؤكد في وجوه النسوة المحجبات وغير المحجبات. وفي احدى المرات صادفنا امرأة تشبهها فلحقنا بها، وعندما تجاوزناها ونظرنا في وجهها اكتشفنا انها ليست هي. ولكنها كانت جميلة وفتية فعشقها مالك ولحقها ليتعرف على بيتها، ومنذ ذلك اليوم لم يعد يشاركني في عشق فتاة الجريدة.

سألت الشيخ الجليل وقد اكتشفت أول حلقة ارتباط بينه وبين قصة وداد:

ـ هل تكلمت مع خديجة عن فتاة الجريدة؟

ـ كنت قد بدأت الانعزال في غرفتي فأخرج الجريدة وأروح أتمعن في وجهها. كنت أريد ان توحي إلي بفكرة عن المكان الذي تختبئ فيه ولكن دون نتيجة. هذه العزلة جعلتني ميالاً للتفكير فبدأت خديجة تقلق وفي إحدى المرات عبرت لي عن هذا القلق. قالت لي بأنني بدأت أنحف وصرت أكثر شروداً. حاولت التهرب من إجابتها لأنني لم أكن على ثقة بأنها لن تضحك علي إن أنا قلت لها إنني أعشق فتاة لا أعرف أثراً لها سوى صورة في جريدة.

ـ ولكنك أخبرتها في النهاية، أليس كذلك؟

ـ فعلاً، ففي إحدى الليالي، وبينما كنا جالسين في غرفتي ننتظر النعاس، هي تنسج لي قفازين صوفيين لأضعهما في الشتاء القادم، وأنا أنظر في كتاب مفتوح دون أن أتمكن من القراءة،

وجدت نفسي مدفوعاً للتكلم معها عن فتاة الجريدة. نهضت واقتربت منها وبيدي الجريدة. أريتها إياها، حسبت أنني أشير إلى الضابط الفرنسي أو إلى أعضاء الوفد. حاولت لفت انتباهها إلى الفتاة التي تقف خلفهم على درجات القطار. قلت لها إنني أحب هذه الفتاة.

ـ وماذا قالت؟

ـ راحت تضحك علي، ثم نصحتني ألا أحب أحداً لأن علي ان أتزوج من جليلة ابنة عمي. وعندما أخبرتها أنني جاد فيما أقول اكتشفتْ انها لا ترى جيداً فلم تكن تميز شيئاً خلف أعضاء الوفد فوعدتها بشراء نظارة. ولكن المهم في الموضوع ان خديجة راحت تستمع إلي وأنا أحكي لها عن الفتاة فصرت أرتاح. يبدو انها كانت تسايرني وتعتبر الأمر غير خطير لأنه ليس أكثر من خيال شاب.

ـ وأين قابلت وداد بعد ذلك؟

ـ سوف أحكي لك، ولكنني قلق الآن على اسماعيل، فأنا لا أسمع أي صوت من الطابق السفلي.

ـ لا تهتم إليه، سوف أراضيه حالما تنتهي الحكاية.

قلت لك ان امرأة عمي حميدة خانم كانت تهوى الطرب وجلسات الاستماع. كانت تحاول تقليد نساء المجتمع المخملي التي كانت تعتبر نفسها واحدة منهن. وبما انها لم تكن لتستطيع الخروج من البيت بسبب بدانتها المفرطة، فقد كانت تقيم حفلاتها في صالون البيت عدة مرات كل سنة وفي أوقات متباعدة على الرغم من انها كانت تشيع ان لديها صالونها المنتظم الخاص بها (أول يوم أثنين من كل شهر) وأطلقت عليه اسم صالون حميدة خانم.

عرفت من التحضيرات التي كانت تجري في البيت بأمر حفلة يوم الاثنين القادم. فقد تم نقل كل المقاعد الموجودة في البيت إلى الصالة، كما تم استئجار عدد آخر من متعهد خاص. ساعدت في تحريك طاولة الطعام إلى ركن بعيد فقد كنت أشفق على خديجة الطيبة التي أمرت بترتيب الغرف الثلاث التي فتحت أبوابها على

مصاريعها فتحولت إلى صالة واسعة تكفي لجلوس مئة امرأة بالاضافة للخوجة وبناتها. وضعنا صفوف المقاعد على شكل أقواس تحيط بمكان جلوس الموسيقيات، كما تركنا، بناء على طلب امرأة عمي، مسافة لتتحرك فيها الراقصة التي كانت امرأة عمي تتحدث عنها بكل حماسة لصديقاتها اللواتي كن يزرنها. سمعتهن يتهامسن عن جمالها الخارق. احداهن لمحت إلى علاقة عشق بين الراقصة وبين الخوجة بهيرة، التي عرفتها سابقاً في صالون امرأة عمي.

دائماً كنت أحرص على التلصص على النساء حين تنعقد حفلة يوم الاثنين. كنت أجلس مع خديجة على الدرج بجانب الطاقة التي تشرف على الصالة. كانت الخوجة بهيرة هي التي تشغل بالي بشكلها الرجولي وثيابها الذكورية. وحينما صرت في الثالثة عشرة أصبحت أتمتع أكثر بمراقبة طرب النسوة ورقصهن وقبلاتهن لبعضهن البعض، ثم لاحظت أن بعضهن يطلبن ملاءات أوبطانيات (حسب الطقس) ليضعنها على أفخاذهن. كنت أشاهد أثر أيديهن وهي تتحرك وتدعك من تحت البطانيات. كن من بنات العشرة. كن يداعبن بعضهن البعض على مرأى من النسوة الأخريات. أما خديجة فقد راحت تحذرني من النظر إلى هذه الأمور ولكنني كنت لا آبه لها.

في ذلك الاثنين كنت أحتل مكاني على الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي بجانب النافذة، ومن أجل ألا يراني أحد كنت قد تركت الستارة الصغيرة، التي كانت قد أخاطتها خديجة، مغلقة. كنت أفرجها قليلاً بأصابعي وأنظر. كانت الصالة قد امتلأت عن بكرة أبيها بالنساء، من صديقات امرأة عمي. أما حميدة خانم فقد كانت قد احتلت مقعدها في الصف الأول وعلى جانبيها جلست صديقاتها المقربات واللواتي كنت أعرفهن لكثرة زيارتهن للبيت. كن يثرثرن ويتضاحكن. كانت خادمات امرأة عمي بالاضافة إلى خديجة يقمن على خدمتهن. لاحظت ان كل النساء كن قد كوين شعورهن لتجعيدها. كن أيضاً يمضغن اللبان (علكة الدروس)، أما المشهورات

بالعشرة فقد كن يجلسن إلى جانب صديقاتهن وبشكل تلتصق فيه الواحدة بأبلايتها. كنت، من الطاقة، أرنو اليهن من الأعلى، فأرى أشياء قد تخفى عن الأخريات. شاهدت كيف تداعب واحدة اذن صديقتها بأناملها وكيف تميل تلك رأسها فتقبض بعنقها على يدها. شاهدت أيضاً بعض القبلات التي كانت تؤخذ بسرعة أثناء الهمس في الأذن.

بعد ذلك دخلت الخوجة بهيرة تلحقها عازفاتها. سلمت الخوجة على امرأة عمي وقبلتها ثم فعلت الشيء نفسه مع عدد من المدعوات ثم جلسن في أماكنهن امام صفوف المقاعد. كان صوت الخوجة خشناً اما حركاتها فكانت تشبه حركات الرجال. حتى في جلستها كانت تشبه الرجال. ويبدو ان حميدة خانم قد تساءلت عن الراقصة فأشارت بهيرة بأنها تبدل ثيابها ولن تلبث ان تدخل بعد ان يحمى الجو.

كان المطرب محمد عبد الوهاب هو الموضة السائدة تلك الأيام فبدأت الفرقة النسائية بعزف احدى أغنياته، وكانت «جفنه علم الغزل» من فيلم الوردة البيضاء، فراحت الخوجة تغنيها بعد ان وضعت على رأسها طربوشاً. كانت تقلده فأطربت النساء ورحن يفقشن بأصابعهن ثم لا يلبثن ان يتمايلن. أعجبتني عازفة الكمنجة، فقد كانت لطيفة. شاهدت أيضاً امرأة تحتضن صديقتها الجالسة إلى جانبها ثم وهي تدخل يدها بين فخذيها لتداعبها هناك. كانتا في الصف الثاني مما حجب ما تفعلانه عن عيون الأخريات. استسلمت صديقتها لمداعباتها. كانت قد اسندت رأسها إلى كتفها وأغمضت عينيها وهي تبتسم كأنها في حلم. وبعد قليل شاهدت النسوة وهن ينظرن إلى الخلف، فقد دخلت فتاة ترتدي جلابية (صاية حريرية بيضاء مخططة) وانتقلت إلى الأمام ثم وقفت امام الخوجة بهيرة لتمكن النسوة من تأمل طولها وجمالها.

كل النساء كن ينظرن اليها وكأن سحراً قد تلبسهن. حتى تلك التي كانت تعبث في ما بين فخذي صديقتها سحبت يدها وهي

مأخوذة بسحر الفتاة. كانت الفرقة تعزف الأغنية الثانية «تكايدني ليه يا راضي البدع» لمنيرة المهدية ولم تكن الخوجة بهيرة قد بدأت غناءها بعد. نقلت ناظري اليها. انتقل السحر الي أنا أيضاً. جمدت تماماً. حتى تنفسي توقف. كانت هي نفسها، فتاة المحطة.

سحبت الستارة بشكل كامل وقربت وجهي من البلور حتى التصقت به. نسيت حذري من ان تراني النساء، فأي حذر هذا في حضرة السحر؟ في تلك اللحظة كانت قد شرعت في الرقص. وكانت حركتي قد لفتت نظرها فتطلعت إلي. كانت تبتسم بنعومة فأهدتني لحظة من ابتسامتها. أي رقص هذا الذي كنا، أنا والنساء، مسحورين به؟ لم يكن رقصاً بل مجرد حركات لينة على ايقاع الموسيقى. كان قلبي يضرب وكلي يرتجف بسبب عشقي المفقود والذي، ويا للمصادفة، وجدته امامي يرقص. شاهدتني أيضاً الخوجة بهيرة ولكنها لم تهتم بي. حصلت على نظرة أخرى وثالثة ورابعة. كانت، كلما نظرت إلى الأعلى باتجاهي تبتسم. بعد ذلك قالت لي انها كانت تبتسم لمنظري المضحك لأن وجهي كان قد شوهه بلور الطاقة بسبب التصاقي به.

لم أجد نفسي إلا وانا أنزل الدرج واقترب من باب الصالة. كنت أتحرق شوقاً لمشاهدتها عن قرب. كنت أريد أيضاً ان تراني، فلا معنى لعشقي إن هي لم تأبه بي ولم تتعرفني. كان الممر بين صفوف المقاعد يبدأ من باب الصالون وينتهي عند الموسيقيات. وقفت على الباب غير آبه للغضب الذي يمكن ان يسببه ظهوري بين النساء اللواتي اعتدن على التحجب امام الرجال، وكنت في ذلك الوقت أعد من الرجال. وقفت هناك لا أرفع عيني عنها، كانت تنظر إلي في بعض الأحيان فتلتقي أعيننا. كم هي جميلة هذه الإنسانة؟ وبدون ان أشعر بدأت اقترب في الممر باتجاهها. ويبدو ان الخوجة بهيرة شاهدتني مسحوراً بجمال راقصتها فعبست وهي تغني. أصبحتُ في منتصف المسافة. صارت تنظر إلي طوال الوقت وهي ترقص فبدت وكأنها كانت ترقص لي وحدي.

أنهت الخوجة أغنيتها فتوقفت الراقصة عن الرقص. صرنا نواجه أحدنا الآخر. وللغرابة لم تشعر النساء بي فقد كن مأخوذات هن أيضاً بالراقصة وبجو الرقة الذي كانت تحيط به نفسها. قالت الخوجة بهيرة وهي تشير إلي بغضب:

ـ ماذا يفعل الرجال في حفلات النساء؟

كانت النساء يحتجن إلى ثوان كي يتمكن من الخروج من أسر الراقصة ومن ثم استيعاب ما قالته بهيرة. كنت أنظر في عيني ساحرتي وهي تنظر في عيني. وفجأة هبت عاصفة من الاستنكارات والولاويل وتذكرت النساء ان عليهن اخفاء شعورهن وصدورهن وسيقانهن. واكتشفت الكثيرات ان ايديهن كانت في أماكن غير لائقة. نظرت إلى امرأة عمي فوجدتها تعوي ويدها ممدودة نحو باب الخروج. وفجأة شعرت بنفسي أدفع من قبل خادمتي امرأة عمي ومن قبل خديجة. كنت مسحوراً فلم أبالي بالذي يجري ، وهناك، خارج الصالة سقطت. انهضتني خديجة وراحت تدفعني لأصعد إلى غرفتي في الطابق العلوي، وعندما ألقيت النظرة الأخيرة إلى الراقصة، وجدتها مغشية عليها من الضحك بسبب ما جرى.

وأنا أصعد إلى الأعلى مدفوعاً بيدي خديجة القويتين، سمعت صوت الخوجة بهيرة تعرّف المدعوات، اللواتي هدأن بعد العاصفة، براقصتها. سمعتها تقول لهن إنها وداد..

قلت للشيخ الجليل:

ـ اذن، فقد التقيت حبيبتك في بيتك وانت كنت تبحث عنها في كل أرجاء المدينة.

ـ نعم، لم يخطر في بالي انني سألتقي بها في بيتنا، خصوصاً وأنني حينما التقيت بها في المرة الأولى كانت مجرد فتاة قادمة من الريف، أما في المرة الثانية فقد وجدتها وقد تحولت إلى راقصة مشهورة ومحبوبة.

ـ ألم يؤثر في عواطفك كونها أصبحت راقصة؟ فقال الشيخ:

ـ على العكس، كان شكلها حسناً جداً. تستطيع ان تقول انها كانت خارقة الجمال، هذا بالاضافة إلى انها كانت تقوم بحركات الرقص وكأنها كانت توزع الحنان على الجميع ولذلك كانت ساحرة. لقد ازداد عشقها في قلبي.

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ استغرب الجميع تصرفي ذاك في الحفلة. شكتني حميدة خانم إلى عمي ابراهيم باشا. استدعاني ليلتها وراح يصرخ في وجهي. نعتني بالصبي الأهوج الذي لن يكبر أبداً. قال لي انه يستغرب دخولي على النساء الشريفات وهن سافرات وإنه سيعاقبني على فعلتي هذه.

ـ وهل عاقبك؟

ـ في الحقيقة وجدته يبتسم وهو يستعيد ما فعلته مع زوجته. كان مقتنعاً بأن الراقصة قد سحرتني مثلما سحرت الجميع وقرر ان لا يتركني في البيت في الحفلة القادمة.

كان الشيخ يبتسم بهدوء وقد نسي موضوع اسماعيل. ذكرى لقائه الأول مع وداد جعلته سعيداً، ولكنني وجدت الأمر أكثر غرابة. فقد كنت جالساً وبيدي بندقية جاهزة للاطلاق اتطلع باستمرار إلى النافذة وإلى جهة الباب وإلى الشيخ نافع المستلقي على السرير. الغرابة هي انني كنت أحرس ذكرياته بواسطة بندقية، لكيلا يوقف اسماعيل، ذلك الشخص المجهول بالنسبة لي حتى الآن، تدفقها. نهضت بحرص وكأنني انتقل من خندق إلى آخر وأحضرت الصورة المؤطرة التي كنت قد وضعتها بشكل لا يراها اسماعيل حين يدخل. عدت للجلوس في مكاني ورحت أحدق بوداد التي كانت تقف على درجات عربة القطار فوق رأس المسيو دو مارتان. قال الشيخ متابعاً:

أمضيت الأيام التالية وأنا في حيرة من أمري، فقد وجدت فتاة

المحطة ولكنها ما تزال بعيدةً عني. كنت أفرح في أوقات وأحزن في أوقات أخرى، فالحب كان قد تمكن مني ولكن المصاعب جمة. هل أذهب وأقابلها؟ وماذا أفعل إن أنا صرت وجهاً لوجه أمامها؟ ماذا استطيع ان أقول لها؟ هل أقول إنني أحبها؟ وهل ستتركني الخوجة بهيرة أقابلها؟.. مئات الأسئلة كانت تدور في رأسي دون أن أجد نفسي قادراً على الإجابة عن واحد منها، فأنا عالق حتى رأسي بوعد الزواج بابنة عمي (والأصح ان أقول بارادة والدي المرحوم الذي ربط موضوع الميراث بزواجي من جليلة البدينة) ثم ان وداداً قد أصبحت راقصة وأنا متأكد من ان عدد معجبيها أكثر من شعر رأسي. ثم هناك قضية العلاقة الحميمة بينها وبين خوجتها، كما وصل إلى اسماعي حين تنصتّ على امرأة عمي وصديقاتها، فهل لحبي من أمل؟

شعرت خديجة بما كنت عليه. رأتني وأنا شارد الذهن باستمرار.. أتنهد وأزفر. لم أعد أنام بسهولة. صرت أطلب من خديجة ان تتركني ساهراً بمفردي مع الجريدة. ولكنها كانت تتحسس مشكلتي دون أن تعلم ان الراقصة هي نفسها التي أحببتها في المحطة. حسبت انني مراهق عجيب يقع في حب كل فتاة يصادفها. هذا ما قالته لي حين تمنت علي ان أحدثها بما كان يشغل بالي. قالت لي مرة بعد ان آوى الجميع إلى فراشهم:

ـ نحن لوحدنا الآن ولا أحد يسمعنا. قل لي يا نافع، هل أحببت الراقصة أيضاً؟ قالت لي هامسة وكأن هناك من يضع اذنه على باب غرفتي، فأجبتها وأنا أكثر الناس حيرة في قضايا الحب:

ـ نعم، إنني أحبها ياخدوج.

ـ ومتى ستنتهي من حب الفتيات، انهن كثيرات وليس من المستحب ان تعشق كل فتاة تقابلها؟

نظرت إلى وجهها. معها حق في ان تقول ذلك، فهي لا تعرف ان فتاة المحطة هي نفسها الراقصة وداد. قلت لها وأنا أتنهد:

ـ انها هي نفسها.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد انني وجدت أخيراً فتاة المحطة، انها هي نفسها وداد.

احتاجت خديجة فترة من الوقت لتفهم ما كنت أقصد. رددت عدة مرات: هل هي نفسها؟ وأنا أهز لها رأسي، ثم خبطت على ركبتيها ونهضت. راحت تتجول في الغرفة صامتة وهي تلتقط بعض الأشياء المتناثرة. كانت تفكر. عادت للجلوس إلى جانبي وهمست:

ـ ولكنها راقصة وابنة عشرة؟ فقلت بنزق:

ـ لا يهم، إن لم التق بها واتكلم معها سوف أموت.

ـ لن تموت إن لم تتحدث معها، بل عمك ابراهيم باشا هو الذي سوف يقتلك إن علم بالأمر.

ـ دليني على طريقة التقي بها أرجوكِ.. لا أعرف ما جرى لي من اليوم الذي التقيت بها. فكري معي بطريقة.

ـ لن تسمح الخوجة بهيرة بان تلقاها.. انها صائدة النساء فكل المدينة تتحدث عن ذلك. انها الآن أبلايتها وستدافع عنها بأسنانها. سألتها دون ان اهتم بأسنان الخوجة:

ـ أين تسكن الخوجة بهيرة؟

نهضت خديجة وابتعدت عني باتجاه الباب. كانت المسكينة قلقة علي وعلى مزاجي العشقي. توقفت هناك ثم همست:

ـ سوف أعرف ذلك غداً.. ولكن، الله يستر.

ثم خرجت وأطبقت الباب. أما أنا فقد ظللت سهران حتى الصباح.

بعد يومين كنت أقف امام باب بيت الخوجة بهيرة. كان الوقت عصراً، فلم استطع ان اجد عذراً للهرب من المصبنة إلا في وقت متأخر من النهار. قلت لعمي ان بطني تؤلمني وربما أصبت

بالاسهال فسمح لي بالرحيل. لم أذهب إلى البيت بل ذهبت فوراً إلى حي الفرارة، وكنت قد حسبت حسابي فارتديت في الصباح أجمل ثيابي وعقدت ربطة عنق لطيفة تحت ياقة قميصي الأبيض ودهنت شعري بمادة زيتية عطرة. كنت أقف امام الباب بمظهر لائق ومع ذلك فقد تلمست شعري لاتأكد من تسريحته. فكرت ان ابحث عن باقة ورد ولكنني لم أجد مكاناً أقطفها منه ثم انني لا أريد ان أذهب من أجلها إلى البيت لأنه ليس لدي الوقت الكافي.

كان الحي هادئاً وكان هناك بعض المارة وصبي يلعب. كنت خائفاً مما سيجري لي حين أطرق الباب فحسدت الصبي على براءته وعدم انشغاله بأمور الحب. وضعت يدي على قلبي فوجدته ينبض بطريقة غير معهودة من قبل. أعتقد ان وجهي كان مصفراً وربما كان أحمر قانٍ. طال انتظاري وأنا أقف هناك مفكراً ثم سمعت صوت خديجة يشجعني فاستدرت أبحث عنها فظهر أنني كنت أتخيل. تحمست وقلت لنفسي فليحصل ما يحصل فهم لن يقتلونني على كل حال، ثم سميت بالرحمن وصعدت الدرجة ثم قرعت الباب.

فتحت لي تلك المرأة التي كانت تعزف على الكمنجة في حفلة صالون امرأة عمي حميدة خانم. كانت لطيفة فسألتني برقة واستغراب:

ـ نعم.. بيت من تريد؟ كانت تبتسم بنعومة مما شجعني ذلك على ان افتح فمي وأتأتئ:

ـ بيت الخوجة بهيرة إذا سمحتِ.

ـ هنا بيت الخوجة بهيرة، ماذا تريد؟

ـ أريد ان أقابل الآنسة وداد.

صارت تنظر الي وتتمعن في وجهي وشعري اللامع وبملابسي بفضول. كانت مستغربة ولكنها أبقت على رقتها بل زادتها درجة، يبدو أنني قد أعجبتها:

ـ من يريدها؟ قدمت نفسي فقلت:

ـ نافع أفندي ابن سلفة حميدة خانم.

تذكرتني. قالت: آه.. ثم هزت رأسها دلالة على تأكدها من شخصيتي.

ـ أنت الذي دخلت إلى حفلة النسوان..

ـ نعم انا، هل يمكنني..؟

ـ وماذا تريد من الآنسة وداد؟

ماذا أقول؟ كان علي ان أحضّر نفسي لمثل هذه الأسئلة. وجدت نفسي أقول ببساطة:

ـ كل ما هنالك، أريد أن أقابلها.

هزت رأسها دلالة على انها فهمت، ثم أهدتني ابتسامة تفهم لموقفي الحرج ودعتني أدخل. سارت امامي في الدهليز المعتم. كانت ترتدي ثوباً صيفياً مزهراً، وبسبب ضوء النهار الذي نتجه اليه تخيلت انني أرى خطوط قوامها تشف من خلال قماش الثوب فغضضت النظر. أشارت إلى كنبة متوضعة في الايوان وطلبت مني الجلوس ثم دخلت احدى الغرف.

جلست على طرف الكنبة وقد ضممت ركبتيّ ووضعت يدي عليهما. هكذا أقعد عادة حينما أكون في بيت غريب. حسبت وكأن الأرض تهتز وبالتالي الكنبة التي كنت أجلس عليها. بعد تدقيق بسيط اكتشفت ان الدنيا تهتز بسبب ضربات قلبي القوية. شعرت برغبة في النظر إلى الأعلى فرفعت وجهي أخيراً لأرى امرأتين تسترقان النظر الي من المربع العلوي. عرفت انهما عازفتي الايقاع والقانون اللتين كانتا تعزفان في حفلة امرأة عمي. كانت عازفة القانون تستند بمرفقها على كتف عازفة الايقاع. كانتا تبتسمان وهما تتهامسان عني. اطرقت مبعداً عيني عنهما، ولكن لم ألبث ان سمعت حركة من طرف الغرفتين السفليتين اللتين يُصعد اليهما بدرجين متناظرين يحتوي كل منهما على خمس درجات. في احدى هاتين الغرفتين

غابت عازفة الكمنجة التي فتحت لي الباب. نظرت دون ارادة مني فوجدت رأس الخوجة بهيرة وقد نبق من فتحة الباب وهي تحدق في وتتفحصني. لاحظت انها غير سعيدة بوجودي في بيتها. تراجع رأس الخوجة قبل ان أطرق من جديد. لاحظت ان للدرجين المتناظرين درابزين حديدي جميل وانهما يؤديان إلى بسطة تخدم الغرفتين المتناظرتين وان الدرابزين يستقيم وله أشكال هندسية متناسقة. سمعت همساً ونقاشاً قادمين من الغرفة. كان صوت الخوجة الخشن يعلو قليلاً ولكن الكلام يظل غير مفهوم.

زاد قلقي، فربما كانت تطلب من عازفة الكمنجة ان تطردني. مر وقت طويل وأنا على هذه الحالة. لاحظت انني كنت أسلي نفسي بالنظر إلى الشجرة المتسلقة على كامل الجدار ولاحظت انها ربما تتدلى الآن نحو الشارع. سمعت ضحكة داعرة من المربع ثم وأحد الأبواب يفتح ثم وقع خطوات ناعمة. استدرت فوجدتها تقف على البسطة وهي تمسك بالدرابزين. جميلة، رقيقة، خجولة. كانت السحر بعينه. كانت ترتدي ثوباً منزلياً بدون أزهار يتدلى حتى الكاحلين. نهضت بحذر لاستقبالها فلم أكن متأكداً من أنني لن أسقط على الأرض. قررت ان تبتسم لي ثم أطرقت ونزلت الدرجات الخمس ثم صعدت إلى الايوان ووقفت قبالتي. مدت يدها فصافحتها. كنت أرتجف. قالت أهلاً وسهلاً ثم جلست على كنبتي فجلست إلى جوارها.

مر وقت طويل وأنا محتار ماذا أقول لها. كنا جالسين بصمت أنظر في بعض الأحايين فأراها تعبث بأصابعها كما كنت أفعل أنا. نظرت باتجاه الدرابزين فوجدت الخوجة بهيرة وعازفة الكمنجة تنظران إلينا من داخل الغرفة. رفعت رأسي فوجدت المرأتين الأخريين تنظران أيضاً من باب غرفة المربع. أية زيارة هذه؟ كيف سأتحدث إليها؟ قلت للشيخ الجليل:

ـ ولكن كان عليك ان تقول لها شيئاً.. ان تعرفها بنفسك. فقال الشيخ:

ـ وجدت نفسي أخيراً مدفوعاً للكلام، فهناك أربعة أزواج من الأعين تراقبني.

ـ ماذا قلت لها؟

ـ قلت إن اسمي نافع وإننا تقابلنا في صالون امرأة عمي حميدة خانم يوم الاثنين الماضي. فهزت رأسها وهمست انها تعرف ذلك. ثم جرى بيننا الحديث التالي والذي كان أشبه بالهمس:

ـ قابلتك قبل ذلك بزمن طويل في مكان آخر.

ـ أين؟

ـ في محطة القطارات، كنا في استقبال الوفد المفاوض القادم من باريس.

ـ آه؟!!.. صحيح، كنت قادمة للتو إلى حلب.

ـ ولكنني أضعتك في الزحام، ومنذ ذلك اليوم وأنا أبحث عنك.

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف ما أقول.. تعلقت بك. ثم اشتريت الجريدة، فقد نشروا تلك الصورة وكنتِ تظهرين خلف الوفد وفوق رأس المسيو دو مارتان.

ـ كنت في الصورة؟

ـ لدي نسختان، سوف أهديكِ واحدة.

ـ شكراً.

ـ اسمك وداد.

ـ نعم.

ـ اسمي نافع.

ـ أعرف.. فقد ذكرته قبل قليل.

ـ آه.. صحيح. هل يمكننا ان نتقابل في الخارج؟ يمكننا

الذهاب إلى احد المتنزهات مثلاً، أو إن أردتِ يمكننا الذهاب إلى السينما. يعرضون فيلماً جديداً لمحمد عبد الوهاب.

- لا أعرف، لن توافق الخوجة بهيرة على ما أظن.

- سوف أتكلم معها.

صمتنا. جلسنا مطرقين وقد انتهى الكلام. كنت أشعر بها وهي ترفع عينيها لتتمعن وجهي. كنت عندما أريد ان أفعل ذات الشيء ألتقي بعينيها. مضى وقت. فكرت أن أنهض لأرحل ولكنها استوقفتني حين سألتني بصوتها الخافت:

- لماذا تريد أن نتقابل؟

كان جوابي سريعاً ومباشراً هذه المرة:

- لأنني أحبكِ.

ظللت أتطلع في عينيها. كنت أحبها فعلاً. أموت فيها. أما هي فقد ارتبكت من جوابي ومن اعترافي بحبي فاحمر وجهها وحاولت ابعاد عينيها بعيداً عن عيني ولكن دون جدوى، فقد ظلت تلقي علي نظراتها. شعرت انها سعيدة بحبي وتريد ان تتقبله.

ارتجفنا حين سمعنا سعاد عازفة الكمنجة تنزل مسرعة وهي تسألنا إن كنا سنشرب الشاي. اعتذرت وطلبت ان أقابل الخوجة بهيرة قبل أن أرحل. توقفت سعاد وعوضاً عن الذهاب إلى المطبخ صعدت إلى الايوان. كانت طيبة جداً وتجد في كل ما يجري متعة وطرافة. كانت تحب ما يجري وتخاف علي من الخوجة. نظراتها كانت تنبئني بذلك. سألتني عازفة الكمنجة همساً أيضاً:

- لماذا تريد مقابلة الخوجة بهيرة؟ فقلت متابعاً شجاعتي:

- أريد ان أستأذنها في أمر.

- ما هو؟

- أن أصطحب الآنسة وداد إلى السينما.

شعرت بخطورة ما أطلب من ارتباك عازفة الكمنجة، فقد استدارت بسرعة وألقت نظرة إلى الدرابزين. شاهدت الخوجة، من فرجة باب غرفتها، تتحرك وتنظر إلينا بقلق. سألتني العازفة:

ـ الآن؟ نظرت إلى وداد فوجدتها تتمنى ذلك. قلت:

ـ ليس الآن، في يوم آخر. فقالت وكأنها تجد الحل الأفضل لمساعدتنا:

ـ ارحل الآن، سوف نفكر بطريقة، لا يجب ان تعلم الخوجة بذلك لأنها تكره الرجال.

سرت نحو الدهليز تلحق بي المرأتان. فتحت الباب وسألت سعاد:

ـ متى آتي؟ فقالت العازفة:

ـ سوف نرى طريقة للاتصال بك، إياك ان تأتي مرة ثانية. مع السلامة.

أمسكت بيد وداد بحجة أنني أصافحها. كانت ندية بسبب التعرق. لاحظت انها موافقة على كل ما بدر مني. كانت متعلقة بي. خلعت نفسي وخرجت، وعندما أغلقتا الباب استندت على الجدار لكي استجمع قوتي، فقد احتجت إلى بذل كل قواي لانجاح مغامرتي الأولى والأخيرة في هذه الحياة.

كان صوت مؤذن قريب يؤذن لصلاة المغرب. جاءني صوته حنوناً ومشجعاً. نظرت إلى السماء وقلت يارب.. شاهدت أغصان الشجرة المتسلقة وقد انقلبت إلى الخارج كما خمنت. مسحت العرق عن وجهي ثم ابتعدت عن الجدار وسرت ببطء نحو البيت.

صمت الشيخ. أغمض عينيه وصمت. كان يحاول، على ما أظن، اقتناص تلك اللحظة التي كان يتحدث عنها. رأيته يلهث وكانت بعض قسمات وجهه ترتعش. نظرت للمرة الأخيرة إلى الصورة ثم أعدت الاطار إلى مكانه خلف الستارة بجانب النافذة. كان صوت المطر هو

الطاغي. ايقاع رتيب وحلو. فجأة خطر في بالي ان انظر إلى ساعة يدي فوجدت انها قد تجاوزت الثانية عشرة. مشكلة جديدة طفت على سطح وعيي ألا وهي كيف سأطعم الشيخ نافع. نهضت والصقت اذني بالباب. قلت لنفسي لعلني التقط بعض الاصوات من الاسفل، فالغريب حقاً ان اسماعيل لم يأت بأية حركة منذ ان طردته من الغرفة تحت تهديد السلاح. ظللت مدة اتنصت ولكن لم يصلني أي صوت. تركت الباب وانتقلت إلى النافذة. اقتربت منها محاولاً أن انظر إلى الخارج عبر قضبان الأباجور. كان الظلام دامساً فمنعني ذلك من رؤية الحديقة الخلفية. ابتعدت عن النافذة. كنت مهموماً. كان الشيخ يطلق شخيراً ناعماً وقد فتح فمه إلى الأعلى. فجأة خطر في بالي ان أعود إلى النافذة لأنني شككت في شيء غير طبيعي، فربما منعني انعكاس النور على بلور النافذة من الرؤية. اطفأت مصابيح الكهرباء ثم اسرعت إلى النافذة. كدت أصرخ من الخوف لو لم أسد فمي بيدي. كان هناك رأس، في أسفل النافذة، يمنع ضوء الكون الذي بدأت أميزه بعدما أطفأت النور، وكانت هناك دائرتان بيضاويتان مسددتان نحوي من بين قضيبين من قضبان الأباجور. كنت متأكداً انه اسماعيل. يبدو انه أحضر سلماً خشبياً وصعد به إلى النافذة، تحت المطر، ليتلصص علي. وقبل ان يبدأ بتمييزي في ظلام الغرفة، فتحت النافذة بسرعة شديدة فاختفى الرأس. دفعت الأباجور ونظرت إلى الأسفل. كان هو، اسماعيل، يحاول النزول بسرعة. وجهت نحوه البندقية وصرخت فيه ان يتوقف.

توقف اسماعيل ورفع إلي وجهه. كان يلمع من المطر الذي غسّله. كان يقطر ماءً وحقداً علي، لو كانت البندقية في يديه عوضاً عن يدي لأطلق علي الرصاص على الفور.

ـ تتلصص علينا أيها الوغد ـ صرخت فيه ولكن بهمس كي لا أوقظ الشيخ نافع ـ ألا تخاف ان اقتلك؟

ـ تقتلني؟ـ انتظر قليلاً ثم قال ـ انت جبان حقير لا تستطيع قتل كلب مثلك.

ـ أقسم بالله أنني سأقتلك إن لن تكف عن مضايقتي.

سمعته يطلق ضحكة قصيرة هازئة. صعد درجتين فأصبحت أميزه بشكل أوضح. سألني:

ـ ماذا تبغي من وراء ذلك كله، لماذا لا ترحل وتتركنا. أقسم انني سأتركك ترحل بسلام.

ـ لا تحاول معي. سوف أبقى مع الشيخ لأنه في حاجة إلي.

ـ من أجل الحكاية؟

ـ انه في حاجة لحكايتها. إنني أفيده باستماعي إليها.

ـ وإلى متى ستبقى؟ حتى يحكيها كلها؟

ـ هذا ليس شأنك.

ـ لن تفيدك كثيراً لأنني سأقتلك قبل ان ترحل.

ـ البندقية في يدي أنا، وهاأنذا أوجهها نحو رأسك. اتركني استمع إلى الحكاية في سلام، وعندما تنتهي سأرحل.

ـ لا أريدك ان تعرف نهاية الحكاية وإن عرفتها فلسوف أقتلك قبل ان تتمكن من أخذها معك إلى المدينة.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأن المدينة قد نسيت القصة. لا أريد ان تلوكها الألسن من جديد.

ـ ولكنها قصة الشيخ وحياته.

ـ وقصتي وحياتي أيها المتطفل الحقير.

اذن هكذا. لاسماعيل علاقة وثيقة بالحكاية. انه جزء منها. كنت أتوقع ذلك. سمعته يتابع ولكن بتهديد أعظم هذه المرة:

ـ لن يلبث الشيخ ان يرحل، بعد عمر طويل. عندها سأعود إلى حلب. لا أريد ان تسبقني الحكاية الى المدينة حيث سأعيش بقية

عمري. سأدافع عن سمعتي وكرامتي بكل ما أوتيت من قوة، وإذا كنت تعتقد ان هذه البندقية هي السلاح الوحيد في البيت فأنت مخطئ. المشكلة هي انني لا أريد أن أقتلك أمام الشيخ. أنت تعرف أنك كنت تحت مرمى مسدسي قبل قليل.. القضية هي الشيخ.

تراخت البندقية في يدي. لم تعد موجهة إلى رأسه. انه يملك مسدساً إذن . وبالفعل، مد يده إلى خصره وأخرج مسدسه وعرضه أمام عيني. ابتسم بحقارة ثم أعاده إلى مكانه تحت الحزام. يبدو انه تكلم شيئاً ولكنني لم أفهمه، فقد كنت أفكر في موضوع السلاح. فأنا أمسك ببندقية صيد (أذكر انها كانت جفت) واسماعيل يقبع تحت رحمتي ولكنني لا أستطيع استخدامها، فأنا، كما قال، جبان حقير، لا أحب توريط نفسي في عملية قتل حتى ولو كان اسماعيل الذي ينتظر الفرصة ليتخلص مني (كما تخلص من الدكتور فارس على ما أرجح)، بينما هو يمتلك مسدساً ولا يستطيع استخدامه ضدي لأنني احتمي بالشيخ. ولكن ماذا لو مات الشيخ؟ ارتعدت للفكرة، هذا يعني ان حياتي مرتبطة بالشيخ وعلي ان أحافظ على حياته واطعامه.

كان جذعي الأعلى ممدودا خارج النافذة طوال الوقت. كان المطر ينسكب علي. لم يكن ذلك يهمني على الاطلاق، فقد كان همي هو الشيخ وطريقة اطعامه. قلت لاسماعيل بلهجة لطيفة:

ـ يجب علينا ان نطعم الشيخ، فقد نام دون عشاء. فقال وهو يسخر مني:

ـ من أجل الحكاية يا بديع زمانك سوف يموت الشيخ، وانت تعرف ما سيحصل لك ان جرى له أي شيء ـ ثم أضاف مقترحاً ـ لماذا لا تدعني أدخل لأقوم باطعامه؟

ـ انت تعرف انني لن أدعك تدخل. سوف تحضر الطعام في الأوقات المعتادة وسوف أقوم أنا باللازم.

ـ هيا عد إلى غرفتك وسوف نعود كما كنا. كان يحاول ابعادي عن غرفة الشيخ لينفذ خطته ضدي فرفضت الاقتراح. قلت:

ـ تعرف سلفاً انني سأرفض. وأنا أيضاً أحب ان أعيش.

ـ تخاف ان أقتلك؟

ـ ستقتلني نعم إن أنا ابتعدت عن الشيخ.

ـ ألا تخاف ان أسممك؟

ـ سوف تأتي بطعام متشابه، لن تقدم لي طبقاً خاصاً بي، سوف آكل من طعام الشيخ نافع.

صمت فترة وهو يفكر، يبدو انه لا يملك فرصة أخرى. قال من بين أسنانه انه يكرهني وانني لن أفلت منه ثم راح ينزل السلم. شاهدته يبتعد وهو مستمر في شتمي حتى غاب في الطرف الأمامي من الحديقة، عندها أغلقت النافذة. أشعلت النور ثم رحت أجفف نفسي (حتى أنني خلعت ما تبلل من ثيابي واستعرت قميصاً من خزانة الشيخ) وبعد نصف ساعة سمعت صوت خطوات اسماعيل في الممر. سمعته يضع شيئاً على الأرض ثم ينقر الباب ويبتعد. فتحت الباب فشاهدته يقف قرب الدرج. بصق ونزل. كانت هناك صينية طعام فيها عدد من الاطباق وكمية من ماء الشرب وأدوية كان الشيخ يتناولها بانتظام. حملت الصينية ودخلت وأعدت اقفال الباب. ايقظت الشيخ وقمت باطعامه واعطائه أدويته. أخرجت صينية الطعام إلى الممر ثم اندسست إلى جانبه في السرير ونمت وأنا احتضن البندقية.

أيقظني الشيخ في الصباح بحركة رقيقة من يده. في البداية استغربت وجودي في سرير واحد مع الشيخ. ثوانٍ فتذكرت أحداث اليوم السابق. كانت البندقية مرمية على الأرض بجانب السرير. أول شيء طلبه بعد ان صبّح علي هو انه يريد الذهاب إلى الحمام.

ـ الحمام؟ قلت وأنا اكتشف مهمة جديدة من مهماتي للعناية به. شعرت أنا أيضاً بالحاجة لقضاء حاجة. نهضت ثم التقطت البندقية من مكانها على الأرض ثم هرعت إلى النافذة. كان المطر مستمراً في الهطول وكانت الحديقة الخلفية هادئة. بحثت عن اسماعيل فلم أجده، حتى السلم الخشبي كان قد اختفى. تراجعت عن النافذة

ووقفت امام السرير، ممسكاً بالبندقية وأنا أفكر بطريقة نخرج بها إلى الحمام دون ان نلتقي باسماعيل. ويبدو ان منظري كان مضحكاً، فقد ابتسم الشيخ ثم راح يهتز ضاحكاً. قال وهو يشير إلى البندقية برأسه:

ـ تبدو وكأنك شخص أخرق قام باختطاف رجل فوقع في ورطة.

ـ هكذا أبدو إذن ؟

ـ بالضبط، ثم عليك ان تتفهم موقف اسماعيل. لو كنت تعرف سبب منعك من الاستماع إلى الحكاية لعذرته. على كلٍ، إنني سعيد بنضالك من أجل ذلك. استمر وأنا واقف معك. سوف نتعاون على اسماعيل وأنا أطلب منك ان تحبه رغم كل ما يفعله. هيا.. فلنذهب إلى الحمام.

ساعدته في النهوض وفي ارتداء الروب. سحبت الرتاج وفتحت الباب وإذ بصينية الافطار موضوعة إلى جانب الباب. ابتسمنا أنا والشيخ، إذ ان اسماعيل يقوم بواجبه على أحسن ما يرام. سرنا حتى الحمام (مسافة خمس خطوات فقط) وأنا أصيخ السمع لعلني أسمع أية حركة يقوم بها اسماعيل معلناً عن وجوده. سألت الشيخ:

ـ لقد قال لي اسماعيل بان الحكاية قصته وقصة حياته.. فقال الشيخ دون ان يلتفت إلي:

ـ نعم.. هذا صحيح. فتحت باب الحمام وأنا أسأله:

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ سوف تعرف كل شيء حين انتهي من الحكاية، أم أنك غير صبور؟ قلت له انني سأصبر ثم أدخلته إلى الحمام. خلعت عنه الروب ثم خرجت وأغلقت الباب. ابتعدت حتى الدرج وقرفصت ممسكاً بالبندقية في وضعية الاستعداد.

كان الطابق الأرضي هادئاً. كل شيء في مكانه، نظيفاً ومرتباً.

أين هو اسماعيل؟ ماذا يفعل؟ ماذا يحضر لي؟ سمعت حركة قادمة من جهة غرفتي. استقمت وأنا أسدد البندقية باتجاه الباب. سرت دون أن أصدر أي صوت وعندما وصلت إلى الباب وضعت أذني عليه. لا صوت. تراجعت. كنت خائفاً، فأنا امتلك بندقية ولكنني لا أستطيع استخدامها. بل ليس لدي الحق في ذلك وقد طلب مني الشيخ قبل قليل ان أحب اسماعيل واتفهم موقفه فالقصة هي قصته (لم أكن أتوقع ان أتحمس لحكاية هي في الحقيقة قصة شخص مثل اسماعيل). أي انها ماضيه الذي يكرهه. سمعت حركة أخرى من غرفتي فتأكدت ان اسماعيل فيها (أو ربما كنت مخطئاً). انسحبت حتى باب الحمام، وهناك مكثت حتى انتهى الشيخ. دخلت عندما ناداني. ساعدته من جديد في ارتداء الروب ثم خرج وتركني أقضي حاجتي واغتسل. قال إنه سوف ينتظرني في الخارج ريثما انتهي. كان هو حمايتي الوحيدة وليست البندقية.

قال الشيخ بعد ان أفطرنا وجلسنا على الكنبة:

سارت الأيام التالية ببطء شديد، فقد كنت أتوقع في كل مرة يقرع فيها الباب ان يكون الطارق من طرف وداد. أما الليالي فقد كنت أمضيها في عذاب حقيقي، فقد جافاني النوم وأصبحت أكثر شروداً وصرت أتعرف على تقاطيع وداد الحلوة في الصورة بشكل أفضل بعد مقابلتي لها، حيث أضع الصورة تحت مصدر الضوء مباشرة وأروح أسرح في خيالي إليها حتى الصباح. وعندما مر أسبوع دون ان تتصلا بي كما وعدت سعاد عازفة الكمنجة، دب في القلق وبدأت أخمن بأن الخوجة بهيرة قد منعتهما من الاتصال بي، فهي حقاً تكره الرجال. صرت استأذن عمي ابراهيم باشا فأخرج من المصبنة مسرعاً إلى الشارع الذي يقع فيه بيت الخوجة (وكان بالمناسبة قريب من المصبنة) فأقف في مكان أرى منه الباب انتظر ان تطل منه وداد، ولا ألبث ان أعود إلى المصبنة بعد أن أكون قد

تعبت من الوقوف لانتظر فرصة أخرى أطلب فيها الأذن من جديد، وهكذا..

أما ما جرى في بيت الخوجة بهيرة فقد كان كما خمنت تماماً، فقد أخبرتني وداد بعد ذلك بكل شيء. كنت قد شغلت بالها حين دخلت في ذلك اليوم على النساء في بيت عمي. كنت قد أعجبتها وكانت صورتي تتطابق مع صور أبطال الحكايات التي كانت تحكيها لها خادمتها فاطمة. كانت وداد تأنس لسعاد فتكلمت عني أمامها حتى أنها سألتها عن اسمي. كانت تحسبني ابن حميدة خانم فصححت لها معلوماتها عني وأخبرتها بأنني يتيم الأم والأب مثلها تماماً ويبدو ان هذا التطابق جعلها تحبني (هناك شيء يجب ذكره جعلني أكسب الجولة أمام الخوجة بهيرة، فقد كنت شاباً جميلاً وأنيقاً وفي العشرين من عمري أفيض يناعة وتهذيباً، بينما كانت الخوجة تقترب من الخامسة والخمسين من عمرها). وفي الحقيقة كانت سعاد تفضل الرجال على النساء فراحت تشجع وداد على الحلم. كانتا تتحدثان عني كلما انفردتا، اما الخوجة، أبلايتها، فقد شعرت بشرود حبيبتها فسألتها ولكن وداد كانت تخبئ ما تشعر به نحوي عن خوجتها. كانت سعاد تحذرها من التكلم بصراحة خوفاً من إثارة غيرة بهيرة. وعندما دخلت، ذلك اليوم، إلى بيتهم وجاءت سعاد لتخبرها من القادم احمر وجهها وارتبكت.

راحت الخوجة ترفض ظهور وداد أمامي. طلبت من سعاد ان تطردني فوراً، ولكن عازفة الكمنجة أقنعتها أنه ليس من السيء ان تقابلني وداد لأنني ابن سلفة حميدة خانم، زبونتهن المدللة، ولاخوف على وداد من شخص يمت إلى الطبقة. وبعد أن تقابلنا وخرجتُ، شعرت بهيرة، بحس المرأة الخبيرة والمحنكة، ان قصة حب ربما في طريقها إلى الظهور. أصبحت عصبية ودائمة الخوف. صارت تمنع وداد من الخروج إلا معها هي بالذات. راحت تحدثها دائماً عن الرجال الأوباش، الذين يأخذون المرأة لحماً ويقذفونها عظماً. إنهم كلاب برية، وحوش ضارية، لا يعرفون شيئاً عن الحب

سوى أخذ المرأة وإزالة بكارتها وجعلها تحبل وتلد. إنهم يزرعون النجاسة في جوف المرأة فتضطر للاغتسال. يطلبون منها ان تغسل أقدامهم، وان مرضوا ان تصبح لهم ممرضة، وان اغتنوا، هجروها إلى واحدة أخرى.

ولكن كل ذلك الكلام لم يكن ليقنع وداد بان تكرهني، أو على الأقل ان تتوقف عن التفكير بي. كانت تنصت لأبلايتها وتهز رأسها ولكنها كانت تفكر في اليوم الذي سنلتقي فيه. كانت سعاد تصبّرها، ولكن من يأبه بي أنا؟

وفي أحد الأيام جاء الفرج. كنت جالساً في الفرندة التي تشرف على الشارع حين شاهدت صبياً يقترب من بنايتنا. توقف عند باب الحديقة وراح يفكر بطريقة يقرع بها الباب. لم يكن قد شاهدني فنهضت ليراني. كان قلبي يقول لي إنه قادم برسالة إلي كما وعدت سعاد. طلبت منه ان ينتظر ثم هبطت إليه، وهناك أخبرني أن علي ان أذهب فوراً إلى دار سينما «روكسي» وقدم لي بطاقة من الثلاثة حتى الستة وسلمني ملاحظة مكتوبة من قبل سعاد تطلب فيها مني أن أدخل بعد ان يكون الفيلم قد ابتدأ (أي أن علي أن أدخل في الظلام فلا يراني أحد) فنقدته بقشيشاً محترماً ثم هرعت من جديد إلى الأعلى، فبدلت ثيابي بثياب أنيقة وتعطرت ودهنت شعري حتى أصبح لامعاً، وسرحته جيداً ثم شَكَّلتُ وردة بيضاء في عروة سترتي وأسرعت إلى شارع بارون. وقفت في مدخل السينما استمع إلى الفرقة النحاسية التي كانت تعزف داعية الناس إلى دخول السينما ومشاهدة الفيلم (كان فيلماً فرنسياً تراجيدياً لم أهتم لعنوانه ولم أفهم لمَ فضلت المرأتان ان نلتقي ونحن نشاهد فيلماً أجنبياً حزيناً). وما إن أُعلن عن أن الفيلم قد بدأ حتى قدمت بطاقتي إلى البواب فدخلت، فقادني رجل مختص إلى مقصورة مخصصة للعائلات. أدخلني ثم أعاد اغلاق الستارة. كان الفيلم قد وصل إلى مشهد امرأة تبكي وتنوح على جثة زوجها أو حبيبها عندما وقفت في المقصورة وأمامي كانت تجلس كل من حبيبتي وداد ورفيقتها سعاد. استدارتا

إلي، وعلى ضوء الفيلم شاهدتهما تبتسمان لي لتشجعاني فقد كنت مرتبكاً جداً (أو ربما مضحكاً بشعري اللامع ووردتي المشكولة في عروة سترتي). أشارت سعاد بيدها إلى المقعد الفارغ، بجانب مقعد وداد، فجلست. بقينا جالسين بصمت نتفرج على ما يجري أمامنا على الشاشة ونحن مرتبكين. كان علي أن أبادر في الكلام ولكنني فقدت كل ما خططت لقوله لها. أخيراً تجاسرنا فاستدرنا ورحنا نتمعن في بعضنا.

كانت خارقة الجمال في جو الظلام وأضواء الفيلم. أدركت لحظتها أنني أعشقها وأنني سأناضل من أجل الحصول عليها مهما كلفني ذلك من ثمن. أدركت أيضاً أنها تحبني. كانت تبتسم لي باستمرار كلما التقت عينانا. مددت يدي بحذر أطلب منها أن تعطيني يدها. استدارت نحو الشاشة وأعطتني يدها. كانت يداً دافئة، تنقل إلي عن طريق اللمس مشاعر لا أستطيع وصفها. أحسست أيضاً بنبضها الناعم والمنتظم. ضغطت عليها برفق فاستجابت لي. أصبحت رخوة أكثر ومستسلمة إلى أقصى حد. بعد قليل راحت يدها تتعرق. أخرجت منديلي ورحت أجفف لها يدها. أمالت رأسها نحوي وهمست:

ـ هذه ثاني مرة تتعرق يدي عندما نلتقي.

ـ لا تخافي، سوف أحرص على أن أجففها لك بمنديلي.

ـ أنت تفوت عليك الفيلم.

ـ أنا هنا من أجلك فقطـ شعرت بنفسي أنطلق بالكلام فهمست لهاـ أنا سعيد لأنني وجدتك، وسعيد أكثر لأنني أحبك. لو تعلمين ما يجري هنا في قلبي؟

نظرت في عيني تسأل عما يجري في قلبي، فأجبتها:

ـ أنا متعلق بك ومستعد لأي شيء يحصل لي.. أريد ان تحبيني كما أحبك.

ـ أنا..

تعرقت يدها التي في يدي فأعدت تجفيفها. إنها تحبني فعلاً. قلت لها:

ـ أريد أن أتزوجك.

عادت للنظر إلي. أيضاً ضغطت يدها على يدي. أجابتني بأنها تود ذلك، ولكنها استدركت:

ـ عندي مشكلة، وعندك مشكلة.

انها صادقة، فعندي مشكلة جليلة ابنة عمي وقضية الميراث، أما هي فلديها مشكلة الخوجة بهيرة. سألتها:

ـ الخوجة بهيرة؟

ـ نعم.

ـ أنا سوف أهرب من الميراث وانت ستهربين من الخوجة.. هل ترغبين؟

نظرت في عيني مطولاً دون ان تتمكن من إجابتي. عادت لتتابع الفيلم. سألتها مرة أخرى: هل ترغبين ولكنها لم تجبني. كل ما فعلته هو ان تترك يدها تتعرق في يدي. علمت من ذلك بأنها تعتقد ان ذلك صعب للغاية. ظللنا هكذا مدة حتى سمعت سعاد تطلب مني أن أرحل قبل ان ينتهي الفيلم. قالت انها سترسل الصبي ببطاقة جديدة وموعد جديد، ثم قالت إلى اللقاء. ارتحت لهذا الوعد. كانت وداد تنظر في عيني وتشد على يدي. التقطت الوردة من عروة سترتي ووضعتها في يدها ثم رفعتها إلى شفتي وقبلتها. ودعتها ونهضت ثم خرجت. عندما كنت أغلق الستارة كانتا تنظران إلي. خرجت من دار السينما ولكنني لم أستطع العودة إلى البيت مباشرة. رحت أدور حول القلعة وأنا أشم رائحة عرقها من المنديل. في البيت أيضاً أغرقت انفي برائحتها. كنت سعيداً إلى درجة انني استهترت بالمصاعب التي تنتظرنا.

تقابلنا عدة مرات في مقصورة سينما روكسي. كنا نزداد حباً

وشجاعة. وفي المرة الأخيرة تركت رأسها ينام على كتفي ويدها في يدي ونحن نتابع الفيلم. أفلام عديدة حضرناها دون أن نفهم منها أي شيء. حضرنا فيلم «وداد» لأم كلثوم. وقد كان هذا الفيلم من أعز الأفلام إلى قلبي لأنه يحمل نفس اسم حبيبتي، أما بطلته وداد فقد كانت جارية تمتلك حنجرة ملائكية فعشقها مالكها التاجر «باهر» واضطر الى بيعها بعد أن أفلس على إثر غارة لقطاع الطرق على قافلته أيام حكم المماليك. لقد بكينا على الحبيبين اللذين فرقهما القدر، وكم كنا نصفق مع الجمهور حين يستطيع باهر استعادة أمواله فيتمكن من استعادة حبيبته إليه. لقد عدت لمشاهدة هذا الفيلم عدة مرات بمفردي أو مع صديقي مالك الحزين. وعندما كنا نشاهد هذا الفيلم همست لي ودادي بأنني أشبه باهر بطل الفيلم، فأجبتها بأنني مستعد لشرائها بكل ميراثي لو توافق الخوجة بهيرة على بيعها. كنا ننسر كثيراً حين كانت تغني أم كلثوم فحفظنا أغاني الفيلم وخاصة أغنية «يا اللي ودادي صفالك» لأنها تذكر وداد في الأغنية، وفي كثير من الأحيان كانت وداد تهمس لي مطلع الأغنية لتعبر لي عن محبتها الصافية. أما أنا فقد كنت أردد الأغنية بصوت مسموع حينما أنفرد بنفسي في غرفتي في الليالي فأناجي بها حبيبتي.

أما فيلم «الوردة البيضاء» لمحمد عبد الوهاب فقد شاهدناه معاً ثلاث مرات لأن دار السينما قد مددت عرضه لأسابيع عدة. كنا نطرب لأغاني جلال في الفيلم الذي احترف الغناء بعد ان فرضوا عليه الابتعاد عن حبيبته رجاء (التي قامت بدورها الوجه الجديد سميرة خلوصي) مثل أغنية «ياوردة الحب الصافي» و«يا اللي شجاك الأنين» و«يالوعتي ياشقايا». أما فيلم «يحيا الحب» الذي ذاع صيته فقد شاهدته بمفردي بعد ذلك بعام ونصف وقد كنت حينها في وضع نفسي سيء.

شاهدنا أيضاً فيلم «أنشودة الفؤاد» لجورج أبيض الذي كان يحكي عن راقصة أوروبية تتسبب بانفصال زوج عن زوجته فلم

نحب الفيلم كثيراً لأن الراقصة في الفيلم كانت انسانة سيئة بينما حبيبتي راقصة رائعة وتأخذ العقل. أما الأفلام التي كنا نتابعها رغم وجودنا مع بعض (وهذه فرصة لا تعوض فتنسينا الدنيا وما فيها) فقد كانت أفلام نجيب الريحاني الذي كان يطلق على نفسه في أفلامه اسم «كشكش بيه». كنا نضحك من قلبينا لمغامرات كشكش بيه، فشاهدنا «صاحب السعادة كشكش بيه» و«ياقوت أفندي» و«حوادث كشكش بيه». أما آخر فيلم لنجيب الريحاني حضرناه معاً فقد كان «بسلامته عاوز يتجوز» الذي جعل دموعنا تطفر من أعيننا من الضحك.

قلت إنني كنت أمسك بيدها المتعرقة طوال الوقت، وفي كل مرة نلتقي فيها، كنت أخرج من جيبي منديلاً جديداً فأشبعه بعرق يدها ثم، لما أعود إلى البيت، كنت أضعه في مكان أمين بعيداً عن التيارات الهوائية كي يظل محتفظاً برطوبة عرقها وبرائحتها أطول مدة ممكنة، حتى أصبحت أمتلك دزينة من تلك المناديل، وأنا أحتفظ بها حتى الآن. لسعتني الجملة الأخيرة فانتفضت. سألته مقاطعاً:

ـ هل تحتفظ بالمناديل حتى الآن؟

ـ نعم، إنني أحتفظ بها.

ـ هل أستطيع أن أراها؟

أشار برأسه لأنهض إلى الخزانة. قفزت إليها قفزاً وفتحتها ونظرت إليه. أشار إلى علبة خشبية مطعمة بالصدف متوضعة على الرف العلوي. التقطتها ثم عدت إليه. طلب مني أن أفتحها. وعندما فعلت وجدت فيها الأشياء التالية: بعض النقود الفضية القديمة، خلخال ترتديه الراقصات في القدم عند الكاحل، شكالات شعر نسائية، خصلة شعر أشقر، أوراق مطوية تبدو وكأنها رسائل قصيرة، كمية كبيرة من بطاقات الدخول لسينما روكسي مقطوعة ومرقمة بأرقام متشابهة، كيس نايلون فيه دزينة من المناديل الرجالية البيضاء مطوية بعناية، وأشياء صغيرة لا معنى لها.

أخرجت منديلاً من كيس النايلون وقربته من انفي. بحثت عن رائحة وداد. خيّل إلي أنني التقطت رائحة عرق نسائية ناعمة ضاع معظمها بفعل الزمن. لم التقط رائحة صابون أو مسحوق غسيل، هذا يعني ان رائحة المنديل، مهما كانت، هي لوداد. ظللت مدة والمنديل على انفي حتى حفظت الرائحة ثم أعدت كل شيء إلى مكانه وأغلقت الخزانة.

عدت للجلوس إلى جانب الشيخ. احتجنا إلى بعض الصمت، هو ليتذكر تلك الرائحة، وأنا لأنقشها في ذاكرتي. قال الشيخ نافع دون أن استحثه على العودة إلى الحكاية:

ـ كنا سعيدين بهذه اللقاءات البريئة بحراسة سعاد عازفة الكمنجة (التي رعتنا وأحببناها)، وبحراسة ظلام السينما، حتى جاء ذلك اليوم الذي كنا نخافه ونحسب له ألف حساب. فقد عرفت الخوجة بهيرة بلقاءاتنا. لاحظت بأن حزناً قد علا وجه الشيخ نافع، سألته:

ـ وكيف عرفت، من أخبرها بذلك.. هل شاهدكم أحد لا سمح الله؟

ـ لم يشاهدنا أحد، فقد استمررنا في أخذ الحيطة أثناء حضوري إلى دار سينما روكسي. كنت أخرج، كما قلت لك، قبل نهاية الفيلم، أي قبل ان يشعلوا الأضواء.

ـ إذن كيف عرفت هذه الملعونة؟

ـ أخبرها الصبي الذي كان ينقل لي البطاقات والرسائل.

ـ يا إلهي.. قلت وقد تفاجأت. صمت الشيخ برهة ثم شرح لي كيف حصلت المصيبة.

كانت بهيرة قد بدأت تشعر بابتعاد وداد عنها. كانت قد لاحظت بأنها تشرد عنها. لم تعد تكترث بمداعباتها وقبلاتها. صارت تطلب العزلة أو أنها كانت تختلي بسعاد في إحدى الغرف أو على السطح

فتتهامسان مطولاً. كان من عادة الخوجة بهيرة ان تطلب من وداد مشاركتها الحمام حين تريد الاستحمام. أصبحت تلاحظ بأن وداد بدأت تنفر من جسد أبلايتها الأنثوي الهرم. حتى أن وداد صارت تتهرب من مشاركتها الحمام. أما في السرير فقد جعلت تتثاءب وتتناوم في حين ان بهيرة كانت تجد في استحضار متعتها معها. أما عندما أصرت الخوجة على ان هناك أمراً ما يجعل حبيبتها تبتعد عنها باستمرار جسدياً وروحياً فقد كانت وداد تصر على أن الأمر طبيعي وأنها متعبة وغير ذلك من الأعذار التي يمكن أن تختلق. سألت أيضاً سعاد ولكن هذه أيضاً أخبرتها بأنها لا تملك أية فكرة عن حالة وداد. كانت قد وافقت على ان تصحبها سعاد إلى السينما لترفه وداد عن نفسها، فهي صبية على كل حال وتحب قصص الغرام وتجد في أفلام السينما متعة كبيرة. وافقت على ذلك لترضيها بعد أن كانت قد رفضت في البداية. وافقت حين رأت وداد حزينة فأصبحتا تذهبان كل أسبوع لحضور فيلم ثم تعودان لتحكيا لها الرواية التي شاهدتاها. أصبحت وداد كلما عادتا من السينما، تطلب من سعاد وعائشة وفريدة ان يعزفن لها لترقص. كانت ترقص على أنغامهن بفرح وسرور، كامرأة عائدة للتو من موعد مع حبيبها. وفي آخر الليل عندما تكون قد رقصت وضحكت حتى الشبع، تتهرب من ملامسات بهيرة وقبلاتها ومداعباتها. ما إن تحضنها أبلايتها بعد أن يجمعهما السرير، حتى ترجوها أن تتركها في سلام لتنام. أصبحت وداد أكثر مرحاً وأكثر جمالاً ولكنها صارت أكثر ابتعاداً عنها. شعرت بذلك فوراً لأنها تحبها وتغار عليها، ومن يحب يلمس دقائق الأمور في طباع حبيبته. وفي إحدى المرات أرسلت بهية عازفة العود، المتزوجة من ذلك القواد، خلفهما تتبعهما لتعرف هل صحيح انهما تذهبان إلى السينما. هل تدخلان بمفردهما وتخرجان بمفردهما؟ عادت بهية وأخبرتها بأنه ليس هناك ما يشك به. ولكنها، حين لاحظت جفاء وداد المستمر، والذي ليس له تفسير، أصبحت تراقبها جيداً. لاحظت أخيراً بأن أجير الفران، الذي يأتي

لهم بالخبز كل يوم، يتحدث مطولاً مع سعاد في كل يوم تقرران فيه الذهاب إلى السينما. وفي المرة الأخيرة، وبعد أن خرجت سعاد ووداد، استدعته الخوجة وطلبت منه أن يحكي لها كل شيء لأنها تعرف كل شيء. هددته بأنها ستشكيه لمعلمه إن لم يقل الحقيقة، وإن قال، فإنها ستكافئه بمجيدي فضة. حكى لها الصبي كل شيء. أخبرها بقصة البطاقات والرسائل التي كان يوصلها إلى شاب اسمه نافع. عرفتني بهيرة فوراً، فزيارتي لبيتها لا تنسى.

كانت الخوجة بهيرة ذكية وامرأة مجربة. لقد تعلمت جيداً كيف تتصرف مع عشيقتها في مثل هذه الظروف. قابلتهما حين عادتا من السينما كالمعتاد. حتى أنها تمتعت برقص وداد وضحكها ودلالها. حتى أنها سايرتها في دلالها أكثر من أي ليلة مضت. وفي اليوم التالي ذهبت إلى بيت حميدة خانم فأخبرتها ما كان بيني وبين وداد. جعلت امرأة عمي تقتنع انني متيم براقصتها وان وداد تعرف نقاط ضعفي وانها تستغلني لاتزوج بها. خرجت من عندنا قبل عودتي وبعد أن زرعت في قلب حميدة خانم الخوف على مستقبل ابنتها والمصبنة.

حكت حميدة خانم لعمي كل ما عرفته من الخوجة بهيرة. كنت في غرفتي أحاول أن أكتب الأشعار لحبيبتي حينما ناداني عمي لكي أوافيه إلى الصالون الكبير. دخلت عليه فطلب مني أن أغلق الباب. وأنا أفعل ذلك لمحت حميدة خانم وابنتها جليلة تنظران إلي وهما مقطبتان. لم أعرف ماذا يجري حتى فتح عمي ابراهيم باشا فمه المصفر والمرتعش بسبب الغضب الشديد. شتمني ثم ضربني بمنفضة السجائر ثم لم يترك نعتاً مهيناً إلا ووصفني به. قال لي إنني ولد مستهتر، ضائع، مراهق أهوج لا يعرف مصلحته. قال إنني سوف أجعل سمعة العائلة علكة في أفواه الناس. ثم ذكر شيئاً عن الراقصات الرخيصات فعرفت الموضوع. كنت متجمداً. متفاجئاً. من أين عرف؟ ثم أخذ قراره الذي لا رجعة عنه، فعليه ان يحمي الميراث من تصرفاتي الهوجاء. أمرني، من الآن وصاعداً، أن لا أخرج من

البيت إلا بصحبته هو. لن أنزل إلى المصبنة ابتداءً من اليوم. سوف أظل هكذا حتى تكبر ابنته سنة أخرى ومن ثم علي ان أتزوجها.

ـ هيا انقلع من وجهي أيها النذل الحقير ـ صرخ عمي في وجهي ـ سوف تسجن في غرفتك حتى موعد الزفاف. في آخر أيام عائلة الأغيورلي يأتينا ولد ليعشق لنا راقصة.. هه!!

لم أفتح فمي. خرجت من الصالون وأنا مذهول. كانت الدنيا مسودة في عيني وقد خطر في بالي للحظات أن أنتحر. التقت عيناي بعيني امرأة عمي الشامتتين. كانت جليلة تبكي دون أن أعرف على ماذا تبكي. هل تبكي حزناً علي أم خوفاً على فقداني؟ تلقفتني خديجة فأصعدتني إلى غرفتي. هي التي بكت ولست أنا. كانت تعلم كل شيء عن وداد وعن لقاءاتنا في سينما روكسي. قبل أن أسألها، حلفت لي وهي تبكي انها لم تفتح فمها، وأن الخوجة بهيرة كانت اليوم في زيارة حميدة خانم فعرفتُ أن أمرنا قد فُضح.

نعم، قد فضح. وأصبحت منبوذاً في بيت عمي. كان علي أن ألزم غرفتي وأن لا أبرحها أبداً. كان ممنوعاً علي أن أخرج من البيت إلى أي مكان كان. كانت خديجة تخدمني في غرفتي. تطعمني هناك. وعندما كانت روحي تطق وأرغب في التجول في أرجاء البيت (خصوصاً عندما يكون عمي ابراهيم في المصبنة) كنت أواجه بنظرات احتقار من طرف حميدة خانم وابنتها البدينة. لذلك كنت أفضل البقاء في غرفتي. كنت أظل مستلقياً في سريري أفكر، يائساً من الدنيا. كنت أبكي في كثير من الأحيان، خصوصاً في الليل بعد أن تكون خديجة قد آوت إلى فراشها. أي حظٍ هذا الذي أصابني في حبي؟ كنت يائساً وفكرت، كما قلت، في الانتحار.

بدأت أكره الحياة. أي حياة هذه بدون وداد؟ ولكن ماذا حصل لها؟ ماذا تفعل بها الخوجة بهيرة؟

تصورت بأنها، هي أيضاً، ممنوع عليها الخروج من البيت. هل تبكي؟ كانت سعيدة بحبنا، كانت تنتظر، كما قالت لي، موعد سينما

روكسي كي يحل لتريح يدها المتعرقة في يدي. قالت لي مرة إنها بدأت ترى الحياة هانئة. جميلة. أما الآن فقد أصبح عليها أن ترقص في صالونات النساء المترفات وفي الأعراس وأن تتقبل غزل الخوجة بهيرة الكريه. كانت هذه التصورات تملأ نفسي سقماً وكراهية للحياة. حتى أن صورتهما وهما في السرير تصيبني بالغيرة. كنت أعلم أن وداد لم تعد تتقبل مداعبات أبلايتها، ولكن، من يعلم؟ فقد تحاول الخوجة أن تنسيها إياي. هنا، كنت أرتعب وتزداد أزمتي سوءاً.

في الحقيقة، فقد تكتمت الخوجة بهيرة عما فعلته. تركت المرأتين تذهبان كالمعتاد إلى السينما كل أسبوع. أما صبي الفران، فقد كان يستلم من سعاد البطاقة والرسالة والبقشيش ويرحل. لم يكن يأتي إلي ليسلمني الأمانة، بل كان يعود إلى الخوجة، بعد أن تخرج وداد وسعاد، ليعطيها ما طلبت منه سعاد تسليمه إلي. استغربت وداد عدم مجيئي في المرة الأولى، أما في الأسابيع التالية فقد أصبح الأمر مقلقاً. صارت حزينة. حسبت في البداية بأنني قد أكون مريضاً. حاولتا مرة التجول في حارتنا وأمام بيتنا لعلني أظهر لهما. ولكنني كنت حينها مستلق في سريري يائساً من الدنيا (فلم أكن حتى أخرج إلى الفرندة المطلة على الشارع). ذهبت سعاد إلى المصبنة، فلم يكن عمي يعرفها. أوحت له بأنها تريد شراء كمية من الصابون. توقعتا أن تراني هناك ولكن سعاد خرجت من المصبنة وقد أصابتها حيرة أعظم. كانتا تتساءلان، ماذا حدث لي، بالضبط مثلما كنت أسأل ماذا حدث لوداد؟

أما في البيت فقد كانت وداد تزداد تعاسة. كانت الخوجة تراقبها وتعرف سبب تعاستها. كانت تريد أن تحتفظ بها، فأنا من صنف الرجال. والرجال يخطفون النساء منها، فعليها ان تقف في وجوههم، أي في وجهي. حتى ولو شعرت وداد بالتعاسة مؤقتاً، إلا أنها سرعان ما ستنسى. إنها لا تريدها أن تعيد سيرة أمها بديعة التي غرر بها اليوزباشي جودت ففقدتها إلى الأبد.

كانت تراها تتنهد. تتحرق. لا تعرف السبب الذي جعلني ابتعد. كانت تستلقي، في السرير، إلى جانب أبلايتها. تتركها تفعل ما تريد، وعندما كانت تنتهي الخوجة كانت تدير لها ظهرها وتظل سهرانة حتى الصباح. كانت الخوجة تسمع تنهداتها. يوجعها قلبها عليها ولكن، ما باليد حيلة، لقد فعلت ما بصالحها. لم تعد وداد تطلب من النساء ان يعزفن لها، حين تعود هي وسعاد من السينما، لترقص. كانت تعود وقد ازداد ألمها. كانت بهيرة تلاحظ هذا الشيء في سحنتها. ما إن تعودا حتى تهرع فوراً إلى الغرفة فتخلع ثيابها وتستلقي. وربما تبكي أيضاً. تأتيها بهيرة وتحاول أن تفرحها بالهدايا أو بمشاريع حفلات ولكنها تظل على حالها، فليس من ضمن هذه المشاريع، مشروع غناء في بيت حميدة خانم. وعندما كانت ترقص في عرس، أو في صالون نسائي، فقد كانت تفعل ووجهها تعلوه مسحة حزن. ربما لهذا السبب صارت تؤثر في النساء أكثر من ذي قبل، فمسحة الحزن هذه جعلتها أكثر جمالاً وسحراً (هكذا هن النساء، دائماً رومانسيات). أصبحت وداد تكره الذهاب إلى السينما. لم يعد يعنيها في شيء محمد عبد الوهاب وكشكش بيه ونجيب الريحاني وأم كلثوم وجورج أبيض وبشارة واكيم.

في إحدى المرات، لمّحت الخوجة بهيرة لسعاد بأن بيت حميدة خانم قد يشهد عن قريب حفلة زفاف وانهن سيحيين الحفل. تركتها مشغولة الذهن. هل سيتزوج ذلك المتيم الذي كان يبدو في ظلام السينما وكأنه سيغمى عليه من شدة حبه لوداد؟ هل نسي حبه وقرر ان يتزوج ابنة عمه البدينة من أجل الميراث؟ ولماذا إذن كان يقسم بأنه مستعد لأن يتخلى عن حصته من المصبنة إن كان ذلك ثمناً لتخلصه من جليلة؟.. لم تجد سعاد الشجاعة لتنصح وداد بأن تنساني.

أما أنا فقد كنت مسجوناً في غرفتي. كنت أنتظر، حسب أوامر عمي ابراهيم باشا، بلوغ جليلة سن النساء لكي أتزوجها. كانت في الثانية عشرة، وهي السن التي تقترب فيه الفتاة من الأنوثة. كانوا،

كل صباح، يتفقدون سروالها لعل نقطة دم حمراء تنبئ بموعد الزفاف. كان عمي قد خطط في ذهنه لمستقبلي. ما إن تبلغ ابنته حتى يزفني إليها ثم سيرسلنا إلى باريس للدراسة. لم يكن عندي علم بكامل خطته. كنت أحسب أنني سأتزوجها ثم سأعود للنزول إلى المصبنة. وبما أنني كنت أكرهها، فقد يئست من حياتي وكرهت العيش، فقد كنت أحب انسانة واحدة وأتمنى الزواج منها. وبما أنهم منعوني عنها وربما الآن تكرهني، فقد فضلت أن أدفن نفسي في غرفتي.

كانت لحيتي قد طالت وأهملت شعر رأسي وصرت أكره الاغتسال. كان جسمي قد لحقه الهزال وأصبحت دائم البكاء والأنين. لم أعد أشتهي الطعام أو الشراب أو القراءة. لم أكن أفعل شيئاً سوى إخراج الأشياء التي تذكرني بها فأعيد قراءة الملاحظات والرسائل المبتسرة وبطاقات دار السينما وشم المناديل المشبعة برائحة عرقها. وفي الحقيقة فإن خديجة قد خافت علي وعلى عقلي. كانت حالتي سيئة. إن استمررت على هذا المنوال فقد أموت أو على الأقل قد أجن. كانت تأتي لتتفقدني فتجلس على حافة سريري وتغرق في موجة بكاء صامت. أين كان وأين أصبح نافع؟ راحت ترجو عمي وزوجته بأن يفعلا شيئاً لإنقاذي. ولكنهما لم يكونا يأبهان لتحذيراتها. كل ما كانت تسمعه من عمي هو انه لن يحدث مع ابن أخيه شيء وعليها ألا تخاف وأن تهتم بتغذيتي. ولكنني كنت أرفض الطعام. كانت ترجوني وهي تبكي أن آكل، وحينما أراها تتوسل إلي بدموع كنت أكتفي ببعض اللقيمات.

بدأت خديجة تكرههم. صارت تكره عمي ابراهيم باشا وزوجته وابنته. كانت ترى في كل ما يجري ظلماً لابنها الذي لم تلده ولكنه صار كذلك بعد أن تيتم. ويبدو أن موتي لن ينزل كصاعقة على رأس عمي. حتى أنه بدا عليه عدم الاهتمام إن عشت أو مت. والأفضل إذا مت، عندها سيحصل هو على ميراث أبي وستحل إلى الأبد قضية مصنع الصابون. ونكاية بعمي وامرأته راحت تشجعني

على الهرب. حتى أنها ذهبت إلى بيتها الذي عاشت فيه مع زوجها القتيل، فخلعت المسامير وفتحته. قامت بتنظيفه وترتيبه. فكرتْ خديجة، في حال ازدادت حالتي سوءاً، بأن تهرب بي من بيت عمي لتنقذني.

كان عمي قد استدعى الطبيب عدة مرات. كان يصف لي بعض المهدئات والمقويات وينصح عمي بضرورة تغيير نمط حياتي. كان ينصح بأخذي إلى احد المصايف لأشم الهواء النقي. ولكن أنى لعمي الوقت والاهتمام ليأخذني إلى المصيف؟ بعد مدة راح عمي يتناساني. أصابه الملل والكلل من حالتي. ولكن عقل خديجة ظل يعمل من أجل انقاذي. كانت تعرف دائي ودوائي. وفي أحد الأيام اقترحتْ على امرأة عمي ان تحضر احدى الشيخات لتقرأ لي وتطرد من داخلي الشياطين التي عششت فيه. وافقت حميدة خانم وهي تتثاءب. قالت لها اذهبي واحضري احداهن لتقرأ له، فقد مللت منه ومن أمراضه وشياطينه. استدلت خديجة على بيت الخوجة بهيرة (حدث ذلك دون أن أعلم فقد كنت طريح الفراش وغائباً عن الدنيا وجد يائس). ذهبت خديجة إلى بيت الخوجة وطرقت الباب فخرجت لها سعاد. عرفتها بنفسها. قالت لها بأنها خادمتي وانها تريد ان تتكلم معها أو مع الآنسة وداد في أمر مهم. بعد ساعة كن في بيت خديجة.

قصت خديجة على سعاد ووداد حقيقة ما جرى. أخبرتهما بأنني أموت من الفراق ومن شدة الحب في غرفتي، منبوذاً من عمي وامرأته. حكت لهما كل شيء، عن الميراث وشرط الزواج من جليلة التي لم تبلغ بعد وعن مدى كراهيتي لها. وفجأة انخرطت وداد في البكاء. لم تكن تتصور أنني أموت بسبب عشقي لها. كانت ما تزال تحبني رغم كل ما تفعله لها الخوجة لإرضائها. ولكن كيف السبيل إلى اللقاء؟ أخبرتهما خديجة بأنها قد استعدت لكل شيء، وما على وداد إلا أن ترتدي بعضاً من ثياب خديجة العتيقة لتبدو وكأنها شيخة تقية تشفي بقراءاتها المرضى وتطرد عنهم العفاريت

وخصوصاً العفريتات اللواتي يعشقن الرجال فتسكنهم ولا سبيل إلى شفائهم إلا بطقوس خاصة. وافقت وداد، فقد كانت، هي الأخرى، تتحرق لرؤيتي وشفائي. ساعدتاها في ارتداء تلك الثياب. كان جمالها وقدها يفضحانها رغم كل تلك الثياب العتيقة، فقد كانت معشوقتي ملاكاً كاملاً.

خرجت خديجة ووداد وظلت سعاد تنتظرهما في بيت خديجة. بعد عشرين دقيقة كانت خادمتي تدخل وداد (الشيخة الفقيرة المتزهدة محنية الظهر) إلى بيت عمي. فوراً، قادتها إلى الطابق العلوي دون أن يراها أحد، بعد ان أعلمت حميدة خانم بأنها أتت بالشيخة. أدخلتها إلى غرفتي. أخبرتها بأنها ستنتظر في غرفتها، وأشارت إلى أحد الأبواب، ثم أغلقت الباب.

وقفت وداد هناك، قرب الباب. لم أكن وقتها صاحياً لكي أراها. كنت غائباً عن الدنيا بفعل منومات الدكتور بيخار. ولكنها كانت في غرفتي، وخلفها الباب الذي أغلقته خديجة. خلعت وداد الملحفة المصفرة واقتربت من سريري. كانت تضع يدها على فمها كي لا تصرخ من هول ما كانت ترى. كنت في حالة مذرية. شعري غير مقصوص ومضى عليه وقت لم يغسل. كانت تراني دائماً بشعري المرتب واللامع، أما الآن فإنها تراني في أسوأ حالاتي. أيضاً كانت لحيتي قد طالت وكنت أفوح بروائح المرض والعرق والسرير. كنت قد نحفت واصفر وجهي وتشققت شفتاي. باختصار، فقد بدوت شبه ميتٍ.

ركعت بجانب السرير. كانت تبكي. أمسكت بيدي وراحت تقبلها، تمررها على وجهها وتبللها بدموعها. كانت تردد.. ياحبيبي ياحبيبي. أما أنا فقد كنت مسافراً في قارب صغير جداً. كان يقود القارب الدكتور بيخار بمجدافين صغيرين. كنت أدير له ظهري وانحني إلى الماء أبحث عن أمي وأبي. كانت أمي تظهر لي وهي تحت الماء.. تناديني. تطلب مني أن أقفز إليها. كانت تظهر لي وهي تبتسم بحنان بحثت عنه في وجوه كل نساء الأرض فلم أجده سوى

في وجه خديجة. كانت تغيب كلما هممت بأن أترك قارب الدكتور بيخار لألحق بها. في هذه المرة رأيتها تأتي من تحت الماء. لم تكن تلوح لي بأن ألحق بها، بل كانت تصعد مباشرة حتى سطح البحر. أمسكت بيدي وراحت تقبلها. بللتها بالماء وبدموعها. كنت أسمعها تناديني بياحبيبي. اعتادت دائماً ان تناديني هكذا. أردت ان أترك القارب وأنزل إليها ولكنها راحت تبكي وترجوني ألا أرحل.. بدأت أتأوه. مدت يدها وراحت تمسح على جبيني. الغرابة هي ان جبيني كان مبللاً أكثر من يدها. فتحت عيني فوجدت أنني بدأت أحلم. أحلم بأنني لست على قارب الدكتور بيخار، بل على سريري. وليس هناك بحر بل جو غرفتي نفسها. ولم تكن أمي هي التي تمسك بيدي وتبكي، بل وداد، ترتدي ثياب الخادمات، تركع إلى جانب السرير، تبكي بحرقة وهي تردد كلمة حبيبي دون توقف.

استسلمت للحلم. صدقته. كنت أبحث عن وداد في كل مكان. في الحلم أو في الحقيقة، لا يهم. المهم أن أراها وألمسها. لم أدقق كثيراً في حقيقة ما أرى. كنت أتمنى أن يكون ما أراه حقيقة.. ولكن لا يهم، فليكن حلماً، فلم يعد هناك فارق عندي بين الحالتين. شاهدتني أنظر إليها. جمدت للحظة ثم نهضت وجلست على السرير واحتضنتني. صارت تقبلني غير آبهة بعرقي وروائحي. تلمستها. رحت أتلمس جسدها بينما كان رأسي مشدوداً إلى صدرها. تبكي، تقبل شعري وتقول:

- أنت تحبني بهذا القدر؟ لقد ظلمتك، حسبتك نسيتني عندما طلبوا منك ذلك. إنني أحبك صدقني. يجب أن تعيش.. يجب أن تعيش.

لم أتوقف عن تلمسها. بدأت أشك بأن ما أراه حلم. يبدو أنني كنت أحلم وعندما فتحت عيني تحولت إلى الحقيقة وليس العكس. ولكنني غير مقتنع بذلك، فكيف يمكن أن تجلس وداد على سريري وتحضنني وتقبلني وتبكي على حالتي؟ كيف يمكن أن تكون بقربي؟ هل أصبحت انسانة فقيرة فترتدي مثل هذه الثياب؟ ولكنها هي ذاتها. برائحتها المميزة والتي تشربتُها أثناء لقاءاتنا في مقصورة

سينما روكسي. إنني أعرف تماماً ملمس يديها، فطالما حضنت يدها في يديّ ومسحت عنها العرق. كنت طوال الوقت أدرس حقيقة ما أراه وأشعر به.. هل يمت إلى الحقيقة أم إلى عالم الأحلام؟ وبينما كنت على هذه الحال وإذ بها تتوقف عن البكاء. تسرح بذهنها إلى بعيد. راحت تفكر في أمر أو تدرسه في عقلها. قطبت بين حاجبيها بجد. هذه هي المرة الأولى التي أراها فيها على هذه الحال. قالت بصوت عال:

ـ سوف أريهم كلهم.. إنني لك يا نافع. سوف تثبت لهم جميعاً إنني لك.. لعمك ولامرأة عمك البدينة حميدة خانم.. للخوجة بهيرة أم التجاعيد والتي بدأت أكره رائحة فمها. سوف نريهم جميعاً.. سوف نخرج لهم لسانينا.

قالت انتظرني لحظة ياحبيبي ثم تركتني ونهضت. كنت أتابع كل ما تقوم به. كنت مسحوراً. ذهبت الى الباب وسحبت المزلاج. تأكدتْ من أن الباب مقفل تماماً ثم عادت. وقفت أمام السرير، ظهرها إلي، ثم راحت تخلع ثيابها. أسقطت القطعة السفلى من الملحفة، ثم خلعت ثوباً، كان أصفراللون، ثم خلعت شلحتها التي كانت ربما أكثر جدة وملاءمة لجسدها وبقيت بالكلسون الحريري ناعم اللون، الذي تجمله أشرطة من الدانتيلا عند الساقين. عندما حنت جذعها لتخلص شعرها من الشلحة شاهدت الخط الاهليلجي الغامض بين الفخذين. استدارت إلي. كدت أموت من غصة حلوة مرقت في صدري. كانت تبتسم لي رغم البلل الذي احتل عينيها ووجنتيها. كانت عارية. جسد أبيض عاجي. كل شيء فيها جميل. كل شيء فيها خارق. مرةً كنت أقول إنني أحلم، ومرةً أقول إنني في الحقيقة. اقتربت من السرير ثم استلقت إلى جانبي. ضمتني إليها. التصقت بي. مدت يدها وعرتني في الأسفل، ثم خلعت كلسونها الذي بالدانتيلا. همست لي مباشرة في أذني:

ـ أنا لك، هيا، خذني.

لم أفهم ماذا كانت تعني. صارت تقبلني. أيضاً لم أفهم ماذا يحدث. لم تنتظرني لأبادر فأنا كنت مسحوراً أو في عالم الأحلام. تركتني استلقي ثم نهضت فوقي وجعلتني آخذها.

كان ما جرى شيئاً ملائكياً. كنت أقبض على جسدها وعلى الحقيقة التي تأكدت أنني أعيش فيها في تلك اللحظات. دبت فيّ الحياة من جديد وسمعت نفسي ألهث وسمعت لهاثها. كانت تقبلني وتبكي وتتحدى. كانت رقيقة معي وصارمة مع كل هؤلاء الذين قررنا أن نبرز لهم لسانينا. وعندما صرختُ ازدادت وتيرة لهاثها حتى همدت أخيراً. استلقت إلى جانبي وأنا ممسك بها كي لا تتحول إلى حلم فارغ ينسى مع الأيام. ظللنا متلاصقين بصمت. كنت أشعر باليقظة وبالضعف. نهضت وارتدت ثيابها ثم خرجت وتكلمت شيئاً مع خديجة ومن ثم عادت. بعد دقائق استلمت وداد منها صينية الطعام. كنت جائعاً فأكلت من يدها. جعلت تطعمني وهي تقبلني. لقد تم انتشالي من براثن الموت للمرة الثانية.

حكت لي وداد، وهي تطعمني، كل شيء. أخبرتها بأن الخوجة هي التي وشت بنا إلى امرأة عمي، وكيف أصدر عمي حكمه الجائر علي بالسجن حتى موعد بلوغ ابنته جليلة. طلبت مني، إن كنت أحبها فعلاً، أن أعود إلى طبيعتي وأن أعود قوياً وجميلاً كما كنت. وعدتها. وعدتني أن تعمل على أن نلتقي باستمرار. قالت إن بيت خادمتي خديجة يصلح كمكان للقاءاتنا، ثم أعادت ارتداء ملحفة الخروج وظلت تقبلني لدقائق ثم حنت ظهرها وخرجت. سمعتُ خديجة وهي تنزلها إلى الطابق السفلي، ثم انصفق الباب الخارجي.

صمت الشيخ. أسند رأسه جيداً على مقدمة السرير وأغمض عينيه (كنت قد ساعدته على الاستلقاء بعد ان تناولنا طعام الغداء). رحت أراقبه. كان يعصر جفنيه في بعض الأحيان. قلت في نفسي إنه يتذكر ما كان جري بينه وبين وداد في السرير. تركته يستعيد لحظة العشق. قلت في نفسي أيضاً إنني سأنتظره حتى ولو نام. نهضت

واقتربت منه. أردت أن أراقب اختلاجات بشرته وهو يتذكر الحادثة عن قرب. كان تنفسه سريعاً ومحموماً بينما انتفخ عرق في صدغه. لاحظت أنه كان منشرحاً ومتمتعاً.

تركته ووقفت إلى النافذة استطلع ما يجري في الخارج. كان وقت المغيب قد حل، فقد انتهى النهار سريعاً. ثم لاحظت أنني لا اسمع صوت المطر. كيف لم يخطر في بالي انه ربما توقف عن الهطول؟ فتحت النافذة ثم الأباجور. كان المطر يهطل بنعومة. انه بقايا المطر. تنفست بعمق، فقد بان الأفق بشكل أفضل بعد أن انقشع الغيم الثقيل الواطئ ولم يتبق سوى الغيم العالي الذي كان يتفكك في بعض الأرجاء. يبدو اننا سنرى الشمس في الغد. أغلقت الأباجور والنافذة. هل يمكن ان يتوقف المطر وتشرق الشمس في الصباح والقصة لم تنته بعد؟ أصابني غم وقلق. أسرعت إلى مفتاح النور. صرت أرى تعابير الشيخ نافع بشكل ممتاز. كان يبتسم هذه المرة. قرفصت بجانب السرير ورحت أراقب قسمات وجهه اللطيفة. كان شاباً جميلاً حين قررت وداد ان تمنحه نفسها. إنه يحتفظ بوسامته حتى الآن رغم بلوغه الثمانين. فتح عينيه فرآني إلى جانبه. كان سعيداً. كأنه كان يرى حلماً ممتعاً ويخاف أن يفقده. عاد إلى إغماض عينيه. هززته برفق. لاحظت ان ارتجاف يديه يخف تدريجياً.

ـ إيه يا شيخ نافع.. هل غفوت؟ سألته بصوت شبه هامس لكيلا أضر بمتعته الذهنية. مد يده نحوي فاحتضنتها. كانت دافئة ومتجعدة وملساء. قال:

ـ أشكرك يا بني لأنك استمعت إلي، لقد جعلتني أستعيد تلك اللحظات. كم أنا ممنون لأواخر أيامي التي قادتك إلي.

ـ إنني سعيد لسعادتك، ولكن علي ان أخبرك بأن المطر يتوقف الآن في الخارج. غداً ستشرق الشمس ونهاية الحكاية بعيدة. إنني قلق من أجلها.

ـ لا تقلق.. لقد سمعت معظم الحكاية، سوف أحاول ان أنهيها بسرعة. لن أندم أبداً إن أنا مت في الغد.

ـ ولكن ماذا عن نهاية الحكاية، اريد أن أعرف كل شيء.. ماذا عن اسماعيل؟

ـ سوف أحاول، ولكن عليك ان تفهم شيئاً.. طوال عمري كنت أحاول استعادة ذكرى ما جرى بيني وبين وداد في ذلك اليوم ولكنني كنت أفشل. كان علي أن أحكي الحكاية إلى شخص مثلك كي استعيدها. أنت لا تعرف مدى سعادتي في هذه اللحظة. قلت له وأنا خائف من أن ينام:

ـ أعرف شيخ نافع.. أعرف، وأنا مسرور لسعادتك. ولكن، ماذا جرى بعد أن أعطتك نفسها؟ فقال وهو يترنح بين الحلم واليقظة:

ـ صرنا نلتقي كل اسبوع في بيت خديجة، ثم كل ثلاثة أيام، ثم كل يوم تقريباً.

ـ ولكن ماذا عن عمك ابراهيم باشا؟

ـ فرح بي.. لقد شاهدوا بقعة دم في سروال جليلة الداخلي فقرروا ان يزوجونا.

ـ ألم تهرب؟

ـ نصحتني وداد بأن أتزوجها. قالت لا يجب أن أخسر الميراث. كنت أرفض، ولكنها أصرت. كانت تقول إنني ابن عائلة وهي مجرد راقصة وغير ذلك من هذا الكلام. ركعت أمامها وبكيت ولكنها كانت تقول إن سعادتها في أن تراني أمتلك بيت أبي والمصنع. كانت تعتقد بأن عمي سوف يفعل المستحيل، إما أن أتزوج ابنته جليلة أو يميتني قهراً.. كانت تخاف علي. أقنعتني بأنها ستنتظرني.

بدأ يتكلم بهدوء وبكلمات متقطعة وكأنه يبتعد عني. يتكلم وهو مغمض العينين. كنت أهزه برفق في البداية ثم بقوة. سألته وأنا أكاد أبكي:

ـ ماذا يعني أنها ستنتظرك؟

ـ كان علي أن أسافر إلى باريس مع زوجتي لأدرس الحقوق..

ـ لماذا وافقت؟.. سألت بحنق، فقال وكأنه كان يتألم:

ـ هذا هو خطأي.. لم يكن علي أن أتزوج وأسافر (بدأ يبكي) لأنني..

ـ لأنك ماذا؟.. قل يا شيخ نافع أرجوك.

راح يغيب في ملكوته. لم تعد يداه ترتجفان تقريباً. ماذا يحدث يا ترى؟ جعلت أهزه من جديد. مسحت له دموعه بيدي وباليد الأخرى كنت أمسح دموعي. قال بكلمات متباعدة أكثر فأكثر:

ـ لأنني.. لن أراها مرة أخرى.. فقدتها إلى الأبد.

ـ لماذا.. ماذا حدث؟ قال وكأن لذة عظيمة تجتاح جسده. كأنه بين يدي معشوقته. كأنه يصل إلى الذروة الجنسية:

ـ والآن اتركني أرجوك.. لا أريد أن أفقد متعتي. إنني أستعيد تلك اللحظات.. التي قضيتها بين يديها. كنت أشعر بأنه يغيب لذلك استعجلته:

ـ فقط قل لي ماذا حدث لوداد.. أرجوك. دعني أقبل يدك.

ـ لأنها.. هربت.. من.. الخوجة بهيرة. ثم شهق وغاب عن الوعي.

أمسكت يده ورحت أدلّكها. حاولت أن أوقظه من جديد، ولكن اليد كانت رخوة وثقيلة. وقف شعر رأسي. أمسكت بها من الرسغ وبحثت عن نبضه. مر وقت وأنا أبحث عنه ولكنني لم أفلح. ابتعدت عن السرير مرعوباً. رحت أتمتم: شيخ نافع.. شيخ نافع..!! عدت إليه. وضعت أذني على صدره في مكان القلب. كان ساكناً. لقد مات الشيخ نافع. أمسكت به ورحت أهزه وأنا أناديه بصوت خافت:

ـ شيخ نافع.. شيخ نافع.

تملكني رعب قاتل. خفت على نفسي أن أموت. تراجعت وجلست

على الأرض ووضعت رأسي بين يدي. هل يمكن أن يأتي الموت بهذه البساطة؟ قبل لحظات كان يتكلم ويرتجف بفعل مرضه. كان يريد استعادة لحظات اللذة ليموت بها. أي شيء مرعب هذا؟ هل ساعدته ليموت؟ اقشعر بدني وصرت أبكي. لم يكن يهتم سوى بذلك الجزء من الحكاية الذي يقوده إلى استعادة اللذة ومن ثم الموت. أما أنا فقد أسرني بحكايته حتى جعلني أكاد أموت إن لم أعرف نهايتها. ثم هناك اسماعيل، إنه يهددني بالقتل ولا ينفذ تهديده بسبب وجود الشيخ، أما الآن، بعد أن مات، فإنه سيقتلني لا محالة. قلت في نفسي أن علي ألا أخاف، فأنا أملك بندقية، أي أنني أستطيع الدفاع عن نفسي. ولكنني رجل يخاف من خياله. يفضل أن يموت على أن يقتل نفساً أخرى.

سمعت صوت خطوات اسماعيل يصعد إلى الطابق العلوي. إنه يأتي بطعام العشاء. نهضت واقتربت من الباب. مسحت دموعي عن عيني ووضعت أذني على خشب الباب. سمعت الخطوات تقترب من باب الغرفة ثم وهو يضع صينية العشاء ويلتقط صينية الغداء. سمعته يشتمني ثم ابتعدت الخطوات. خطواته وهو ينزل على الدرج ثم عم الصمت من جديد. تنفست بعمق. جلست مستنداً على الباب ومددت ساقي على الأرض. كان علي أن أفكر.. كيف سأهرب ومتى؟ أفضل وقت هو الفجر، أي أن علي أن أقضي الليل بطوله مع جثة الشيخ. إذن لا يجب أن يعلم اسماعيل بما جرى. لو علم بموت سيده لدخل وقتلني. إنه يعلم بأنني لن أستخدم البندقية بسبب جبني. لقد أخبرني بذلك عندما ضبطته واقفاً على السلم الخشبي يتلصص علينا من خارج النافذة. ولكن لماذا مات؟ لماذا الآن..؟ كنت قد بدأت أحبه وأحب كل ما يمت إلى عالم حكايته. عشقت وداد مثلما أحبها هو. بدأت أحب الرقص والخوجات وآلة الكمنجة التي كانت تعزف عليها سعاد. أحببت المناديل التي كان يجفف بها عرق يديها ويحتفظ بها ليشمها بعد ذلك. فكرت أن آخذها معي إلى حلب. لم أعد أستطيع العيش بدون آثار وداد، خصوصاً رائحة عرق يديها وصورتها وهي واقفة فوق قبعة المندوب السامي المسيو دو مارتان.

ولكن، ماذا عن الحكاية؟ هل سأخسرها بعد ان مات الشيخ نافع دون أن يكملها؟ إنني لا أستطيع الطلب إلى اسماعيل ليكملها لي، وهو الوحيد الذي بامكانه فعل ذلك. إنه يكرهني لأنني كنت استمع إلى الحكاية. كان علي إما أن أستسلم أو أن أعرفها بنفسي. هل يمكنني ذلك؟ هل أستطيع معرفة سبب هروب وداد من الخوجة؟ أو أن أعرف من هو اسماعيل؟ أو ماذا حدث لوداد ولجليلة زوجته؟.. وغيرها من الأسئلة التي لم تخطر في بالي حينها حينما كنت جالساً على أرضية الغرفة مستنداً إلى الباب؟

تطلعت في الصور المعلقة على الجدران أو المرتبة على كل سطح خشبي لمفروشات الغرفة. بإمكاني معرفة نهاية الحكاية منها. هكذا قلت لنفسي بصوت مسموع. سوف أقضي الليل بطوله، حتى مطلع الفجر، أحدق فيها وأدرسها. ثم هناك الصندوق. انه يحتوي على اوراق كثيرة مطوية. سوف آخذه معي إلى حلب، فاسماعيل ليس في حاجة إلى محتوياته.. إنه يكره كل شيء يمت إلى الحكاية وأبطالها. قد أجد فيه شيئاً يحل لي كل هذه الألغاز.

نهضت. كنت قد وجدت حقيبة قديمة في الخزانة التي فتحتها حين أخرجت الصندوق بناءً على طلب الشيخ. أخرجت الحقيبة ثم الصندوق ووضعتهما على الكنبة. أتيت بصورة وداد في محطة القطارات. فتحت الحقيبة لأضع فيها إطار الصورة ومحتويات الصندوق فوجدتها مليئة بالأوراق.

6

بقية الحكاية كما استنتجتها بنفسي وكيف هربت من اسماعيل وأخيراً النهاية

كنت قد أمضيت الليل بطوله مع جثة الشيخ نافع. جعلته يبدو وكأنه نائم، ثم جلست على الأرض وإلى جانبي البندقية ووجهي إلى الباب والنافذة ورحت أبحث في الأوراق والصور وفي الصندوق عن أي إشارة تلقي الضوء على ما جرى. قلت لكم، في البداية، بأنني أملك عقلاً تحليلياً. أي إنني بمجرد النظر إلى مجموعة من أرقام المصرف الزراعي الذي أعمل فيه، أعرف ما كان عليه الموسم، وأي محصول كان أفضل من غيره.. وغير ذلك من الأمور التي لا تهم القارئ الآن. أستطيع أيضاً أن أجمع المعطيات، أن أصنفها، وأن أستخلص منها سياسة المصرف للسنة المطرية القادمة. في إحدى المرات، وعذراً لاستطرادي في الأمور المهنية، توقعت من الخط البياني للهطل، أن يكون العام القادم، عام جدب. توقعت أن تقل كمية الهطل، وهكذا أنقذت مصرفي من تقديم قروض لن تأتي إلا بوجع الرأس حين نطالب الفلاحين الذين خسروا الموسم بدفع أقسطاهم. حينها أثنوا علي في المصرف وتم ترفيعي إلى معاون رئيس شعبة «الخطة الزراعية».

بهذه الرغبة في تحليل المعطيات ووضعها في نسق، جلست أعمل في غرفة المرحوم الشيخ نافع. كانت هناك في الحقيبة وثيقتا سفر للزوجين نافع الأغيورلي وجليلة الأغيورلي صادرتان عن السلطات الفرنسية في حلب بتاريخ 24 نيسان 1937 أي انهما تزوجا قبل هذا التاريخ وسافرا إلى مرسيليا بالباخرة عن طريق بيروت بتاريخ 13 أيار 1937. كتب في الوثيقتين انهما متزوجان وذكر اسم الزوجة أو الزوج. دامت رحلة الباخرة من بيروت إلى مرسيليا مدة سبعة أيام، لأن تاريخ ختم الجمارك الفرنسية واضح أيضاً وكان 20 أيار 1937. انتسب نافع إلى جامعة باريس وبدأ دراسته للحقوق. لم يزر نافع سورية ولم يرسل زوجته أثناء دراسته، بل كانا يقضيان العطلات في التجوال في فرنسا، فهناك العديد من الصور التي تظهرهما معاً أمام برج ايفل أوفي الريف الفرنسي. ولكن يجب ان لا يحسب القارئ بأنهما كانا على ما يرام، ففي الحقيبة عدة رسائل كتبها العم ابراهيم باشا يطلب منهما ان يتفاهما، وفي كل رسالة هناك ملاحظة كتبتها حميدة خانم (التي كانت شبه أمية) تعطي بعض النصائح لابنتها لكي تداري زوجها وتصبر عليه. ولم أقرأ أية كلمة نابية بحق نافع لأن العم وامرأة العم كانا يعرفان أنه سيقرأ الرسائل. لفت انتباهي انه في الرسائل المتأخرة، كانت امرأة العم تسأل تلميحاً إن كانت جليلة قد حملت أم لا، ولكن يبدو ان الجواب كان سلبياً باستمرار لأنه في آخر مرة تم ذكر موضوع الحمل كانت هناك نصيحة قدمتها الأم لابنتها لكي تعرض نفسها على طبيب مختص في باريس.

آخر رسالة كانت المفاجأة الكبرى. كانت بخط حميدة خانم شبه الأمية. كتبت تنبئهما بالمصيبة التي حلت عليها وعليهما. فقد مات العم ابراهيم باشا فجأة. استيقظوا صباحاً فوجدوه وقد أسلم الروح إلى (بارئها) كما كتبت وهي تطلب منهما العودة فوراً إلى حلب حتى ولو ترك نافع الدراسة. ثم بماذا ستفيده دراسة الحقوق مادام

سيستلم المصنع فوراً؟ كانت هناك بعض الدموع قد سقطت على بعض الكلمات فشوهتها ولا أعرف دموع من كانت.. هل كانت دموع الأرملة حميدة خانم أم دموع جليلة؟

كان هناك تقرير وفاة العم الصادر عن الطبيب الشرعي الفرنسي الذي فحص الجثة. كان الشرح يثير الضحك فتبسمت. كتب الطبيب في باب أسباب الوفاة بأن المتوفى قد مات اختناقاً أثناء النوم، وهو يعتقد بأن الزوجة البدينة جداً قد تقلبت أثناء النوم فحطت على رقبته فخنقته. كما كتب بأن العم كان يعاني من فتق ظاهر في الجهة اليسرى، وهذا دليل على أنه كان يخدم زوجته البدينة في غياب الخادمات.

غادر الزوجان فرنسا في أيار ,1940 أي قبل احتلال ألمانيا النازية لباريس بشهر واحد. هذا يعني انهما غادرا فرنسا في وقت كانت أوروبا تشتعل فيه من جراء الحرب العالمية الثانية، وكان الحريق يقترب من فرنسا بسرعة البرق. كان نافع قد تخلى عن دراسة الحقوق قبل أن يتقدم إلى فحوص السنة الثالثة. وما إن عاد حتى استلم مصنع الصابون (المصبنة) وقام باجراءات حصر الإرث فامتلك أكثر من ثلثي المصنع بينما امتلكت زوجته جليلة وامرأة عمه الباقي. في هذه الأثناء، كان على ما يبدو يبحث عن وداد وعلم، كما قال لي قبل ان يموت، بقصة هروبها من بيت الخوجة بهيرة. ولكن إلى أين؟ لا أحد يعلم. وجدت في الصندوق العديد من بطاقات سينما روكسي المؤرخة في عامي 1940 و1941 ويبدو أنه اعتاد الذهاب إلى دار السينما لعله يلتقي بوداد الغائبة، أو لكي يستعيد ذكراها. وأنا أرجح السبب الأخير لأنه كان يحرص على حجز ذات المقصورة التي كانوا يجلسون فيها حين كانوا يتواعدون.

يتتابع مسلسل الموت، فهناك تقرير وفاة ممهور بختم أحد المستشفيات ينبئ بموت جليلة ابراهيم الأغيورلي في تشرين الثاني من عام 1945 أثناء الوضع. يشير التقرير إلى وفاة الجنين أيضاً. أما سبب الوفاة، كما كتب في التقرير، فهو البدانة الزائدة التي أدت إلى

ارتفاع ضغط شرياني مما أدى إلى نزيف دماغي..! إذن فقد ترمل نافع وهو في الثلاثين من عمره (لم أجد له صوراً معلقة على الجدار منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم). لم أجد حصر إرث بعد وفاة الزوجة ويبدو أنه لم يستعجل استصداره فلحقت حميدة خانم بابنتها بعد ذلك في حزيران من العام التالي، أما ملكية مصنع الصابون فقد آلت بشكل كامل (2400 قيراط) إلى نافع الأغيورلي.

يعيش نافع وحيداً (لا توجد أية إشارة إلى وجود الخادمة خديجة، فربما كانت قد ماتت هي أيضاً). لم يتزوج من امرأة أخرى، بل كان يسافر كثيراً حول العالم، فجوازات سفره القديمة تحتوي على عدد هائل من تأشيرات الدخول إلى مختلف الدول ومنها الهند والصين والمكسيك. وفي العام 1950 تحدث المفاجأة الكبرى (بالنسبة له وبالنسبة لي أيضاً) فقد وجدت في الحقيبة رسالة كتبت على ورق أسمر وبقلم أنثوي مرتعش، وها أنذا أنقلها لكم (مع بعض التصرف في الصياغة)، فقد جئت بها إلى حلب لأهميتها:

السيد العزيز نافع الأغيورلي المحترم جداً..

تحية وسلامات من قلب مؤمن إلى سيد مقتدر، أما بعد..

فيا سيدي الكريم. انتم تتساءلون ماذا جرى بي وأين موطني. أرجو من حضرتكم ان تسامحوني على ما بدر مني، ولكن محبتكم في قلبي ورغبتي في أن تعيشوا حياتكم دون مكروه جعلتاني أرحل عن بيت الخوجة بهيرة دون ان أترك عنواني. لولا محبتي العظيمة لكم لكنت عدت إليكم، ولهذا السبب صمتّ طوال هذه المدة. قبل ان تسافروا مع حرمكم المصون جليلة خانم، شعرت أنني حملت ولدكم في أحشائي. لم تكن لدي نية في أن أخربط (التعبير لوداد) حياتكم. تركتكم تسافرون ثم في أحد الأيام هربت من بيت الخوجة إلى قرية ميدان اكبس، وهي القرية التي ولدت وعشت فيها حتى وفاة أمي. هناك كذبت على الشيخ عبد الصبور إمام مسجد ميدان اكبس وقلت له إنني قد تزوجت وسجن الفرنسيون زوجي في سجن أرواد.

استقبلني أهل القرية بكل حب فعشت هناك في رعاية عبدو السنكة حتى ولدت. رزقني الله صبياً فسماه الشيخ عبد الصبور باسم اسماعيل. رضيت بالاسم فهو جميل. أنتم تعلمون الآن بأن اسماعيل هو ابنكم مثلما هو ابني وقد ولد في يوم رأس السنة الميلادية عام 1938. بعد ذلك تعرفت على اسرة مصرية قادمة من اسطنبول انقطعت بهم السبل في ميدان اكبس فعزمتهم ليعيشوا عندي في البيت. وعندما انحلت مشاكلهم عرضوا علي أن أرافقهم إلى مصر ففكرت كثيراً. قالوا لي إنني أستطيع أن أرقص في القاهرة وأكسب المصاري. وافقت ثم رحلت معهم إلى القاهرة وهي مدينة كبيرة وفيها نهر عظيم. صاروا يساعدونني في تربية ابني اسماعيل وأنا كنت أرقص في الأعراس لأكسب وأعيش. ولكن الله سبحانه وتعالى عاقبني فمرضت. لن أقول لك اسم المرض ولكنني أسعل كثيراً وصرت أتعب بسرعة ولم أعد أستطيع الرقص. منذ عدة أسابيع أصبحت أبصق دماً. أشعر وكأنني سأموت أيها الحبيب العزيز. لذلك قعدت ورحت أكتب لكم هذه الرسالة وسأكتب عنوانكم بالتفصيل وسأطلب من الأسرة المصرية الذين هم أصدقائي الوحيدين ان يرسلوا ابني اسماعيل إلى حلب ومعه الرسالة والعنوان، فإذا وصل لعندكم فهذا يعني إنني قد مت فليرحمني الله وأتمنى أن تترحموا على روحي وتقرؤوا عليها الفاتحة ولو مرة واحدة لأنني أحببتكم من كل قلبي وفعلت كل ذلك لتعيشوا عيشة محترمة.

ملاحظة: أعود فأؤكد لكم بأن اسماعيل ابنكم ومن صلبكم، وأنا أقسم بالله العظيم على أنه ابنكم. ارجو أن لا يسبب وصوله إليكم اية مشاكل مع الأقرباء وأن ترأفوا بحاله ويمكنكم ان تقولوا بأنه خادمكم. وهو صبي ذكي وحساس، يسألني دائماً عن أبيه. يتقاتل معي دائماً فهو يخجل لأنني رقّاصة.

القاهرة شباط 1950

المخلصة لكم دوماً: وداد

جعلتني الرسالة أكثر هدوءاً. اكتملت الحكاية ولم تعد هناك أية نواح غامضة. ظللت جالساً في مكاني أتمعن في خط وداد. كانت يدها ترتعش عندما خطتها. حاولت أن أتصور العذاب الذي كابدته في أيامها الأخيرة. من المؤكد أنها عانت ميتة بطيئة ومعذبة. أصابني حزن عميق عليها. لقد أحببتها من الحكاية ومن أشيائها التي احتفظ بها الشيخ نافع، فانتقل حبه لها إلى فؤادي.

وانا جالس على أرض الغرفة جاءتني فكرة كتابة الحكاية. ولكنني فكرت بالطريقة، فأنا لم يسبق لي أن كتبت قصة أو موضوع إنشاء أطول من صفحة واحدة. كرهت نفسي لأنني لا أجيد الكتابة. قررت، حالما أعود إلى حلب، ان أتصل بأحد الكتاب وأرجوه أن يكتبها كما كنت قد ذكرت في البداية. ولكن، كان علي أن أفكر أولاً بالهرب، فاسماعيل مستعد لقتلي إذا ما شعر بأن الحكاية ستنتشر في المدينة التي يفكر أن يعود للعيش فيها بعد رحيل أبيه الشيخ نافع. حتى أنه هددني بأنه سيلحق بي إلى المدينة لاصطيادي إذا ما أفلحت في الهرب. كان يكره أمه لأنها كانت راقصة. يكره كونه ابن زنى. يكره كونه اضطر إلى تسمية نفسه خادماً لأبيه. أبعد أباه عن المدينة إلى البرية كي يعزله عن البشر مخافة أن يفتضح سره. ولكن الحياة قاسية يا اسماعيل، فقد قادتني إلى هنا لاستمع إلى الحكاية ولأحل كل ألغازها رغم موت صاحب الحكاية. ولكن، هل من المفيد أن أسعى لكتابتها ولتسمية الأشياء والناس بأسمائهم الحقيقية؟ أستطيع مثلاً (من أجل احترام سر اسماعيل وخوفاً منه في ذات الوقت) أن أغير أسماء كل أبطال القصة. أستطيع أيضاً أن أغير أسماء الأحياء والشوارع والقرية التي عاشت فيها بديعة ووداد. الحكاية تبقى بينما يرحل أبطالها. سأبقي فقط على القاهرة التي رحلت إليها وداد مع ابنها. أما الباقي، أيها القارئ العزيز، فقد قررت أن أتصرف بأسمائها. حتى المصنع الذي ورثه الشيخ نافع يمكنني أن أبدل ما ينتجه بالصابون، رغم أنه في الحقيقة، ينتج شيئاً مناقضاً للصابون مئة بالمئة. وقد اخترت الصابون لأن والد

أحد رفاق الطفولة كان يملك مصبنة فكنا نمضي أوقاتاً ممتعة في مراقبة طريقة صنع الصابون وكنا نشتهي المساهمة في عملية دق الختم على الألواح. هكذا قررت وأنا جالس بين أوراق المرحوم نافع وصوره وأمامي جثته على السرير، وقد نفذت ذلك، كما ترى أيها القارئ المحترم، فخصوصيات الناس وأسرارهم يجب أن تحترم.

سمعت زقزقة العصافير البرية فعدت من غياهب أفكاري. تطلعت إلى النافذة فرأيت بأن الفجر بدأ يطل علي بخجل. علي أن أهرب الآن. إن لن أهرب فإنني ميت لا محالة. كان علي أن أعيش لكي أتمم مهمتي في كتابة الحكاية ونشرها بين الناس. نهضت. جمعت الأوراق والصورة والمناديل التي فرزتها والتي قررت أخذها معي ووضعتها في الحقيبة الجلدية العتيقة، ثم أعدت الأشياء الباقية إلى الخزانة. استعرت من ثياب الشيخ سترة تحميني من البرد ثم أخرجت عدة شراشف للسرير وربطتها ببعضها بشكل محكم، لكي تكون لي عوناً في النزول من النافذة حتى ارض الحديقة بسلام. وقفت بجانب السرير وقرأت الفاتحة على روح الشيخ ثم قبلته وتركت نفسي أذرف دمعة. ودعت الشيخ، ثم ألقيت نظرة أخيرة على الغرفة. فتحت النافذة والأباجور بهدوء ودليت حبل الشراشف. علقت البندقية على كتفي والحقيبة في حزامي ثم نزلت.

لمست قدماي أرض الحديقة بسلام. كانت السماء صافية والمطر قد توقف منذ منتصف الليل. كانت الرطوبة تعم كل شيء في الكون فلم أسمع خشخشة أثناء تحركي. خرجت من الحديقة وأنا أمسك بالبندقية، أتطلع حولي بحذر ثم أسلمت قدمي للريح. لم أنظر إلى الخلف. جعلت أركض فحسب. ظللت أركض حتى شعرت بالإنهاك. عندها توقفت وتطلعت إلى الخلف. كان البيت قد غاب بشكل كامل، حتى أنني استغربت اختفاءه بهذه السرعة. رحت أسير بشكل عادي وبعد ثلاث ساعات شاهدت راعياً يرعى قطيعاً من الغنم. اقتربت منه وطلبت منه أن يساعدني في الوصول إلى طريق

السيارات. دلني الرجل. أعطيته البندقية مكافأة على خدمته، وبعد نصف ساعة كنت أشير إلى سيارة عابرة فانتشلتني، وفي الثانية ظهراً كنت أطرق باب بيتي لأنني كنت قد تركت مفاتيحي في بيت الشيخ نافع. وعندما شاهدتني نادية زوجتي، أغمي عليها، فقد كانوا يحسبونني قد ضعت في البرية وصرت طعاماً للوحوش.

نهاد سيريس ـ حلب 1998







«الحقيقة أنني ما إن شرعتُ في قراءة هذه الرواية، وتجاوزت الصفحات القليلة الأولى، حتى وجدتني مستغرقاً بالكامل في ذلك العالم الإيروتيكي المترع بالفتنة والرغبات الشاذة، والمغامرات المدهشة.

لقد تمكن نهاد سيريس في روايته هذه من إزاحة النقاب عما يعتمل داخل أحشاء المجتمع الحلبي السوري، من فورانات ومفارقات غريبة، وعن قدرة البشر على تجاوز المحظورات الاجتماعية والجنسية والدينية عبر التحايل والمراوغة والتفنن.

ولا يستطيع قارئ «حالة شغف» الإفلات للحظة واحدة من شغف القراءة نفسها، والتمتع بمناخات الرواية التي يختلط فيها المرئي باللامرئي، والمباح بالممنوع، والغريزة بالوله المشبوب، دون أن يعيق التأليف رشاقة السرد وتفرعاته التلقائية».

شوقي بزيع «السفير»

«(بنات العِشرَة) عالم مُلتبَس، واضح وغامض في الوقت نفسه، معزول ومتفاعل في المستوى نفسه. عالم مصنوع من العيب والحرام ليُضفي على من قاربوه لذة التلصص على تفاصيله، وفخر الترفع عن حضوره، عالم يصنعه المجتمع في لحظة غيبوبته لتأدية مهمة محددة يرسم بها مواصفات شخوصه وأفعالهم وحتى نواياهم وشهواتهم، تاركاً لهم لذة الاقتراف التي لا تُشبع نهماً».

نجيب نصير «الحياة»